أ. د/ محمد عبد الفتاح عليان
أستاذ التاريخ الإسلامى جامعة الأزهر

نشأة الحركة الإباضية فى البصرة

ومناقشة دعوى تأسيس جابر بن زيد

– وعلاقتها بالخوارج –

دار الهداية
للطباعة والنشر والتوزيع

الطبعة الأولى

(١٤١٥هـ - ١٩٩٤م)

رقم الإيداع بدار الكتب

٩١/٥٨٤١



مقـدمـة

الإباضية هى إحدى الفرق التى ظهرت بالبصرة فى سنة ٦٥ هـ على أثر انقسام المحكمة بها فى العام المذكور . وكان هؤلاء يتزعمهم فى البداية أبو بلال مرداس ابن حدير التميمى ، وهو واحد من بين الخوارج القلائل الذين نجوا فى معركة النهروان ضد على بن أبى طالب فى سنة ٣٨ هـ ، وفر على أثرها إلى البصرة حيث كانت تقيم قبيلته بنو تميم . وهناك نجح أبو بلال فى إقناع بعض الأهلين بالالتفاف حوله ، ولم يلبث أن خرج على رأس حوالى أربعين من أصحابه معلنا الثورة على الأمويين فى سنة ٦١ هـ ، ولكنهم جميعا لقوا مصرعهم فى هذا العام . وقد نشط أتباع أبى بلال من المحكمة وكثر عددهم بعد موته ، لدرجة أن جمعا منهم توجه إلى مكة فى سنة ٦٣ هـ لمؤازرة عبد الله ابن الزبير ضد الأمويين ، وكان عبد الله وقتذاك عائذا بالبيت ويحاصره جيش أموى بقيادة مسلم بن نمير السكونى . وكان على رأس هذا الجمع نافع بن الأزرق ، ونجدة ابن عامر الحنفى، وعبد الله بن إباض ، وعبد الله بن صفار ، وأبو بيهس الضبعى وغيرهم،لكن هؤلاء اختلفوا مع ابن الزبير وعادوا إلى البصرة ، ولم يلبثوا أن اختلفوا مع بعضهم البعض ، فانقسموا فى سنة ٦٥ هـ إلى فرق أربع هى : الأزارقة ، والنجدات ، والإباضية والبيهسية أو الصفرية على خلاف بين المؤرخين ، وإن كان المرجح هو أن الصفرية نشأت فى وقت لاحق .

وعلى الرغم من وضوح الجذور التاريخية للإباضية وأنها إحدى فرق الخوارج الرئيسية على النحو المشار إليه ، إلا أن الكتاب الإباضيين المحدثين ينكرون صلة الإباضية بالخوارج ، ولديهم حساسية شديدة فى هذا الصدد إلى درجة أنهم يتهمون كل من يصنفهم ضمن الخوارج بالتعصب والافتراء والجهل ، مع العلم أن أسلافهم لاينكرون هذه الصلة ، والأدلة على ذلك كثيرة ، أهمها ما ورد فى كتاب عبد الله بن إباض إلى الخليفة

الأموى عبد الملك بن مروان الذى أوردنا نصه فى الملاحق . وفى هذا الكتاب يشيد ابن إباض بالخوارج ويعتز بالانتماء إليهم فيقول : "هذا خبر الخوارج ، شهد الله والملائكة أنا لمن عاداهم أعداؤنا ولمن والاهم أولياؤنا ، بألسنتنا وأيدينا وقلوبنا ، نعيش على ذلك ما عشنا ، ونموت عليه إذا متنا ، ونبعث عليه عند ربنا" .

ونظرا لارتباط اسم عبد الله بن إباض بحركة الخوارج على النحو المشار إليه ، فقد آثر الإباضية – فيما يبدو– أن ينسبوا تأسيس فرقتهم إلى جابر بن زيد بدلا من ابن إباض، خاصة وأن جابرا كان من فقهاء البصرة الذائعى الصيت ، لتمتعه بمكانة علمية مرموقة وسمعة طيبة بين معاصريه ، كما أنه لم يكن يتردد فى استنكار ماقد يراه من مظالم الولاة الأمويين ، وخاصة الحجاج بن يوسف الثقفى الذى سجن جابرا ونفاه ، هذا فضلا عن أن جابرا كان من الأزد الذين اعتنق عدد كبير منهم المذهب الإباضى .

لكن مصادرنا لاتشير إلى أى دور لجابر بن زيد فى حركة الخوارج ، فى الوقت الذى يرد فى بعضها أنه كان يتبرأ مما كان يشيعه الإباضية من أنه منهم . حقيقة يفهم مما ذكره كل من الشماخى والرقيشى ، وهما مؤرخان إباضيان ، أن ابا بلال مرداس وعبد الله بن إباض وغيرهما كانوا لايصدرون فى أمرهم إلا عن رأى جابر وأن أصحابه كانوا يسترونه عن الحرب مخافة أن يوقع به الأعداء . إلاّ أن المؤرخين المذكورين لم يشيرا إلى مصدرهما فى هذا الصدد على غير عادتهما بالنسبة لما يذكرانه من أخبار ، خاصة وأنهما كانا يعيشان فى القرن العاشر الهجرى فى حين عاش جابر فى القرن الأول .كما أنه لو صح أن جابرا كان يقود محكمة البصرة فى حياة أبى بلال ، وأنه كان يتخفى لئلا يبطش به الأمويون وقتذاك ،فإنه كان من المفروض أن يظهر على حقيقته لما اضطربت أحوال الأمويين عقب موت يزيد بن معاوية سنة ٦٤ هـ ، ذلك الاضطراب الذى مكن الخوارج من تحدى والى البصرة عبيد الله بن زياد وكسر أبواب سجنه الذى خرج منه زهاء أربعمائة منهم ، ومشوا فى الناس بالدعاية ضد الوالى المذكور حتى أرغموه على الفرار إلى بلاد الشام . وفى هذه الظروف ظهر نافع بن الأزرق كأبرز زعيم للخوارج ، ونهج مسلكا خالفه فيه بعض زعمائهم الآخرين ، ومنهم عبد الله بن إباض ، مما أدى إلى ظهور فرق الخوارج الأربع الرئيسية المشار إليها ومنها الإباضية . ولو كان لجابر بن زيد

أى دور قيادى لمحكمة البصرة ، لظهر للعيان فى مثل هذه الظروف التى لم يكن يخشى عليه فى أثنائها من أحد ، ولكن المصادر لاتشير إلى أى دور له حينذاك على الإطلاق .

ويرى بعض الباحثين أن جابر بن زيد كان يقود الحركة الإباضية فى وجود عبد ا لله بن إباض من وراء ستار ، وأنه رأى فى وقت من الأوقات ضرورة الإفصاح عن معتقداتها ، وخاصة ما يتعلق منها بوجهة نظر الإباضية ، نحو متطرفى الخوارج ونحو المسلمين المخالفين فى المذهب ، حتى لايتعرضوا للسخط من جانب هؤلاء المسلمين الذين كانوا يعتبرون الأزارقة وغيرهم من الخوارج المتطرفين مارقين تجب محاربتهم والقضاء عليهم . وكان ابن إباض هو المؤهل للقيام بهذه المهمة الدعائية لقدرته على المناظرة والمجادلة ، ولأنه كان ينتمى إلى قبيلة تميم إحدى أهم قبائل البصرة . ولذلك ظن الناس أن ابن إباض مؤسس الحركة الإباضية فى حين أن جابر بن زيد هو المؤسس الحقيقى لها . وقد حاول أحدهم تأكيد دور جابر فى تأسيس هذه الحركة بالإشارة إلى بعض الرسائل المنسوبة إليه والموجهة منه إلى أشخاص كثيرين فى مختلف المناطق ، وفسر ذلك على أنها محاولة من جابر لنشر المذهب الإباضى على نطاق واسع داخل البصرة وخارجها .

على أن مخالفة الإباضية للخوارج المتطرفين فى الرأى والتنديد بهم لايحتاج إلى شخص تحميه قبيلة قوية من بطش الولاة الأمويين ، لأن هؤلاء لايعقل أن يتعرضوا بأى أذى لمن يقوم بهذا التنديد ، بل على العكس يكون فى أمان من أذاهم . كما أننا لانوافق على القول بأن ابن إباض كان فى منعة من قومه بنى تميم ، لأن ولاة الأمويين ، من أمثال زياد بن أبيه وابنه عبيد ا لله والحجاج بن يوسف الثقفى ، كانوا يضربون بشدة على أيدى كل من يرون فيه خطرا على الدولة الأموية ، غير عابئين البتة بالقبيلة التى ينتمى إليها ، بل إن زيادا كان يتوعد كل قبيلة بإجلائها وحرمانها من العطاء ، إن هى تقاعست عن قتال من ينضم من أبنائها إلى الخوارج ، ولذلك كانت القبائل -كما يقول المبرد- إذا أحست بخارجية فيهم شدتهم وأتت بهم الوالى المذكور . وقد استمر هذا النكال بالخوارج ، ولكن بصورة أبشع ، على عهد كل من عبيد ا لله بن زياد والحجاج ،

ولاينبغى أن يغيب عن بالنا أن أعدادا كبيرة من الخوارج - بما فيهم عبد الله بن إباض- كانوا فى سجن ابن زياد بالبصرة ، وأن هؤلاء لم يخرجوا منه إلا بعد موت الخليفة يزيد ابن معاوية واضطراب أحوال الأمويين على النحو المشار إليه . أضف إلى ذلك أنه من المتفق عليه أن جابر بن زيد كان أكثر علما وأقوى حجة من عبد الله بن إباض ، وأن المصادر الإباضية ذكرت أنه كان يناظر الخوارج بنفسه ويفعمهم بحججه القوية حتى يسكتهم ، وأنه كان يندد فى دروسه ومجتمعاته بالمنحرفين ، ويبارك الثورة التى تطيح بالظلم وتنزع الحكم منهم لتضعه فى أيدى أمينة . هذا فضلا عن أن جابرا كان من الأزد الذين لايستهان بقوتهم فى البصرة ، حتى أن المهلب بن أبى صفرة الأزدى تمكن بفضل المؤازرة التى لقيها منهم خاصة من أن يحمى البصرة من خطر الخوارج الأزارقة ، مما حدا بالبعض إلى أن يطلق عليها اسم "بصرة المهلب" ، وإن دل هذا على شئ فإنما يدل على أن الأزد كانوا أقوى شكيمة وأكثر قوة من تميم أو غيرها من القبائل التى كانت تقطن بتلك المدينة .

أما بالنسبة للرسائل المنسوبة لجابر بن زيد والموجهة منه إلى أشخاص عديدين خارج البصرة ، فهى مودعة بالمكتبة الإسلامية بمسقط ، لكنه لايمكن أن يعول عليها لأنها جميعا منسوخة على الآلة الكاتبة ، ومأخوذة عن نسخة قيل بأنها فى المملكة المتحدة ، لكن لم يذكر لهذه النسخة رقما ، ولا تاريخا ، ولااسم المكان المحفوظة . هذا فضلا عن أنه لم يرد بها أية إشارة - لاتلميحا ولاتصريحا - إلى أن جابرا كان يدعو من خلالها إلى الإباضية ، بل هى فى الواقع ردود من هذا الفقيه المشهور على استفسارات فقهية من قبل بعض معارفه وأصدقائه ، وقد أوردنا نصوص بعض هذه الرسائل فى الملاحق . علما بأن الدكتور عوض خليفات يذكر أنه حصل على نسخة مصورة من مخطوطه أهداها له أحد أصدقائه لبضع ساعات ، لكن هذه النسخة أيضا لاتحمل رقما ولاتاريخا ولااسم الدار التى تحفظ بها المخطوطة الأصلية . وبمقارنة مانقله خليفات عن هذه النسخة بالوارد فى النسخة المودعة بالمكتبة الإسلامية بمسقط ، يتضح أن هاتين النسختين متماثلتين .

ولانشك فى أن الإباضية منذ نشأتها قد جنحت إلى الاعتدال ، حيث استنكر عبد الله بن إباض مسلك نافع بن الأزرق فى تكفير مخالفية واستحلال سفك دمائهم ومعاملتهم معاملة المشركين . وقد أجمع معظم المؤرخين وكتاب الفرق والمقالات، القدماء منهم والمحدثون ، على التنويه باعتدال الإباضية وبعدها عن الغلو الذى اتصف به الأزارقة ومن على شاكلتهم من فرق الخوارج . كما ثبت أن أبا بلال مرداس بن حدير ، بشهادة الجميع على اختلاف مذاهبهم ، كان يكره الغلو ويتبرأ من الغلاة ، مثلما فعل بالنسبة لاثنين من أتباعه هما قريب وزحّاف . وقد انفرد الإباضية دون غيرهم من فرق الخوارج -على مايبدو- بالتمسك بمنهجه .

وقد أتاحت لى الظروف الإقامة بسلطنة عمان منذ بضع سنين ، ولازلت أقيم ، والمعروف أن أغلب أهل هذا البلد الطيب من الإباضية . وهم -من وجهة نظرى- متمسكون بأهداب الدين الحنيف ، ولايشوب إسلامهم أية شائبة ، اللهم إلاّ موقفهم من بعض الصحابة الكرام ، وبخاصة الخليفتين الراشدين عثمان بن عفان وعلىّ بن أبى طالب، فعلى الرغم من أن الكتاب الإباضيين المحدثين يقولون : إنهم يبجلون الصحابة أجمعين ، ويعتقدون أن الله تعالى اختارهم لنصرة نبية عليه السلام ، ويصفون كل من ينتقص من شأن أحدهم بالخسران المبين ، إلاّ أن وزارة التراث القومى والثقافة بسلطنة عمان نشرت مؤخرا عددا من الكتب -على النحو الذى عرضت له بالتفصيل- ورد بها عبارات تصف بعض الصحابة باللعن والضلال ، والأهم من ذلك ماتنسبه إلى عثمان بن عفان من الارتداد عن الإسلام ، وإلى علىّ من النكث بعد التوبة والموت على هذه الحال دون أن يتوب من الكبيرة التى اقترفها بقبوله لمبدأ التحكيم وتحريمه لقتال الفئة الباغية الذى أحلّه الله . ومعنى ذلك أن الخليفتين المذكورين خالدان فى النار بحسب عقيدة الإباضية ، لأنه لاخلاف بينهم على أن صاحب الكبيرة إذا خرج من الدنيا غير مقلع عن الكبيرة وتائبا منها فهو كافر مخلد فى النار ، وهذه الكبيرة التى اقترفها ولم يتب منها أو لم يقم عليه حدّها قد أحبطت الطاعات التى قام بها .

ومهما يكن من أمر ، فإنه لايسعنا إلا أن نسجل -بكل الارتياح والانشراح- ماشرع فيه هؤلاء الكتاب الإباضيين المحدثين من الثناء على الصحابة بوجه عام ، وعلى

ذى النورين عثمان بن عفان والإمام على بن أبى طالب بوجه خاص ، آملين أن يزداد هذا الثناء تأكيداً على مرّ الأيام .

وفى الختام ، أسأل الله تعالى أن يؤلف بين قلوب المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ، وأن يجمعهم على كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وأن يوفق الجميع إلى مافيه الخير والصلاح .

ا.د/ محمد عبد الفتاح عليان
القاهرة
فى ٢١ رجب سنة ١٤١٥ هـ
الموافق ١٥ديسمبر سنة ١٩٩٤ م

الإباضية هى إحدى الفرق التى ظهرت بالبصرة على أثر انقسام المحكمة فى سنة ٦٥ هـ ، وكان هؤلاء يتزعمهم أبو بلال مرداس بن حدير التميمى ، وهو واحد من الخوارج القلائل الذين نجوا فى معركة النهروان سنة ٣٨هـ ، وفر على أثر ذلك إلى البصرة التى اتخذتها قبيلته "بنو تميم" مقاما لها ، وهناك نجح أبو بلال فى إقناع بعض الأهلين بالالتفاف حوله ، ولم يلبث أن خرج مع عدد من أصحابه إلى الأهواز معلنا استنكاره لمظالم الوالى الأموى عبيد الله بن زياد ، فلقى الجميع مصرعهم فى سنة ٦١ هـ ، وقد نشط أتباع أبى بلال من المحكمة وكثر عددهم بعد موته ، لدرجة أن جمعا منهم توجه إلى مكة لمؤازرة عبد الله بن الزبير فى سنة ٦٣ هـ ضد الأمويين الذين كانوا يواجهونه وقتذاك ، ولكن هؤلاء المحكمة اختلفوا مع ابن الزبير وعادوا إلى البصرة ، ولم يلبثوا أن اختلفوا مع بعضهم البعض ، فانقسموا فى سنة ٦٥ هـ إلى فرق أربع منها الإباضية .

ولكى نستبين حقيقة الصلة بين الخوارج والإباضية ، ينبغى أن نعرض لظهور الخوارج وتطور حركتهم حتى معركة النهروان سنة ٣٨ هـ ، وهى المعركة التى فر على أثرها -كما قلنا- أبو بلال مرداس إلى البصرة حيث كون الجماعة التى تفرعت عنها الإباضية .

علما بأن الإباضيين ينكرون بشدة صلتهم بالخوارج ، ويحرص مفكروهم على نفى هذه الصلة كلما أمكنهم إلى ذلك سبيلا ، ويقولون : إن اسم "الخوارج" يجب ألا يطلق إلا على أولئك الذين لم يقصروا عنفهم على الحكام الظالمين ، بل تطاولوا إلى الرعية واستعرضوا الناس وسفكوا دماءهم بغير حق ووصموهم بالشرك ، فخرجوا من الدين ، لأنهم أنكروا أحكامه التى لاتبيح ما اقترفوه من آثام ، وهذا ينطبق على الأزارقة والنجدات وغيرهم من غلاة الخوارج . أما الإباضية فلا تنطبق عليهم الاعتبارات التى أدت إلى إطلاق إسم "الخوارج" على هؤلاء الغلاة ، لأنهم لم ينكروا أى حكم من أحكام الإسلام ، وتاريخهم كله يشهد -قولا وعملا- بالاعتدال والاستقامة ، وهم لم يشتركوا مع الخوارج إلا من حيث الاعتراض على التحكيم الذى جرى بين على بن أبى طالب

ومعاوية بن أبى سفيان ، وإنكار القول بضرورة أن يكون الإمام من قريش . أما الخروج على علىّ بن أبى طالب باعتباره وليا للأمر ، فلا يجوز أن يكون مبررا للتسمية بالخوارج ، لأن كثيرين ممن خرجوا عليه لم يطلق عليهم هذا الأسم ، مثل : طلحة والزبير والسيدة عائشة ومعاوية ، كما لم يطلق على أولئك الذين خرجوا على عثمان بن عفان من قبل ، ولا على الذين خرجوا على خلفاء بنى أمية من بعد ، مثل : الحسين بن على ، وعبد الله بن الزبير ، والمختار بن أبى عبيد الثقفى ، وزيد بن على زين العابدين وغيرهم[1] .

وعلى الرغم من موافقتنا على أن الإباضية يميلون -منذ نشأتهم- إلى الاعتدال ، وأنهم يستنكرون ماقام به الأزارقة والنجدات وغيرهم من غلاة الخوارج من أعمال تتعارض مع أحكام الدين وتخرجهم من حظيرة الإسلام ، إلا أننا لانشك فى أن الإباضية وكل فرق الخوارج -على كثرتها- هم فى الأصل جماعة واحدة ، أعلنوا الثورة على عثمان بن عفان وتبرءوا منه ، ثم استباحوا دمه ، لأنه -فى اعتبارهم- من الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ماتبين لهم الهدى ، وأن الشيطان سول له وأملى له[2] . ثم خرج هؤلاء على علىّ بن أبى طالب بعد أن كانوا ضمن جنده ، وذلك لما قرر المضى فى إجراءات التحكيم ووافق على كتابة اسمه فى وثيقة التحكيم مجردا من لقب أمير المؤمنين ، فاختاروا لهم إماما غيره هو عبد الله بن وهب الراسبى ، و لم يلبثوا أن التقوا مع جيش على وحاربوه ، فى معركة النهروان سنة ٣٨ هـ . ويعتبر الإباضية -وكل فرق الخوارج- هذه الجماعة من أسلافهم ، ويصفون رجالها بأنهم خير من على وجه الأرض[3] .

---

(١) انظر : على يحى معمر : الإباضية بين الفرق الإسلامية ، ج ١ ص ١٨٨ - ١٩٢ .

(٢) انظر رسالة عبد الله بن إباض إلى عبد الملك بن مروان الوارد نصها فى كثير من المصادر الإباضية مثل : البرادى : الجواهر المنتقاة ، ورقة ١٥٦ ، ١٦٧ ، وسالم بن حمود السيابى : إزالة الوعثاء ، ص ١٨٦ - ١٩٨ ، والحارثى : العقود الفضية ، ص ١٢٣ - ١٣٨ ويتضح موقف الإباضية بجلاء من عثمان بن عفان مما ورد فى هذه الرسالة وذلك من الصفات التى يصفونه بها على لسان ابن إباض .

(٣) انظر الشماخى : السير ، ج ١ ص ٥١ .

أولا – النزاع بين عليّ ومعاويه

ترتبط نشأة الخوارج بالنزاع بين عليّ ومعاوية ، فمنذ اتفق هذان الطرفان على التحكيم فيما بينهما ، ظهر الخوارج كحزب سياسي ديني مستقل ومعارض لهذا التحكيم. إلا أن ظهورهم كانت له مقدمات قبل ذلك على عهد عثمان بن عفان ، حتى أن ابن كثير(١) يصف الثائرين عليه باسم "الخوارج" . وكانت المشاكل التى نجمت عن مقتل الخليفة المذكور هى السبب فى النزاع بين على ومعاوية ، إلا أن بعض الإباضيين المحدثين(٢) يصفون هذا النزاع بأنه صراع من أجل الرئاسة بين الهاشمية والأموية ، كما أن بعض المؤرخين ذهبوا إلى أن جذور هذا النزاع ترجع إلى العصر الجاهلى ، حيث وقع -من وجهة نظرهم- خلاف شديد وتخاصم بين بنى أمية وبنى هاشم . وأول من ذكر ذلك هو ابن سعد فى كتابه "الطبقات الكبرى" نقلا عن هشام بن محمد السائب الكلبى، وهى رواية مفردة مقطوعة السند ، يصف ياقوت الحموى(٣) صاحبها بأنه لايحقق ما يصل إليه ، فيذكر ابن سعد(٤) أن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف حسد عمه هاشم ابن عبد مناف ونازعه الفضل ، فتنافر الاثنان على خمسين من الإبل والهجرة إلى الشام عشر سنين ، وذلك أمام كاهن خزاعة ، فحكم هذا الكاهن لهاشم بالفضل على ابن أخيه أمية، فتقدم بالإبل وهاجر إلى الشام حيث أقام بها السنين العشر ، فكانت هذه أول عداوة وقعت بين هاشم وبنى أميه .

كما يشير ابن سعد إلى منافرة أخرى بين عبد المطلب بن هاشم وحرب بن أمية ،

---

(١) البداية والنهاية ، ج٧ ص ١٨٩ .

(٢) يقول على يحى معمر (الإباضية بين الفرق الإسلامية، ج ٢ ص ١٧٥) : "بايع الناس الحسن ابن على بعد اغتيال والده ، فقرر ـ فى داخل نفسه ـ أن يوقف الصراع المرير بين الهاشمية والأموية ، وأن يحقن دماء المسلمين ، فلما عرضت عليه البيعة قبلها ، حتى إذا هدأت العواصف ، واستقرت الأمور ، وسكن الناس ، سلم الخلافة إلى معاوية بن ابى سفيان .

(٣) معجم الأدباء ، ج ١٩ ، ص ٢٨٧ - ٢٨٨ .

(٤) الطبقات الكبرى ، ج ١ ص ٥٥ - ٥٦ .

وأنهما احتكما إلى نجاشى الحبشة ، فأبى أن يحكم لأحدهما ، مما ألجأهما إلى حكم آخر قال لحرب بن أمية : ياأبا عمرو !! أتنافر رجلا أطول منك قامة ، وأعظم منك هامة ، وأقل منك لامة ، وأجزل منك عطاء ؟

وهاتان المنافرتان اللتان ذكرهما ابن سعد نقلهما عنه كل من البلاذرى[1] والطبرى[2] وابن الأثير[3] . وكتب المقريزى كتابا خاصا بهذا التنازع سماه "النزاع والتخاصم بين بنى أمية وبنى هاشم" رد فيه الخصومة التى قامت بين هذين البيتين فى عهد على بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان ، وما تلا عهدهما ، إلى المنافرتين المشار إليهما[4] .

ويرفض الدكتور أحمد الشريف[5] قصة المنافرة بين هاشم وأمية فى الجاهلية ، ودليله على ذلك أن هاشما وأخاه عبد شمس كانا توأمين ، وتوفى هاشم وسنه خمس وعشرون سنة[6] فكم يكون سن ابن أخيه أمية بن عبد شمس حين نافر عمه هاشما ؟ كما أن بنى هاشم وبنى أمية بيتان لعبد مناف ولم يشر ابن اسحق بتاتا إلى أية منافرة بينهما وقتذاك ، كما لم يشر إليها أحد من كتاب السيرة المحققين من أمثال : ابن كثير ، وابن سيد الناس ، بل إن ابن اسحق يثبت الترابط بين آل عبد مناف فى الجاهلية ، فهو حين يتحدث عن إعادة حفر زمزم على يد عبد المطلب بن هاشم يقول : إن بنى عبد مناف افتخرت بها على قريش كلها وعلى سائر العرب ، ويروى قصيدة لواحد من بنى أمية يفخر فيها على قريش بما ولوا عليه من السقاية والرفادة وبزمزم حين ظهرت لهم . والمعروف أن هذه المناصب كلها كانت فى يد عبد المطلب بن هاشم ، ويعلق ابن

---

(١) أنساب الإشراف ، جـ١ ص٦٠ - ٦١ .

(٢) تاريخ الأمم ، جـ٢ ، ص١٣ .

(٣) الكامل فى التاريخ ، جـ٢ ، ص٩ - ١٠ .

(٤) انظر ص ٣٧ - ٤٠ .

(٥) مكة والمدينة فى عهد الرسول ، ص ١٢٨ - ١٣٤ .

(٦) البلاذرى : أنساب الأشراف ، جـ١ ، ص٦٣ .

اسحق[1] على ذلك بقوله : "إنما كان بنو عبد مناف أهل بيت واحد ، شرف بعضهم لبعض شرف ، وفضل بعضهم لبعض فضل" .

وقد استمر الترابط بين بنى عبد مناف عقب ظهور الإسلام ، وخروج بنى أمية لقتال النبى صلى ا لله عليه وسلم فى بدر كان نزولا عن رغبة عامة من قريش ، ولنفس السبب خرج بنو هاشم أيضاً لقتاله ، وأسر المسلمون منهم بضعة رجال فادوا أنفسهم بالمال مثل بقية الأسرى . ولئن ظهر من بنى أمية أعداء ألداء للنبى صلى ا لله عليه وسلم ، فقد ظهر أيضا من بنى هاشم أعداء أشد مثل أبى لهب وأبى سفيان بن الحارث بن عبد المطلب . ومن المعروف أن قريشا كان قد استقر رأيها على الإستعاضة عن وظيفة شيخ القبيلة بعشر وظائف تسند إلى زعماء بطونها الكبيرة ، فكان لبنى أمية لواء القوافل التجارية والمعارك الحربية ، ولذلك لا نعجب إذا رأينا أن قادة قريش فى غزواتها ضد النبى عليه السلام كانوا من بنى أمية ، مع ملاحظة أن أبا سفيان بن حرب بن أمية بعد أن نجا بقافلته المشهورة قبيل معركة بدر ، أرسل إلى جيش قريش المتحرك نحو بدر يحثه على الرجوع إلى مكة ، وعدم مواصلة السير ، كما أن عتبه بن أبى ربيعة بن عبد شمس الأموى كان من رأيه أيضا الرجوع وعدم الاشتباك مع النبى صلى ا لله عليه وسلم فى بدر ، لولا أن سبه أبو جهل واتهمه بالجبن وممالأة ابن عمه محمد عليه السلام .

ويشير الواقدى[2] إلى ما قاله أبو جهل فى هذا الموقف بما نصه :"إن عتبه يشير عليكم بهذا (يعنى الرجوع) لأن ابنه (أبا حذيفة) مع محمد ، ومحمد ابن عمه ، وهو يكره أن يقتل ابنه وابن عمه" .

ومن الثابت تاريخيا أن العباس بن عبد المطلب كان صديقا حميما لأبى سفيان ابن حرب بن أمية ، وقد ظل صديقا له بعد ظهور الإسلام ، فالعباس هو الذى أخذ الأمان لأبى سفيان من النبى صلى ا لله عليه وسلم عند فتح مكة ، وقد اشتد على عمر ابن الخطاب حين اقترح على النبى أن يضرب عنق أبى سفيان ، فقال العباس : مهلا يا عمر ،

---

(١) انظر ابن هشام : السيرة ، حـ١ ، ص ١٦٢ .

(٢) مغازى رسول ا لله ، حـ١ ص ٤٦ .

فوا لله أن لو كان من رجال بنى عدى (عشيرة عمر) ماقلت هذا ، ولكنك عرفت أنه من رجال عبد مناف .

وهكذا يثبت ابن اسحق والواقدى ، ومن أخذ عنهما ، أن الترابط كان موجودا بين بنى عبد مناف جميعا ، وأن قريشا كانت تعتبر بنى عبد مناف عصبة واحدة ، حتى ليقول أبو جهل ، وقد سئل عن رأيه فيما يقول محمد صلى ا لله عليه وسلم ، :"تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف : أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تحاذينا على الركب وكنا كفرسى رهان قالوا : منا بنى عبد مناف من يأتيه الوحى من السماء ، فمتى ندرك مثل هذا ؟ وا لله لا نؤمن به أبدا" .

وبناء على ماسبق ذكره ، فإن هذا التنازع الذى ذكره بعض المؤرخين بين بنى هاشم وبنى أمية فى الجاهلية لم يكن له وجود ، ولم يثر بين هذين البيتين نزاع إلا بعد مقتل عثمان رضى ا لله عنه والفتنة التى نشأت عن هذا الحادث الخطير . فقد رأى على ابن أبى طالب بعد أن بويع بالخلافة أن يعمل على تسكين الفتنة ، وليس ثمة شك فى أن التذمر من ولاة الأمصار على عهد عثمان كان من دواعى هذه الفتنة ، وكان أغلب هؤلاء من ذوى قرباه ، ولذا قرر على عزل هؤلاء واستبدالهم بولاة جدد ... ومن المحتمل أن يكون على بن أبى طالب تأسى - فى هذا الصدد - بسلفه عمر بن الخطاب الذى كان يستبدل الوالى بغيره إذا اشتكى الناس منه تجنبا لأية فتنة ، فقد شكا أهل الكوفة واليهم عمار بن ياسر ، فعزله عمر ، وقال لهم من تريدون ؟ قالوا : نريد أبا موسى الأشعرى ، فولاه عليهم . وأقام أبو موسى سنة ، ثم لم يلبثوا أن شكوه فعزله عمر . وقد لبث عمر مهموما مغموما بأمر هذه الشكايات ، واستيقظ - وهو مكروب بادى الأسى - ذات يوم - فقال له المغيرة بن شعبة : مافعلت هذا يا أمير المؤمنين إلا من عظيم . فقال : وأى شىء أعظم من مائة ألف لا يرضون عن أمير ولا يرضى عنهم أمير[1] .

وقد استقر الأمر لعلى بن أبى طالب فى دار الهجرة وجميع الأمصار الإسلامية باستثناء الشام ، لأن واليها معاوية بن أبى سفيان لم يذعن لأمر العزل ، وردت خيله

(١) ابن سعد : الطبقات الكبرى ، حـ٣ ، ص٢٨٤ .

الوالى الجديد من حدودها ، وأعلن أنه ولى دم الخليفة المقتول والمطالب بالثأر له ، ونصب قميص عثمان الملوث بدمه على منبر دمشق ، مما أثار حفيظة أهل الشام على قتلته ، وجعلهم يلتفون حول معاوية ولى دمه . ثم بعث معاوية إلى علىّ بطومار خال من الكتابة ، وقال حامله لعلىّ : آمن أنا ؟ قال : ممن ؟ قال : من خيط نفسك ، فقد تركت ستين ألف شيخ يبكون تحت قميص عثمان ، وهو منصوب لهم ، وقد ألبسوه منبر دمشق. فقال على : منى يطلبون دم عثمان ؟ ألست موتورا كترة عثمان ؟ اللهم إنى أبرأ إليك من دم عثمان . نجا وا لله قتلة عثمان إلا أن يشاء ا لله(١) .

تفاقم النزاع بين على ومعاوية بحيث أدى فى النهاية إلى الصدام المسلح بينهما فى واقعة "صفين" ، ونستطيع أن نستخلص حجج كل منهما عن صحة موقفه من خلال حديث بين معاوية ووفد لعلى بن أبى طالب دار قبيل هذه الموقعة ، إذ قال يزيد ابن قيس- أحد أعضاء هذا الوفد - لمعاوية : إنا لم نأتك إلا لنبلغك ما جئنا به إليك ، ولنؤدى ماسمعنا منك ، ونحن على ذلك لم ندع أن ننصح لك ، وأن نذكر ما ظننا أن لنا عليك به حجة ، وأنك راجع به إلى الألفة والجماعة . إن صاحبنا من قد عرفت وعرف المسلمون فضله ، ولا أظن يخفى عليك أن أهل الدين والفضل لن يعدلوك بعلىّ ولن يميلوا بينك وبينه ، فاتق ا لله يا معاوية ولا تخالف عليا ؛ فإنه وا لله ما رأينا رجلا قط أعمل بالتقوى ولا أزهد فى الدنيا ولا أجمع لخصال الخير كلها منه . فحمد ا لله معاوية وأثنى عليه ثم قال : أما بعد ، فإنكم دعوتم إلى الطاعة والجماعة ، فأما الطاعة التى دعوتم إليها فمعنا هى . وأما الطاعة لصاحبكم فإنا لا نراها : إن صاحبكم قتل خليفتنا ، وفرق جماعتنا وآوى ثأرنا وقتلتنا ، وصاحبكم يزعم أنه لم يقتله ، فنحن لا نرد ذلك عليه ، أرأيتم قتلة صاحبنا ، ألستم تعلمون أنهم أصحاب صاحبكم ؟ فليدفعهم إلينا فلنقتلهم به ، ثم نحن نجيبكم إلى الطاعة والجماعة . فقال له شبث بن ربعى : أيسرك يا معاوية أنك أمكنت من عمار تقتله ؟ فقال : مايمنعنى من ذلك ؟ وا لله لو أمكنت من ابن سمية ما قتلته بعثمان ، ولكن كنت قاتله بنائل مولى عثمان(٢) .

(١) الطبرى : تاريخ الأمم ، جـ٥ ، ص٥-٦ .

(٢) الطبرى : تاريخ الأمم . جـ٥ ، ص٦ .

يتضح من الحديث المشار إليه أن حجة عليّ بن أبى طالب هى أنه إمام تنبغى له الطاعة ، ولا يمكن أن يعدل به المسلمون شخصا كمعاوية ، ولذا فيتعين عليه أن يبايع عليا .

أما حجة معاوية فهى أن عليا ، إن لم يكن قتل عثمان ، فهو قد آوى قتلته ، ولا يرضى معاوية بأقل من أن يسلمه عليّ هؤلاء القتلة حتى يبايعه . وقد حرص معاوية وأنصاره فى كل مراحل النزاع بينهم وبين عليّ أن يركزوا على هذه الحجة ، فلما اجتمع الحكمان بعد اتفاق عليّ ومعاوية على التحكيم فيما بينهما ، قال عمرو بن العاص نائب معاوية لأبى موسى الأشعرى نائب عليّ : ألست تعلم أن عثمان قتل مظلوما ؟ قال : أشهد ، قال : ألست تعلم أن معاوية وآل معاوية أولياؤه ؟ فقال : بلى . قال : "فإن الله عز وجلّ قال : (ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف فى القتل إنه كان منصورا)[1] وهذا يعنى أن معاوية له حق المطالبة بدم عثمان لأنه ولى دمه" . يقول الغزالى[2] : "وقد ظن معاوية أن تأخير أمر قتلة عثمان مع عظم جنايتهم يوجب الإغراء بالأئمة ، ويعرض الدماء للسفك" . وفى رأى المفكر المذكور أن ماجرى بين على ومعاوية كان مبنيا على الإجتهاد ، لا منازعة من معاوية لعلى فى الإمامة .

و لم يكن ثمة خلاف بين عليّ والمطالبين بالقصاص لعثمان حول ضرورة محاكمة قتلته ، فقد أورد ابن الأثير[3] مناقشة فى هذا الصدد دارت بين عليّ وجماعة من بعد مبايعته بالخلافة قالوا له : "يا عليّ إنا قد اشترطنا عند مبايعتك إقامة الحدود ، وإن هؤلاء الثوار قد اشتركوا فى قتل عثمان ، فقال عليّ : يا إخوتاه ، إنى لست أجهل ماتعلمون ، ولكن كيف أصنع بقوم يملكوننا ولا نملكهم ؟ هاهم أولاء قد ثارت معهم عبدانكم ، وثابت إليهم أعرابكم ، وهم خلالكم يسومونكم ماشاءوا ، فهل ترون موضعا لقدرة على شىء مما تريدون ؟ قالوا : لا. قال فلا والله لا أرى إلا رأيا ترونه أبدا ، إلا أن يشاء

---

(١) سورة الإسراء ، آية ٣٣ .

(٢) إحياء علوم الدين ، جـ١ ، ص ١٠٢ .

(٣) الكامل فى التاريخ جـ٣ ، ص٨٥ - ٨٦ .

الله ، إن هذا الأمر جاهلية (يعنى الإقدام على أخذ الثأر دون الانتظار لما يقرره الإمـام) ، وإن الناس من هذا الأمر – إن حُرّك – على أمور : فرقة ترى ماترون ، وفرقة ترى مـا لا ترون ، وفرقة لا ترى هـذا ولا هـذا حتى يهـدأ النـاس وتقـع القلـوب مواقعهـا وتؤخـذ الحقوق ، فاهدؤا عنى ، وانظروا ماذا يأتيكم ، ثم عودوا" .

وهكذا يتبين لنا أن علىّ بن أبى طالب لم يكن يمانع فى محاكمة قتلة عثمان ، وإنمـا رأى فى البداية أنه ليس فى الإمكان أن يأخذهم بالعقوبة ، لقوة شـوكتهم ، خاصـة بعـد أن انضم إليهم أفواج جديدة من الأعراب والعبيد ، بحيث صاروا وكأنهم أصحاب الحول والطول ، فكـانت الحكمـة تقتضيـه أن يـتريث حتـى يتفـرق جمعهـم ، خاصـة وأنـه دعـا الأعراب إلى الإنسحاب إلى مياههم . إلا أن عليّا فوجىء بطائفة من المسلمين على رأسها السيدة عائشة وطلحة والزبـير رضـى الله عنهـم ، يعلنـون أن مـا فعلـه علـىّ مـن تـأجيل القصاص من قتلة عثمان يعدّ سابقة خطيرة وتعطيل لحكم الله فى قوله تعالى: ﴿**ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب**﴾[1] ، فعثمـان قتـل مظلومـا ، وبعـض قتلتـه فـى عسـكر علىّ، وهم غالبون لهم شوكة ، وإذا تقاعسوا عن قتالهم فلا يستبعد أن يواصلوا إعتداءهم على الغير ، ورأت هذه الطائفة أن عليا عاجز عن دفعهم ومعاقبة قتلة عثمان من بينهـم . وقد خرج هؤلاء المعارضون لعلىّ إلى البصرة حيث تمكنـوا مـن الفتـك بكثـير مـن الذيـن اشتركوا فى الفتنة التى انتهت بمقتل عثمـان ، وحينئـذ ثـارت النعـرات القبليـة عنـد أهـل أولئك الذين قتلوا ، وربما خشى علىّ إيقاظ فتنة أعظم إذا هو نفـذ عقوبـة القصـاص فـى الباقين . يقول الغزالى[2] : "على أن تسليم قتلة عثمان – على كثرة عشائرهم واختلافهم بالمعسكر – يؤدى إلى اضطراب أمر الإمامة فى بدايتها ، فرأى التأخير أصوب". كمـا أن عليّا – باعتباره أميرا للمؤمنين – لا يعقل أن يمكن طالبا للثأر من مطلوبه لينفذ فيهم مراده بغير محاكمة يجريها ولى الأمر فى ظروف ملائمة[3] .

---

(١) سورة البقرة ، ١٧٩ .

(٢) إحياء علوم الدين ، جـ١ ، ص ١٠٢ .

(٣) ابن العربى : العواصم من القواصم ، ص ١٦٦ .

هذا فضلا عن أن عليّا لم يبعد أحدا ممن اشتركوا فى الفتنة من جيشه ، لأنه لم يشأ أن يحرم أحداً من حق مشروع له ، طالما لم تجر المحاكمة بعد وتقوم البينة على القتل ، وبخاصة وأن الذين تسوروا دار عثمان وقاموا بقتله لم يتجاوزوا بضعة أشخاص ، وهؤلاء كانوا نحو ألف رجل[1] يقولون فى صيحة واحدة ؛ كلنا قتلة عثمان . ولا شك أن عليا كان من فقهاء الأمة البارزين ، ولا يعقل أن يغيب عن باله مبدأ "المتهم برىء حتى تثبت إدانته". ومن المؤكد أن عليّا لم يعتبر كل من اشترك فى حصار دار عثمان مسئولا عن قتله ، يدل على ذلك موقفه من بعضهم ، مثل اتخاذه من محمد بن أبى بكر واليا على مصر ، ومن الأشتر مالك النخعى قائدا على ميمنة جيشه فى صفين .

جدد على بن أبى طالب محاولاته لإقناع معاوية بالدخول فى طاعته ، مستغلا النصر الذى حققه على معارضيه فى معركة الجمل (جمادى الآخرة سنة ٣٦ هـ) ، تلك التى قتل فيها كل من طلحة والزبير ، لكن هذه المحاولات باءت كلها بالفشل ، لتمسك كل طرف منهما بموقفه . وقد أدى هذا إلى تصادم أهل العراق بزعامة علىّ مع أهل الشام بزعامة معاوية فى موقعة صفين (صفر سنة ٣٧هـ) ، إلا أن الأمر انتهى بالاتفاق فيما بينهما على التحكيم ، واختار العراقيون أبا موسى الأشعرى ممثلا لهم فى هذا التحكيم ،

---

(١) وفد هؤلاء إلى المدينة لمناقشة الخليفة عثمان فى بعض الأمور التى أخذوها عليه ، وقد أجابهم عثمان بما يفهم منه سلامة موقفه ، كما وعدهم بتحقيق بعض مطالبهم ، ثم غادروا المدينة ، فسار وفد مصر غربا ، بينما تحرك وفدا الكوفة والبصرة شرقا ، وذلك لمدة يومين ، إلا أن هذه الوفود الثلاثة رجعت إلى المدينة فى وقت واحد ، بدعوى أن الوفد المصرى ضبط كتابا موجها من عثمان إلى واليه على مصر يأمره بقتل زعماء هذا الوفد لدى عودتهم ، ويفهم من الطبرى (تاريخ الأمم جـ٥ ص٥٦٦) أنهم لما واجهوا عثمان بذلك ، خيرهم بين أن يأتوا ببينه باعتبارهم مدعين أو أن يقسم هو بعدم علمه بهذا الكتاب على إعتبار أنه مدعى عليه (وذلك طبقا للمبدأ الذى وضعه عمر بن الخطاب فى القضاء ، وهو البينة على من ادعى واليمين على من أنكر) . ولكنهم لم يأتوا بهذه البينة ، ولا قبلوا منه أن يقسم يمين الإنكار . كما أن عليا حاج رجال الوفود الثلاثة بقوله : كيف عدتم جميعا فى وقت واحد إلى المدينة ؟ وما الذى أعلمكم يا أهل الكوفة والبصرة بأن الوفد المصرى ضبط هذا الكتاب ؟ .

بينما وقع إختيار أهل الشام على عمرو بن العاص ، وقد اجتمع المفوضون من الطرفين فكتبوا وثيقة أوضحت الهدف من وقف القتال ، واختيار الحكمين ، وموعد اجتماعهما ، وتأمينهما على أنفسهما وأموالهما ، مهما يكن حكمهما ، كما اتفقوا على حرب من يخالف نصوص هذه الوثيقة . وقد وقع على هذه الوثيقة من جماعة عليّ كشهود كل من: عبدا لله بن عباس ، والأشعث بن قيس ، وزياد بن كعب ، وشريح بن هانىء ، وعدى ابن حاتم ، وحجر بن عدى ، وعبد ا لله بن الطفيل ، وعروة بن عامر ، وعبد ا لله ابن حجر ، وخالد بن معمر . ومن جانب معاوية كل من : عتبة بن أبى سفيان ، وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، ويزيد بن أسيد ، وأبو الأعور عمرو بن سفيان ، والحصين ابن نمير ، وحمزة بن مالك ، ويسر بن أرطأة ، والنعمان بن بشير ، ومحاريق ابن الحارث[1].

وفيما يلى نص الوثيقة المذكورة :

"بسم ا لله الرحمن الرحيم . هذا ما تقاضى عليه عليّ بن أبى طالب ، ومعاوية ابن أبى سفيان ... تقاضوا على أن عليّاً ومن معه من شيعته من أهل العراق ، ومعاوية ومن معه من أهل الشام ، أنا ننزل عند حكم ا لله وكتابه ، من فاتحته إلى خاتمته ، ماأحيا القرآن أحييناه ، وما أمات القرآن أمتناه ، وما لم يجد عبد ا لله بن قيس وعمرو بن العاص فى القرآن حكما بما يجدان فى السنة العادلة ، غير المفرقة ، وعلى عليّ ومعاوية ، وتبيعتهما ، وضع السلاح إلى انقضاء هذه المدة ، وهى من رمضان (سنة ٣٧هـ) إلى رمضان (سنة٣٨هـ) ، وعلى أن عبدا لله بن قيس وعمرو آمنان على دمائهما وأموالهما وحريمهما والأمة على ذلك أنصار ، وعليهما مثل الذى أخذا أن يقضيا بما فى كتاب ا لله تعالى ، وما لم يجدا فى كتاب ا لله قضيا بما يجدان فى السنة ، وعليهما أن لا يؤخرا أمرهما عن هذه المدة ، فإن أحبّا أن يقولا قبل انقضائها ، فلهما أن يقولا عن تراض منهما ، على أن يرجع أهل العراق إلى العراق وأهل الشام إلى الشام ، فيكون الاجتماع إلى دومة الجندل فإن رضيا أن يجتمعا بغيرها فلهما ذلك ، ولهما ألاّ يحضرهما إلا من أحبا

(١) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة ، جـ١ ، ص١١٤ .

ولا يشهدا إلا من أرادا ، وهؤلاء النفر من أهل العراق وأهل الشام ضامنون بالوفاء إلى هذه المدة . فكتب أهل العراق بهذا كتابا لأهل الشام ، وكتب أهل الشام بهذا لأهل العراق ، بخط عمرو بن عبادة كاتب معاوية(١) .

ومن الملاحظ أن الروايات التى تتحدث عما دار بين الحكمين كثيرة ومتضاربة إلى حد يثير الدهشة : فيروى خليفة بن خياط(٢) ، وهو أحد شيوخ البخارى ، فى تاريخه أن الحكمين افترقا بغير اتفاق ، ولكن دون أن يتبادلا الشتائم على نحو ماورد فى إحدى روايات الطبرى(٣) . يقول ابن خياط : "وفيها (سنة ٣٧هـ) اجتمع الحكمان : أبو موسى الأشعرى من قبل علىّ ، وعمرو بن العاص من قبل معاوية بدومة الجندل فى شهر رمضان ، ويقال بأذرح ، وهى من دومة الجندل قريب ، فبعث علىٌّ ابن عباس و لم يحضر (أى علىّ) ، وحضر معاوية ، فلم يتفق الحكمان على شىء ، وافترق الناس" .

وفى رواية للطبرى(٤) أن عمرو بن العاص قال لأبى موسى : ألست تعلم أن عثمان بن عفان قتل مظلوما ؟ فقال : أشهد . قال عمرو : ألست تعلم أن معاوية ولىّ دمه ، وأن الله تعالى قال **﴿ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف فى القتل إنه كان منصورا﴾**(٥) وعدد مناقب معاوية ثم طلب فى النهاية من أبى موسى الموافقة على تنصيب معاوية خليفة للمسلمين ، إلا أن أبا موسى لم يوافقه على ذلك وعرض عليه استخلاف عبد الله بن عمر ، فقال عمرو : فما يمنعك من اختيار عبد الله ابنى ؟ فقال أبو موسى : إن ابنك رجل صدق ، ولكنك غمسته فى هذه الفتنة . وفى النهاية اتفق الحكمان على خلع علىّ ومعاوية وترك الأمر شورى للمسلمين ، لكن عمرو ابن العاص خدع أبا موسى بتقديمه للتحدث أولا ، فخلع أبو موسى صاحبه ، ثم قام

---

(١) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة، جـ١ ص١١٥.

(٢) تاريخ خليفة بن خياط ، ص ١٩١ - ١٩٢ .

(٣) تاريخ الأمم ،جـ٤ ، ص٣٨ - ٣٩ .

(٤) نفس المصدر ، ص٤٩ - ٥٢ .

(٥) سورة الإسراء آية ٣٣ .

عمرو بعده فخلع عليّا وثبت صاحبه كما أشاد به ، وحينذاك التفت أبو موسى إلى عمرو قائلا : إنما مثلك كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث . فرد عليه عمرو بقوله : إنما مثلك كمثل الحمار يحمل أسفاراً .

وبينما يظهر من الرواية المذكورة أن أبا موسى هو الذى عرض على عمرو أن يوافقه على أن يكون عبد الله بن عمر خليفة للمسلمين ، نجد أن صاحب الإمامة والسياسة[1] يذكر أن عمرو بن العاص هو الذى عرض على أبى موسى فكرة تنصيب عبدا لله بن عمر ، لأن أبا موسى كان لا يعدل بـه أحدا لصحبته رسول الله صلى الله عليه وسلم ولفضله وزهده وورعه ، وأراد عمرو أن يغريه بذلك حتى لا يتمسك بخلافة صاحبه عليّ بن أبى طالب ، وطبقا لما ذكره صاحب الإمامة والسياسة اتفق الحكمان على تنصيب ابن عمر ، وقدم عمرو أبا موسى ليعلن خلع عليّ واختيار ابن عمر أمام الناس ، إلا أن عمرو قام بعده فخلع عليّا وثبت معاوية .

وبينما يظهر من رواية ابن قتيبة المذكورة أن أبا موسى رشح عبد الله بن عمر للخلافة لفضله وزهده وورعه وعلمه ، نجد المسعودى[2] يلمح إلى أن أبا موسى كان يرغب فى خلافة ابن عمر لأنه كان زوجا لابنته .

ومن الملاحظ أن كل الروايات المذكورة عن التحكيم لا تشير إلى أن الحكمين كتبا وثيقة بما اتفقا عليه ، إلا أن المسعودى[3] ذكر رواية تفيد بأنهما كتبا وثيقة بذلك وختم عليها كل منهما بخاتمة . ومما جاء فيها : "قال عمرو : إن للكلام أولا وآخرا ، ومتى تنازعنا الكلام خطبا (مشافهة) لم نبلغ آخره حتى ننسى أوله . فاجعل ماكان من كلام بيننا فى كتاب يصير إليه أمرنا ، قال : فاكتب . فدعا عمرو بصحيفة وكاتب ، وكان الكاتب غلاما لعمرو ... ثم قال له : اكتب ، فإنك شاهد علينا ، ولا تكتب شيئا يأمرك به أحدنا حتى تستأمر الآخر فيه ، فإذا أمرك فاكتب وإذا نهاك فانته ، حتى يجتمع رأينا .

---

(١) الإمامة والسياسة (منسوب لابن قتيبة) جـ٥ ص١١٨ .

(٢) مروج الذهب ، جـ١ ص٥٩٥ .

(٣) نفس المصدر والصفحة .

اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما تقاضى عليه فلان وفلان . وبعد نقاش اتفقا فيه على أن عثمان بن عفان قتل مظلوما وأن معاوية هو ولى دمه ، قال أبو موسى : قد علمت أن أهل العراق لا يحبون معاوية أبداً ، وأن أهل الشام لا يحبون عليّا أبداً ، فهلم نخلعهما جميعا ونستخلف عبد الله بن عمر ، فصوب عمرو أبا موسى فيما قاله ، إلا أنه عرض عليه جماعة غير ابن عمر ، وأبو موسى يأبى إلا ابن عمر ، فوافق عمرو فى النهاية، ثم أخذ الصحيفة وطواها بعد أن ختماها جميعا . ثم قدم عمرو أبا موسى فخلع علياً ومعاوية وأعلن اختيار ابن عمر ، إلا أن عمرو بن العاص قام بعده فخلع علياً وثبت معاوية .

على أن المسعودى[1] عاد يقول : ووجدت فى وجه آخر من الروايات أنهما (أى الحكمان) اتفقا على خلع علىّ ومعاوية ، وأن يجعلا الأمر بعد ذلك شورى يختار الناس رجلا يصلح لهم ، ثم خطب أبو موسى فخلعهما ، وتبعه عمرو فخلع علياً وثبت معاوية.

كما أن المسعودى[2] عاد مرة أخرى فقال : "وقيل : إنه لم يكن بينهما غير ماكتبا فى الصحيفة وأنهما لم يخطبا" .

وهكذا يتبين أن بعض روايات التحكيم تشير إلى أن الحكمين افترقا دون أن يتفقا على شىء ، بينما تشير بعضها إلى أنهما اتفقا على خلع علىّ ومعاوية وترك الأمر شورى أو اختيار عبد الله بن عمر خليفة ، وأن أبا موسى أعلن ذلك على الناس ، إلا أن عمرو قام بعده فأعلن خلع علىّ وثبت معاوية .

وهذا التضارب الكبير بين روايات التحكيم على النحو المذكور يدل دلالة قاطعة على أن ماورد فيها ليس كله صحيحا ، وبخاصة تلك التى تشير إلى أن عمرو بن العاص خدع أبا موسى الأشعرى عند إعلان نتيجة التحكيم ، واستمر يقول بحق معاوية فى الخلافة وإبقائه أميرا للمؤمنين ، فهذا الموقف من جانب عمرو يتعارض مع مصلحة

(١) مروج الذهب ، جـ١ ص٥٩٦ .

(٢) نفسه .

معاوية ،كما لا يتفق مع دهاء عمرو ، لأن موافقة أبى موسى على خلع علىّ وترك الأمر شورى بين المسلمين يختارون خليفتهم ، يعد بمثابة إقرار من نائب على فى التحكيم بأنه ليس من حقه التمسك بالخلافة ، وإعلان هذه النتيجة فحسب من جانب الحكمين يعد فى حد ذاته مكسبا كبيرا لمعاوية ، ولا يعقل أن يضيع عمرو بن العاص هذا المكسب بإقدامه على قول لم يتفق عليه مع أبى موسى ويتبادل الشتائم معه ، لأن ذلك يظهر الحكمين أمام الناس بمظهر الفشل فى الوصول إلى اتفاق فيما بينهما ، ويجعل التحكيم كأن لم يكن ، مع ملاحظة أن قول عمرو وحده بحق معاوية فى الخلافة لايفيده فى شىء، لأن المفيد فى هذا الصدد هو إجماع الحكمين على القول بهذا الحق .

ولذلك فمن المرجح أن تكون الصورة الحقيقية للتحكيم هى أنه لما اجتمع الحكمان تراوضا على تحقيق المصلحة للمسلمين ، ونظرا فى تقدير الأمور ، ثم اتفقا على إبعاد كل من على ومعاوية عن الخلافة ، وحينذاك عرض كل حكم اقتراحا بإسناد الخلافة إلى شخص جدير بها من وجهة نظره ، لكن ذلك رفض من قبل الطرف الآخر ، ولهذا استقر رأيهما فى النهاية على ترك الأمر شورى بين المسلمين ليختاروا الخليفة الذى يرضونه .

وليس من المستبعد أن يكتب الحكمان وثيقة بهذا الذى استقر عليه رأيهما فى النهاية ويوقع كل منهما عليها ، وذلك طبقا لما رواه المسعودى على النحو السابق ذكره، خاصة وأن طرفى النزاع لما اتفقا على التحكيم كتبا وثيقة ضمناها القواعد التى ينبغى أن يتم التحكيم على ضوئها ، فمن غير المستساغ هنا ألا تدون نتيجة التحكيم التى كانت الأمة تنتظرها على أحر من الجمر ، ويكتفى بشأنها بإعلان شفهى ، مع الأخذ فى الاعتبار أن المسلمين دونوا صلح الحديبية قبل التحكيم بنحو ثلاثين عاما . وإذا صح تدوين نتيجة التحكيم فى وثيقة وأن أحدهما تلاها ، أو تليت بالنيابة عنهما على النحو السابق ذكره ، فلا يعقل أن يخدع عمرو بن العاص أبا موسى الأشعرى بإعلان خلع علىّ من الخلافة وإسنادها لمعاوية ، لأن ذلك مخالف لما دونه الحكمان فى الوثيقة التى وقع كل منهما عليها ، فضلا عن كونه لا يفيد معاوية فى شىء ويتعارض مع دهاء عمرو على النحو المشار إليه .

وبالنسبة إلى حيلة رفع المصاحف على أسنة الرماح وما ينسب بصددها إلى عمرو ابن العاص من مكر وخداع ، فإن مرد ذلك إلى التعصب المذهبى من جانب الرواة الذين ذكروه . وحتى لا نتهم بالانحياز إلى غير الحقيقة التاريخية ، ننقل هنا ما جاء بدائرة المعارف الإسلامية[1] فى هذا الصدد ، تلك التى لا يمكن أن يتهم أحد مؤلفيها النصارى بالانحياز إلى أى مذهب من مذاهب المسلمين . فقد جاء بها ما نصه : "ورغم ما تبدو عليه هذه القصة (رفع المصاحف على أسنة الرماح فى صفين) من طرافة ... فلا يمكن أن نقطع بصحتها من الناحية التاريخية دون أن نزيدها بحثا واستقصاءا ، ذلك أن جميع الروايات التى بين أيدينا تكشف عن ميل إلى علىّ وبغض لمعاوية ، وبخاصة عمرو ابن العاص الذى ينسب إليه فى غير تردد كل عمل ماكر ، ولذا فإننا نشعر إلى حد كبير جدا بالحاجة إلى وصف لهذه المعركة (صفين) على لسان الفريق الأخر يمكن أن نتخذه وسيلة للتحقيق ، وحتى دون أن نحصل على هذا الوصف يمكننا أن نشير إلى نقاط عدة من شأنها أن تدلنا - فى أرجح الظن - على وجود قدر من التحيز لفريق دون فريق ... وبخاصة ذلك الدور البالغ الأهمية الذى ينسب إلى عمرو ذى العبقرية الماكرة ، وصاحب معاوية . وحتى لو افترضنا أنه هو الذى اقترح رفع المصاحف ، فإن من الواضح أن هذه الوسيلة لم تكن لتجدى ما لم يكن هناك ميل عام لتقبلها ، ومن ثم فإنها لم تكن غير وسيلة للتعبير عما كان يشعر به الكثيرون فى دخيلة أنفسهم ، ويستدل على أن هذه كانت هى الحال حتما من عدة إشارات ، فلم يكن علىّ وحده يحاول جاهدا تحاشى حرب مهلكة يتطاحن فيها المؤمنون وأعضاء القبيلة الواحدة بل الأقارب كالآباء والأبناء (الدينورى ص ١٨٤) ، بل إن الجمهورة الكبرى من فرق الجيش كانت تشعر بأنها حرب لا مبرر لها قد تجلب معها الكوارث والأهوال ، وكان هذا هو السبب فى مضى وقت طويل قبل أن يبدأ القتال الحقيقى ، وفى أنهم لجأوا بعد أن أعيتهم الحيل إلى عقد هدنة خلال شهر المحرم ... ويسجل الدينورى فى هذا الصدد عدة ملامح تكمل رواية أبى مخنف كما وردت عند الطبرى فى بعض النقاط الهامة ، فعلى حين يؤلف قراء القرآن فى الرواية الأخيرة فرقة قائمة بذاتها لها قوادها وتقاتل بحماسة فائقة (الطبرى جـ١ صفحات مختلفة) فضلا عن قراء القرآن فى الجيش الشامى . ويظهر هؤلاء الرجال (القراء)

---

(١) المجلد الرابع عشر ، مادة صفين ص ٢٤٥ - ٢٤٦

الورعين -كما يصورهم الدينورى- فى صورة أنصار غيوريس للسلام سنطاعوا فى إحدى المرات أن يوقفوا معركة كانت على وشك أن تنشب (الدينورى : الأخبار الطوال ، ص ١٨١) وكان هؤلاء على أهبة الاستعداد لتحكيم القرآن ، كما أن معظم السبب فى وقف القتال بهذه السرعة يرجع إلى نفوذهم (الدينورى ص٢٠٤) وعندما اتفقوا على تحكيم القرآن تفاوضوا مع القراء الشاميين أمام الجيش ، وأوصوا باختيار الحكمين (الدينورى ص٢٠٥) فإذا كان عمرو قد اقترح حقا رفع المصاحف ... فإنه لم يفعل غير التعبير عن فكرة كأن يشاركه إياها الكثيرون ، ومن ثم وجد تأييدا سريعا لفكرته . كما أنه من المحتمل إلى حد بعيد أن تكون تلك النقطة البارزة فى هذه الرواية ، وهى أن النصر كان بين يدى علىّ فعلا عندما حرمه منه عمرو بفكرته ، الشيطانية ، من المحسنات التاريخية التى لجأ إليها شيعة علىّ لتفسير النهاية الفاشلة التى انتهت بها المعركة .

وهنا قد يسأل سائل : مادام الحكمان قد اتفقا على خلع علىّ ومعاوية وترك الأمر شورى للمسلمين ، وتم إعلان ذلك دون مخادعة من أحدهما للآخر ...فلماذا عاد القتال من جديد بين علىّ ومعاوية ؟ الجواب على ذلك هو أن الحكمين - رغم اجتهادهما - لم يوفقا إلى حسم هذا النزاع ، لأن عليّا كان يأخذ على معاوية أنه شق عصا الطاعة و لم يبايعه مثل سائر الولاة فى الدولة الإسلامية ، بينما كان معاوية يتهم الخليفة بالتواطؤ مع الثوار على قتل ابن عمه عثمان ، لأنه لم يقتص منهم وآوى الكثير منهم فى جيشه ، وكان يتعين على الحكمين أن يبتا فى موقف على من قتلة عثمان ، لأنه -على ضوء ذلك- يتحدد مدى صحة موقف طرفى النزاع ، لكن ذلك لم يحدث حقيقة اتفق الحكمان على أن عثمان قتل مظلوما ، لكن ذلك لا يعنى أن عليا هوقاتله ، أو أنه تواطأ مع الثوار على قتلة . كما أن الحكمين لم يحددا موقفها بوضوح - من قتلة عثمان . يقول الدكتور يوسف العش[1] : "ونحن لا نرى بوضوح فى هذا الحكم (نتيجة التحكم) أمر قتلة عثمان ، ولعل أبا موسى أقنع عمروا بألا يتشدد فى هذا الأمر ، فما له وإيقاظ الفتنة واجب الحكمين اخمادها لا تأجيج نارها ، لاسيما والله سبحانه وتعالى يقول عن ولىّ من

(١) الدولة الأموية ، ص١١١

قتل مظلوما : (فلا يسرف فى القتل) وقد قتل من قتلة عثمان عدد كبير[1] وكفى".

لكن مادام الحكمان لم يدينا عليّ فى شىء ، وأنهما ارتأيا الكفاية فيمن قتل من قتلة عثمان تسكينا للفتنة وعدم تأجيج نارها ... فلماذا إذن قررا عزل عليّ ومعاوية ، مع أن الأخير لم يكن خليفة بينما كان عليّ هو الخليفة الشرعى .

ولعل فيما ذكره المسعودى[2] توضيح لذلك إذا أورد مناقشة بين الحكمين دارت على النحو التالى : "قال عمرو : فظالماً قتل عثمان أو مظلوما ؟ قال أبو موسى : بل قتل مظلوما . قال عمرو : أفليس قد جعل الله لولى المظلوم سلطانا يطلب بدمه ؟ قال أبو موسى : نعم . قال عمرو : فهل تعلم لعثمان وليا أولى من معاوية ؟ قال أبو موسى : لا. قال عمرو : أفليس لمعاوية أن يطلب قاتله حيثما كان حتى يقتله أو يعجز عنه ؟ قال أبو موسى : بلى . قال عمرو للكاتب : أكتب . وأمره أبو موسى فكتب . قال عمرو : فإنا نقيم البينة أن عليا قتل عثمان . قال أبو موسى : هذا أمر قد حدث فى الإسلام وإنما اجتمعنا لغيره ، فهلم إلى أمر يصلح الله به أمر أمة محمد . قال عمرو : ماهو ؟ قال أبو موسى : قد علمت أن أهل العراق لا يحبون معاوية ، وأن أهل الشام لا يحبون عليّا أبدا، فهلم نخلعهما جميعا" .

وقد رأى على - فيما يبدو - أنه غير ملزم بقبول نتيجة التحكيم ، وحجته فى ذلك تظهر فى قوله :"إن هذين الرجلين اللذين ارتضينا حكمهما خالفا كتاب الله واتبعا أهواءهما بغير هدى من الله ، فلم يعملا بالسنة، و لم ينفذا للقرآن حكما ، فبرىء الله ورسوله منهما والمؤمنون"[3] قال على ذلك فى كتاب أرسله إلى الخوارج . ولئن كان

---

(١) تم ذلك على يد الجيش الذى قاده طلحة والزبير والسيدة عائشة ، إذ جاءت القبائل إليهم فى البصرة بمن اشتركوا فى قتل عثمان من بين أفرادها ، فتم قتلهم ، كما قتل بعضهم فى معركة الجمل . (انظر خليفة بن خياط : تاريخ ابن خياط ، ص ١٨٣.) والذهبى تاريخ الإسلام ، جـ٣ ، ص٣٥٨ .

(٢) مروج الذهب ، جـ١ ، ص٦٨٢ - ٦٨٤ .

(٣) يوسف العش الدولة الأموية ، ص١١١ - ١١٧

هذا القول لا يوضح لنا كيف خالف الحكمان كتاب الله ، إلا أننا سنستطيع أن نستنتج ذلك من آراء على نفسه قبل التحكيم ، فهو يرى أنه صاحب الحق فى الخلافة ، وأن المسلمين بايعوه عليها ، و لم يشر الحكمان إلى نص فى القرآن الكريم يمكن أن يستند إليه فى عزله من الخلافة ، فهما إذن قد خرجا على وثيقة التحكيم ... إنهما اتفقا على أن عثمان قتل مظلوما ، لكن ذلك ليس له علاقة بتنحية علىّ عن الخلافة ، لأنه لم يقتله و لم يشترك فى القتل ، إذا لم يوجه الحكمان له أى إتهام . وما دام الأمر كذلك فالأولى أن يرد إليه الأمر فيفعل فيه كما يرى ، لا أن يعزل[1] ولذا رأى على أن يعود إلى القتال مع معاوية لحسم الأمر ، فمادام الحكمان لم يصلا إلى نتيجة موافقة للقرآن والسنة ، فالعودة إلى القتال هى الأصل .

ثانيا : نشأة الخوارج

يذكر المسعودى[2] أن عليا ذات يوم وهو فى صفين ، وقبل الاتفاق على التحكيم، نادى قائلا:"يا معاوية! علام يقتل الناس بينى وبينك ؟ هلم أحاكمك إلى الله ، فأينا قتل صاحبه استقامت له الأمور" لكن معاوية رفض المبارزة مع علىّ رغم أن عمرو ابن العاص حثه على قبولها ، ولما دعا أنصار معاوية إلى حقن الدماء وتحكيم كتاب الله حين احتدم القتال فى صفين ، استجاب لهذه الدعوة أكثرية جيش علىّ ، وبخاصة القراء منهم . وتختلف الروايات فى بيان موقف على نفسه ، فتشير بعضها[3] إلى أنه أوضح لأصحابه أن معاوية وأنصاره ليسوا بأصحاب قرآن ، وأن دعوتهم إلى التحكيم ليست إلا من قبيل المداهنة والخداع . بينما أورد الإمام أحمد بن حنبل رواية تشير إلى أن عليا قال حينذاك : نعم أنا أولى بذلك ، بيننا وبينكم كتاب الله . وعلى العموم فقد وافق علىّ ابن أبى طالب على التحكيم فى النهاية ، سواء لأنه لم يعترض على الدعوة إليه أصلا ، أو نزولا على رغبة الأكثرية فى جيشه .

---

(١) يوسف العش : نفس المصدر ، ص١١١ .

(٢) مروج الذهب ، جـ٢ ص ٦٧٣ .

(٣) المبرد : الكامل فى الأدب جـ٣ ص ٩٧ ، والمسعودى مروج الذهب ، جـ٢ ، ص ٦٧٧

على أن فريقا آخر من جيش عليّ أظهر اعتراضه على مبدأ التحكيم ، ولما تليت الوثيقة التى كتبت ليجرى التحكيم على مقتضاها اشتدت معارضة هذا الفريق ، لأن عليا رضى أن يكتب اسمه فيها مجردا من لقب "أمير المؤمنين" ، وفى رأيهم أنه لا يجوز تحكيم الرجال فى أمر من الأمور التى بين ا لله فيها حكمه ، يقصدون من ذلك أن ا لله تعالى أعطى حكمه فى إمامة على على المسلمين ، وفى كل إمامة بويع صاحبها مثله بيعة شرعية من قبل الأمة ، وليس بعد حكم ا لله حكم آخر ، وبناء على ذلك ينبغى أن يلغى التحكيم من وجهة نظرهم ، لأنه لا حكم إلا لله .

وتفسير وجهة نظر هذا الفريق المعارض للتحكيم هى أن عليا كان إماما بويع بيعة صحيحة ، فمن امتنع عن بيعته وحاربه يكون مرتكبا جريمة البغى ، وحيث أن معاوية وأنصاره بغوا على الإمام العدل وحاربوا ا لله ورسوله ، فيكون لهم حدّ مقرر فى القرآن . استنادا إلى قوله تعالى : ﴿**وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر ا لله**﴾[١] ، فمادام هؤلاء لم يفيئوا إلى أمر ا لله ، فليس لهم إلا القتل[٢] ، وهذا الحد المقرر لا معنى للتحكيم فيه ، لأنه إن قضى بخلافه يكون تغييرا لأمر شرعى ، وتحكيم للرجال فيما لا حكم فيه إلا لله ، وعليّ بذلك- من وجهة نظرهم - لم يحكم بما أنزل ا لله ، ولذا فهو - إن لم يتراجع - ينطبق عليه قوله تعالى : ﴿**ومن لم يحكم بما أنزل ا لله فأولئك هم الكافرون**﴾[٣] ، وبالتالى لا يصلح أن يكون خليفة ، ويحل لهم مقاتلته هو وأنصاره مثلما يقاتلون معاوية وأنصاره على حد سواء .

ويرد ابن حزم[٤] على من أنكروا التحكيم بقوله : إن عليّا لم يحكم رجلا فى دين ا لله وحاشاه من ذلك ، وإنما هو قد حكم كلام ا لله عزّ وجلّ بعد أن اتفق الفريقان على

---

(١) سورة الحجرات آية /٩ .

(٢) الشماخى : السيرة ، جـ ١ ص ٤٩ .

(٣) سورة المائدة آية /٤٤ .

(٤) الفصل ،جـ٤ . ١٥٦ .

الدعوة إلى حكم القرآن الكريم ، وقد قال تعالى : (فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى ا لله والرسول إن كنتم تؤمنون با لله واليوم الآخر[1] . ولما كان من المستحيل أن يتناظر الفريقان بكامل أفرادهما ، فقد تم اختيار الحكمين كل منهما عن الفريق الذى يمثله مدليا بحجج المعسكر الذى ينوب عنه - أبو موسى الأشعرى عن أهل العراق وعمرو بن العاص عن أهل الشام ، فلم يخطىء علىّ إذا فى قبوله التحكيم للرجوع إلى ما أوجبه القرآن . وفى رأى الفقيه المذكور أن تكفير الخوارج عليّاً بسبب قضية التحكيم إلى أنهم كانوا أعرابا قرؤا القرآن حقا ، ولكنهم لم يتفقهوا فى السنن الثابتة عن الرسول صلى ا لله عليه وسلم ، و لم يكن منهم أحد من الفقهاء المعروفين فى ذلك الوقت لتبصيرهم بما خفى عنهم من دقائق الفقه ، أمثال أصحاب ابن مسعود أو عمر وعلى وعائشة وأبى موسى الأشعرى ومعاذ بن جبل وأبى الدرداء وسلمان وزيد وابن عباس وابن عمر . فلا غرو أن يكفر هؤلاء الخوارج بعضهم بعضا عند أقل نازلة تنزل بهم من دقائق الفتيا وصغارها ، فظهر ضعف القوم وقوة جهلهم .

أما الملطى[2] فيرد على المحكمة بقوله : من أين قلتم - لا حكم إلا لله ؟ وقد حكم ا لله الناس فى كتابه فى أكثر من موضع ، إذ قال عز وجل فى جزاء الصيد : ﴿**يحكم به ذوا عدل منكم**﴾[3] وقال :﴿**وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها**﴾[4] . فهذه الآيات وغيرها جعل فيها القرآن أحكاما كثيرة إلى وجوه الناس للنظر فيما ينزل بيانه من عند ا لله . ويتساءل الملطى بقوله : كيف أحل الخوارج إهراق دم المسلمين ؟ مع أنه لا يحل دم المؤمن إلا لأسباب ثلاثة : إما زنا بعد إحصان ، أو إرتداد بعد إيمان ، أو قتل النفس عمدا . فجهلهم إذا هو الذى أدى

---

(١) سورة النساء آية /٥٩ .

(٢) التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع ، ص ٥١ .

(٣) المائدة آية /٩٥ .

(٤) النساء آية /٣٥ .

بهم إلى إطلاق الحكم على أهل القبلة بالقتل[1] ، ويضيف الفقيه المذكور[2] قوله : إن الخوارج فى جمعهم بين تكفير عثمان وعلىّ يستندون على حجة واحدة هى الحكم بغير ماحكم الله . فيقولون : إن علياً حكم الحكمين وخلع نفسه عن إمرة المؤمنين وحكم فى دين الله فكفر ، وعثمان ولى رقاب المؤمنين ولاة جور فحكموا بغير ماحكم الله ، فكفر . ويرد عليهم بأن الله تعالى جعل فى كثير من الدين الحكم إلى الأفراد ، لتطبيق ماجاء بالقرآن الكريم كما تبين آنفا ... ولآن ولاية عثمان وعلىّ للمسلمين حق ، وهما فى الأصل كذلك بإجماع لا اختلاف فيه ، فإذا تجاهل الخوارج هذه الحقيقة فقد تجاهلوا الإجماع ودوره ، لأن الإجماع على إيمانهما وولايتهما قد ثبت لهم من قبل ، ولا يزيل إيمانهما وولاية المسلمين لهما إلا إجماع آخر يثبت العكس وينفى عنهما ما انعقد الإجماع الأول لهم من قبل . وإذا ما ادعى الخوارج أن عثمان وعلىّ كانا حقا مؤمنين وليين للمؤمنين بالإجماع ثم كفروا ، فالقول مردود بما أصبح عليه حال الخوارج أنفسهم ، لأنه ينطبق عليهم ماروى النبى صلى الله عليهم وسلم بإجماع الأمة أنهم مارقة .

ومن الواضح أن هؤلاء المحكمة حددوا موقفهم من كل من علىّ ومعاوية على أساس خاطئ ، نتج عن مجانبتهم الصواب فى تفسير كلام الله تعالى الذى استندوا إليه . فقوله عزّ وجلّ : ﴿**وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما**﴾[3] يفهم منه -ضمن مايفهم- الأمور الآتية :

(١) أن الأمر الإلهى بالإصلاح بين الطرفين المتقاتلين موجه إلى طرف ثالث غيرهما.

(٢) لايتصور أن تتقاتل طائفتان مؤمنتان إلا إذا كانت كل منهما تعتقد أنها على الحق ، أو يغلب على ظنها أنها كذلك .

---

(١) الملطى : التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع ، ص/٥٢ .

(٢) نفس المصدر . ص ٥٣ .

(٣) سورة الحجرات ، أية / ٩ .

أما قوله تعالى : ﴿**فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفئ إلى أمر الله**﴾[1] ، فمعناه على وجهين أحدهما بغت بالتعدى بالقتال ، والثانى بغت بالعدول عن الصلح . ومعنى قوله تعالى ﴿**حتى تفئ إلى أمر الله**﴾ فسره سعيد بن جبير بأن ترجع إلى الصلح الذى أمر الله به . وقال قتادة بن دعامة السدوسى بأنه الرجوع إلى كتاب الله تعالى وسنة رسوله فيما لهم وعليهم[2] .

كما يفهم من هذه الآية الكريمة أيضا مايلى :

(١) إثبات وقوع البغى عن طريق طرف ثالث محايد .

(٢) أن يكون هذا الطرف الثالث قويا وقادرا على ردع الطائفة الباغية إلى الحد الذى يرجعها إلى أمر الله ورسوله .

(٣) لايعقل أن يكون المقصود من هذه الآية استمرار إحدى الطائفتين فى قتال الأخرى حتى تفئ ، لأنه من المحتمل أن تكون الطائفة الباغية هى الأقدر على إفناء الأخرى غير الباغية .

وبتطبيق المفهوم المذكور للآية الكريمة على النزاع بين على ومعاوية ، يتبين لنا أن علياً وأنصاره يمثلون طائفة من المؤمنين يعتقدون أن معاوية وأنصاره بغوا عليهم ، لأن علياً هو الإمام الشرعى وينبغى أن ترد إليه الأمور فى الدولة الإسلامية ، ولذا فإن معاوية يجب ألا يشق عصا الطاعة ، وعليه أن يبايع مثل سائر الولاة فى هذه الدولة .

ومن ناحية أخرى فإن معاوية وأنصاره يمثلون أيضا طائفة مؤمنة اشتبه عليها أمور منها : إتهام على بالتواطؤ مع قتلة عثمان وإيوائه لهم فى جيشه ، وعدم المبادرة بالقصاص منهم معطلا النص القرآن ﴿**ولكم فى القصاص حياة ياأولى الألباب**﴾[3] . هذا فضلا

---

(١) سورة الحجرات ، آية ٩.

(٢) مصطفى حلمى : نظام الخلافة الإسلامية فى الفكر الإسلامى ، ص ١٧٣ .

(٣) سورة البقرة ، آية ١٧٩ .

عما يرونه بالنسبة لبيعة عليّ من شبهة ، لأن قتلة عثمان هم أول من بايعوه ، كما أن بعض الصحابة لم يبايعوه .

ولما قررت الطائفتان المذكورتان أن تحارب إحداهما الأخرى كانت كل منهما تعتقد أن الحق معها ، أو يغلب ذلك على ظنها ، وكان الأمر يتطلب طرفا ثالثا يحكم بمدى صحة دعوى كل منهما .

على أنه من الملاحظ أنه لم يوجد وقتذاك طرف ثالث قوى من المؤمنين ، يستطيع أن يصلح بين طائفتى عليّ ومعاوية ، ويقاتل من تبغى منهما على الأخرى حتى تفئ إلى أمر الله ، لأن الجماعة الإسلامية كلها وقتذاك انقسمت إلىهاتين الطائفتين المذكورتين، باستثناء قلة ضئيلة رأت صلاح دينها فى عدم الانضمام لأى منهما . علما بأن الجماعة الإسلامية فى هذا الوقت المبكر من التاريخ الإسلامى كانت مؤلفة تقريبا من القبائل العربية فحسب ، لأن الإسلام لم يكن قد اعتنقه حينذاك إلا قلة لاتكاد تذكر من أهل البلاد المفتوحة ، وما جاء فى المصادر التى تناولت أحداث الفتنة فى عهد عثمان من عبارات مثل : أهل البصرة ، وأهل الكوفة ، وأهل مصر ، يعنى بهم العرب الذين سكنوا هذه الأمصار بعد الفتح ، ونذكر هذه الحقيقة حتى لايظن أحد أنه كان بإمكان المسلمين فى هذه البلاد أن يقوموا بإجراء الصلح بين جند على وجند معاوية ، وإجبار من يبغى منهم على أن يفئ إلى أمر الله .

ومادام الأمر كذلك ، أى لم يتواجد طرف ثالث له القوة والهيمنة على النحو المذكور ، فإن أى إصلاح منشود بين جند على وجند معاوية لايمكن أن يتم إلا إذا صدرت الدعوة إليه من أحد الطرفين ووافق عليها الطرف الأخر ، وهذا ماحدث بالفعل، إذا عرض جند معاوية تحكيم كتاب الله فى النزاع بينهما وبين جند عليّ ، ووافقت الأغلبية[1] فى جند عليّ على التحكيم ، فى محاولة لوقف نزيف الدم بين المسلمين وحقنا

---

(١) أشار المسعودى (مروج الذهب ، ج٢ ، ص ٦٧٧) إلى موافقة الأغلبية فى جيش عليّ بقوله : "فقال أكثر الناس : رضينا وقبلنا وسمعنا وأطعنا" .

لهذه الدماء ، وإذا كانت قلة من جند عليّ نظـرت إلى دعـوة التحكيـم باعتبارهـا خدعـة وأبدت عدم موافقتها عليه ، فإن العبرة برأى الأغلبية الذى كان يحتم علـى هـذه القلـة أن تنصاع له عملا بمبادئ الإسلام ، إذا الثابت أن النبى صلى الله عليه وسلم نزل علـى رأى الأغلبية فى غزوة أحد فواجه العدو المهاجم من خارج يثرب وليس من داخلهـا ، مـع أن ذلك كان يتعارض مع رأيه الشخصى . ومعنى ذلك أن الدعوة إلى التحكيم وموافقة عليّ عليها لم تكن تتعارض مع شريعة الإسلام .

أما القول بأن الطائفة الباغية لها حدّ مقرر فى القرآن ، وهو قتالها حتى تفئ إلى أمر الله ، فهذا صحيـح ، لكـن كـون معاويـة وجنـده بغـاة ، فذلـك شـيئ يحتـاج إلى النظـر والتثبت، فإن ادعى أن له شبها فى موقف عليّ ، منها إمامته أهـى منعقـدة أم لم تنعقـد ، فهذا يصح فيه التحكيم ، وليس تحكيما للرجال فى دين الله ، وإنما هو تحكيم فـى صحـة وصف ينبنى عليه حكم ، فإن القاضى الذى ترفع إليه قضية سرقة لايطلب منه الإجتهـاد فى أن السارق تقطع يده أو لاتقطع ، وإنما يطلب منه الاجتهاد فى معرفة أهـذا سـارق أم غير سارق ، فإذا ثبت له الصفة وجب عليه حتما أن يحكم بقطع اليد . فـإن قـالوا : بـأن التحكيم من على شك فى إمامته ، والمتشـكك لايجـوز أن يسـفك الدمـاء للمطالبـة بـأمر مشكوك فى صحته ، كان هذا باطلا أيضا ، لأن صاحب الحـق كثيرا مايتـأكد أن الحـق معه ، فإذا مارأى من خصمه إنكارا أو تمسكا بشبه ، فإنه لاطريق أمامه إلا أن يرفع الأمـر لقاض أو محكمين يكون حكمهم قاطعا لنزاع خصمه[1] .

ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما اتفق مع مندوب قريش سهيل بن عمرو على شروط الصلح فى الحديبية سنة ٦ هـ ، وأراد أن يسجل هذه الشروط كتابـة ، أملـى على عليّ بن أبى طالب أن يكتـب : "هـذا ماقـاضى عليـه محمـد رسـول الله . فاعـترض سهيل على ذلك بقوله : لوعلمنا أنك سول الله ما قاتلناك ، ولكـن اكتـب اسمـك واسـم أبيك . فقال : اللهم إنك تعلم أنى رسولك" ، وأمر عليا أن يمحو عبـارة "رسـول الله" ،

---

(١) الخضرى : تاريخ الأمم الإسلامية ، ج١ ، ص ٧٠- ٧١ .

ولايمكن أن يقول عاقل : إن النبى عليه السلام حين محا عبارة "رسول الله" ، وأمر بأن يكتب اسمه مجردا منها كان شاكا فى نبوته أو أنه متنازل عنها .

وهكذا يتبين لنا أن موقف على فى قضية التحكيم انطلق من فهمه العميق لكتاب الله وسنة نبيه عليه السلام ، فهو الموصوف -حتى من مخالفيه[1]- بغزارة العلم ودقة استنباطه للأحكام ، والمرجع فى القضايا المشكله ، حتى ليقال فيه : "قضية ولا أباالحسن لها" .

ومن الجدير بالذكر أن الإباضية يعتقدون أن الثورة على عثمان كانت واجبة ، وأن قتله يتساوى فى أهميته مع النصر الذى حققه المسلمون فى بدر[2] ، كما أنهم من منكرى التحكيم ويعتبرون المحكمة الذين قاتلوا علىّ بن أبى طالب فى النهروان من أسلافهم البررة ، إلا أن كثيرا من مفكريهم فى الوقت الحاضر يرون أن الأمة المسلمة من واجبها الثورة على الإمام الظالم ، والإطاحة به ، شريطة ألا يترتب على ذلك ضرر أكبر.يقول على يحى معمر[3] : إن الخروج على الحكم الظالم ، والثورة عليه ، ومحاولة الإطاحه بأجهزته الفاسده ، هو من أوكد الواجبات على الأمة المسلمه ، إذا لم تخش شرا أكبر . كما يضيف معمر[4] إلى ذلك قوله : "أما قتل الأبرياء ... فقد وقفت دونها كلمة التوحيد ، وصانتها عن هذه المذلة والهوان ، ولايستحلون (أى الإباضية) هذا حتى من البغاة والمعتدين مهما بلغوا فى مسلكهم الظالم" . ويقول سعيد الثعاريتى[5] : "وللأمة عزله (الإمام) لموجب ، كأن يقع منه ما يخل بأمور المسلمين ، فإن أدى عزله إلى الفتنة ارتكب أخف الضررين" . كما يذكر محمد اطفيش[6] الملقب عند الإباضية بقطب

---

(١) سالم الحارثى : العقود الفضيه فى أصول الإباضية ، ص ٤٢ .

(٢) القلهاتى : الكشف والبيان ج١ ، ص ٨٩ - ٩١ .

(٣) الإباضية بين الفرق الإسلامية ، ج ١ ،ص ١٨٨ .

(٤) نفسه ، ص ١٨٩ .

(٥) انظر : على يحى معمر : الإباضية بين الفرق الإسلامية ، ج٢ ، ص ٢٩٦ .

(٦) انظر : على يحى معمر : نفسه ، ص ٢٩٤ .

الأئمة : إن من يقول بأننا (أى الإباضية) نثور على الإمام الموحّد با لله لايفهم حقيقة مذهبنا .

وليس ثمة شك فى أن الثورة على عثمان كان ضررها عظيما ، وأنها كانت فتنة كبرى ترتب عليها الكثير من المصائب بالنسبة للمسلمين ، ليس فقط لعشرات الألوف من القتلى الذين سقطوا صرعى فى معارك الجمل وصفين والنهروان وغيرها ، وإنما أيضا فيما سببته من فرقة بين المسلمين وانقسامهم إلى أحزاب متطاحنة ، فضلا عما وضعه المتعصبون لكل حزب من أحاديث نسبوها للرسول صلى ا لله عليه وسلم ، وهو منها برئ . وهذا ما حدا بأحد الإباضيين المعاصرين ، وهو الدكتور صالح بن أحمد الصوافى[1]، إلى القول: "قتل عثمان بأيدى أولئك الدهماء الذين قدموا إليه من مختلف الأمصار ، وقتلوه مدفوعين فى ذلك بعوامل لعلها كانت غير متحدة ، أو لعل لكل ثائر منهم أهدافا غير أهداف الآخرين ، وكانت مقتلة عثمان هى الثمرة الفجة لتلك الفتنة العمياء التى اشتعل نارها" . كما يشيد الصوافى[2] بأحد المحكمة الذى نجا من الموت فى معركة النهروان ، وهو أبو بلال مرداس بن أدية التميمى ، بقوله : "وقد شهد ماوقع فى النهروان من أحداث تفاقمت حتى جاوزت كل حدّ معقول ... ورأى (أبو بلال) أن الخلاف بين المسلمين ما كان ينبغى بحال من الأحوال أن يصل إلى حد التقاتل بالسيف" .

أما المفكرون من غير الإباضية فقد وصفوا قتل عثمان وما ترتب عليه من أحداث بأنه فتنة كبرى ، إذ ألف طه حسين كتابا فى هذا الصدد بعنوان "الفتنة الكبرى" خصص الجزء الأول منه لعثمان والجزء الثانى لعلى وبنيه . ويرى محب الدين الخطيب[3] أن كل من قتل من المسلمين بأيدى المسلمين منذ مقتل عثمان ، فإنما إثمه على قتلة عثمان ، لأنهم فتحوا باب الفتنة ، ولأنهم واصلوا تسعير نارها ، ولأنهم الذين أوغروا صدور المسلمين

---

(١) الامام جابر بن زيد العمانى وأثره فى الدعوه ، ص ٨٠- ٨١ .

(٢) نفسه ، ص ١٣٦ .

(٣) انظر ابن العربى : العواصم من القواصم ، ص ١٧٣ حاشية ٢٩٣ .

بعضهم على بعض ، فكما كانوا قتلة عثمان فـإنهم كـانوا القتلـة لكـل مـن قتـل بعـده ، ومنهم عمار بن ياسر ومن هم أفضل من عمار كطلحة والزبـير ، إلى أن أدت فتنتهـم إلى قتلهم علياً نفسه وقد كانوا من جنده وفى الطائفة التى كان قائما عليها .

وبناء على ماذكرناه يتضح لنا خطأ المحكمة فـى المنـاداة بمواصلـة القتـال بـين علـىّ ومعاويـة ، والإعـتراض علـى محاولـة الإصـلاح بينهمـا عـن طريـق التحكيـم لحقـن دمـاء المؤمنين، ولو كان هذا التحكيم مخالفا لما فى كتاب الله ، لما ذهـب كثـير مـن الصحابـة المشهود لهم بالتقوى والورع ، مثل سعد بن أبى وقاص ، وعبد الله بن عمر وغيرهما[1]، إلى دومة الجندل فى أثنـاء اجتمـاع الحكمـين هنـاك ، وكـان ذلـك حرصـا منهمـا وممـن صاحبهما على متابعة التحكيم والوقوف على أخباره أولا بأول ، علمـا بـأن سـعدا وابـن عمر كانا من أولئك الذين لم ينحازوا لأى من الطائفتين المتقاتلتين ، ولكنهما كانا -دون أدنى شك- يرحبان بالصلح بين المسلمين ، مع ملاحظـة أن الإباضيـة لاينكـرون حضـور عبد الله ابن عمر إلى دومة الجندل فى أثناء اجتماع الحكمين[2] .

ونبادر إلى القول بأن الاقتتال الذى دار بين طائفتى علىّ ومعاوية لم يخرج أيا منهما عن دائرة المؤمنين ، لأن كل طائفة عند شروعها فى هذا الاقتتـال كـانت متأولـة وتعتقـد أنها على الحق . وقد سلم كـل مـن الطرفـين بهـذه الحقيقـة وقامـا بتسـجيلها فـى وثيقـة التحكيم ، وذلك فى عبارة نصها : "قاضى علىّ على أهل الكوفة ومن معهم من شيعتهم من المؤمنين والمسلمين ، وقاضى معاوية على أهل الشـام ومـن كـان معهـم مـن المؤمنـين والمسلمين" .

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ، ج٢ ، ص ٦٨٢ ، وابن خلدون : العبر ، ج٢ ، ص ١٧٧ .

(٢) يقول المؤرخ الإباضى الشماخى (السير،ج١ ، ص ٥٠) : "ثم التقى الحكمـان بـأذرح مـن دومـة الجندل وحضرها عبد الله بـن عمـر فـى جماعـة مـن قريـش" . ومـن الجدير بـالذكر أن الإباضيـة يقولون : إنهم أخذوا دينهم عن كبار الصحابة وفى مقدمتهم : ابن عباس ، وعبد الله بـن عمـر ، وهم يعتبرون أن هذين الصحابيين من أبرز شيوخ إمامهم جـابر بـن زيـد .(انظـر سـالم بـن حمـود السيابى : طلقات المعهد الرياضى فى حلقات المذهب الإباضى ، ص ٧-٨) .

ويؤكد ابن العربى[1] ذلك مستدلا بقوله تعالى : (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفئ إلى أمر الله . فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين[2] ، فلم يخرجهم الحق تبارك وتعالى عن "الإيمان" بالبغى بالتأويل ، ولاسلبهم اسم "الإخوة" بقوله "بعده" : ﴿**إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم**﴾[3] .

ولما قتل علىّ بن أبى طالب بايع أنصاره ابنه الحسن بالخلافة ، ولكنه لم يلبث أن استجاب للصلح الذى عرضه عليه معاوية ، فتنازل له عن الخلافة حقنا لدماء المسلمين . وقد ثبت فى الصحيح أن النبى صلى الله عليه وسلم قال عن الحسن سبطه : "إن ابنى هذا سيدّ ، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين"[4] .

ومن الواضح أن النبى صلى الله عليه وسلم أثنى على الحسن بهذا الصلح الذى تم على يديه ، لأن مافعله يحبه الله ورسوله ، ولو كان الاقتتال الذى حدث بين المسلمين هو الذى أمر به الله ورسوله لم يكن الأمر كذلك ، بل يكون الحسن قد ترك الواجب أو الأحب إلى الله تعالى . يقول ابن تيميه [5] : فلما أثنى النبى صلى الله عليه وسلم على الحسن بالإصلاح وترك القتال ، دل على أن الإصلاح بين تلك الطائفتين كان أحب إلى الله تعالى من عدم فعله . فدل على أن القتال لم يكن مأمورا به .

ذهب المؤرخ الإباضى أحمد بن سعيد الشماخى[6] إلى أن الحديث النبوى المشار إليه عن صلح الحسن مع معاوية لايمكن أن يكون صحيحا ، لأن أصحاب الحسن (أى

---

(١) العواصم من القواصم ، ص ١٧٣ .

(٢) سورة الحجرات ، آية ٩ .

(٣) سورة الحجرات ، آية ١٠ .

(٤) أخرجه البخارى فى الفتن عن أبى بكرة (٤٨/٩) وكذلك فى المناقب (٢٢/٥) .

(٥) الفتاوى ، ج٤ ، ص ٤٤٦- ٤٦٧ .

(٦) السير ،ج١ ، ص ٥٥ .

شيعته) أطلقوا عليه بعد هذا اسم "مذل المؤمنين" ، كما أن قبول الحسن لهذا الصلح لم يكن لوجه الله ، بدليل اشتراطه على معاوية أن تكون له الخلافة من بعده .

على أن الذين قالوا من أصحاب الحسن "إنه "مذل المؤمنين" لايعول على قولهم هذا فى إثبات عدم صحة الحديث النبوى المشار إليه ، لأن بغضهم الشديد لمعاوية هو الذى حملهم على هذا القول ، وصرف نظرهم عن هذا الحديث الصحيح ، بدليل أن هؤلاء ممن يقولون بعصمة الأئمة -وطبعا الحسن من بينهم- ومعنى عصمة الأئمة أنهم لايخطئون ، وأن كل مايفعلونه صحيح . وعلى الرغم من ذلك نراهم لم يعتمدوا ماأجراه الحسن من الصلح مع معاوية و لم يدخلوا فى طاعته ، علما بأن عصمة الأئمة مبدأ أساسى فى المذهب الشيعى ، ولكن أصحاب الحسن هؤلاء ضربوا بالمبدأ المذكور عرض الحائط ، ولذلك لايستغرب منهم هذا الموقف بالنسبة للحديث النبوى المشار إليه .

كما أن الحسن لما وقع الصلح مع معاوية كان يهدف أساسا إلى حقن دماء المسلمين ، وإذا صح أنه اشترط تولى الخلافة بعد معاوية ، فربما كان ذلك نوع من الترضية لأنصاره وتسكينا لغضبهم . علما بأن الطبرى[1] تحدث عن شروط هذا الصلح بالتفصيل ، لكنه لم يشر إلى أن الحسن اشترط تولى الخلافة بعد معاوية .

ثالثا : موقعة النهروان (٣٨هـ) :

عاد أنصار علىّ من صفين إلى الكوفة بعد أن تم الاتفاق على التحكيم وهم متفرقون متشاتمون . ويصف الطبرى[2] حالهم بقوله : "خرجوا مع على إلى صفين وهم متوادون أحباء ، فرجعوا متغاضبين أعداء ، مابرحوا من عسكرهم بصفين حتى فشا فيهم التحكيم ، ولقد أقبلوا يتدافعون الطريق كله ، ويتشاتمون ويضطربون بالسياط ، يقول الخوارج : ياأعداء الله ، أدهنتم فى أمر الله عز وجل وحكمتم . وقال الآخرون :

---

(١) تاريخ الأمم ، ج٥ ، ص ١٦٠ ، ١٦٢ .

(٢) تاريخ الأمم ، ج٥ ، ص ٦٣ .

فارقتم إمامنا وفرقتم جماعتنا" .

ويقول المسعودى[1] : "ولما دخل على رضى الله عنه الكوفة انحاز عنه إثنا عشر ألفا من القراء وغيرهم فلحقوا بحر وراء - قرية من قرى الكوفة[2] - وجعلوا عليهم (شبث ابن ربعى الرياحى)[3] ، وعلى صلاتهم عبد الله بن الكواء اليشكرى من بكر بن وائل . فخرج علىّ إليهم ، وكانت له معهم مناظرات فدخلوا جميعا الكوفة . وإنما سموا الحرورية لاجتماعهم فى هذه القرية" .

ويتفق المبرد[4] مع السعودى فى قوله المشار إليه ، لكنه يختلف معه فى بيان عدد من انحازوا من أنصار علىّ إلى حروراء ، إذ يذكر المبرد أن أرجح الأقوال فى نظره تشير إلى أنهم كانوا ستة آلاف فقط . كما يورد مناظرة بين الطرفين قال علىّ فيها : "أنشدكم الله أعلمتم أن أحدا منكم كان أكره للحكومة منى ؟ قالوا : اللهم لا . قال : أفعلمتم أنكم أكرهتمونى حتى قبلتها ؟ قالوا : اللهم نعم . قال : فعلام خالفتمونى ونابذتمونى ؟ قالوا : إنا أتينا ذنبا عظيما فتبنا ، فتب إلى الله منه واستغفره ، نعُد لك . فقال علىّ : إنى استغفر الله من كل ذنب ، فرجعوا ومعهم ستة آلاف[5] . فلما استقروا بالكوفة أشاعوا أن علياً رجع عن التحكيم ورآه ضلالا ... فخطب علىّ الناس فقال : من زعم أنى رجعت عن الحكومة فقد كذب ، ومن رآها ضلالا فهو أضل . فخرجت[6] الخوارج من المسجد فحكمت (أى قالوا : لاحكم إلا لله)" ثم أخذوا يرددونها بعد ذلك بالمسجد

---

(١) مروج الذهب ، ج٢ ، ص ٦٨١ .

(٢) على بعد ميلين منها .

(٣) فى الأصل "شبث بن ربعى التيميمى" ، والتصحيح من الكامل للمبرد ، ج٣ ، ص ١١٧ .

(٤) الكامل فى الأدب ، ج٣ ، ص ١١٦ .

(٥) يفهم أيضا من رواية ذكرها الحاكم (المستدرك ، ج٢ ص ٢٥٢) مرفوعة إلى عبد الله بن عباس أن عدد من ناظرهم من المحكمة فى حروراء كان ستة آلاف .

(٦) هذا هو الخروج الثانى للخوارج ، أما الأول فحدث عند ذهابهم إلى حروراء ، وكان خروجهم إلى النهروان هو الخروج الثالث [انظر : المبرد : الكامل فى الأدب ، ج ٣ ،ص ٩٨] .

مقاطعين لعلىّ ، فقال : "كلمة حق يراد بها باطل"(1) .

لما أصر علىّ على عدم النكث بوعده وقرر المضى قدما فى إنجاز التحكيم ، اجتمع المحكمة فى منزل عبد الله بن وهب الراسبى ، فوعظهم وحرضهم على الخروج إلى بعض النواحى قائلا : "فاخرجوا بنا من هذه القرية الظالم أهلها ، إلى بعض هذه المدائن ، منكرين لهذه البدعة المضلة ، والأحكام الجائرة"(2). وقد أيد الراسبى فى ذلك كثير من المحكمة ، وقرر المجتمعون ضرورة اختيار إمام لهم ، فعرضوها على زيد بن حصين الطائى ، ثم على حرقوص بن زهير ، ثم على حمزة بن سنان ، ثم على شريح بن أوفى العنسى ، فأبوا ، فعرضوها على عبد الله بن وهب الراسبى ، فأجاب ، فبايعوه(3) . ثم خرج المحكمة من الكوفة إلى النهروان ، على مقربة من شاطئ الفرات الغربى .

تواعد المحكمة اللقاء فى النهروان ، ولما اجتمعوا بها كتبوا إلى إخوانهم من أهل البصرة قائلين : "أما بعد ، فإن أهل دعوتنا حكموا الرجال فى أمر الله ، ورضوا بحكم القاسطين (الظالمين) على عباده فخالفناهم ، ونابذناهم ، نريد بذلك الوسيلة إلى الله ، وقد قعدنا بجسر النهروان ، وأحببنا إعلامكم لتأخذوا بنصيبكم من الأجر ، والسلام" . وقد ردّ محكمة البصرة بقولهم : " أما بعد ، فقد بلغنا كتابكم ، وفهمنا ماذكرتم ، وقد وهبنا لكم الرأى الذى جمعكم الله عليه من الطاعة ، وإخلاص الحكم لله ، وإعمالكم أنفسكم فيما يجمع الله به كلمتكم ، وقد أجمعنا على المسير إليكم عاجلا"(4) .

اجتمع الحكمان بعد انتقال المحكمة إلى النهروان بقليل ، وانتهى قرارهما إلى عزل علىّ عن الخلافة وترك الأمر شورى بين المسلمين . ولكن علياً اعتبر هذا الحكم خارجا عما فى كتاب الله، ولذلك لم يلتزم به ، وتبرأ من الحكمين على النحو الذى سبق

---

(1) ابن خلدون : العبر ، ج2 ، ص 178 .

(2) ابن قتيبه : الإمام والسياسة ، ج1 ، ص 141 .

(3) ابن خلدون : العبر ، ج2 ، ص 179 .

(4) ابن قتيبه : نفس المصدر والصفحه .

توضيحه ، ووطد العزم على العودة إلى القتال لحسم النزاع بينه وبين معاوية ، ولذا كتب إلى المحكمة بالنهروان يقول : "بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد ، فإن هذين الرجلين اللذين ارتضينا حكمهما قد خالفا كتاب الله ، واتبعا أهواءهما بغير هدى ، فلم يعملا بالسنة و لم ينفذا القرآن ، فإذا بلغكم كتابى هذا ، فأقبلوا ، فإنا سائرون إلى عدونا وعدكم ، ونحن على الأمر الأول الذى كنا عليه والسلام"[1] .

وقد ردّ المحكمة على كتاب على المذكور قائلين : "بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد ، فإنك لم تغضب لربك ، إنما غضبت لنفسك ، فإن شهدت على نفسك بالكفر ، واستقبلت التوبة ، نظرنا فيما بيننا وبينك ، وإلا نابذناك على سواء ، إن الله لا يحب الخائنين"[2] .

وعلى الرغم من غلظة هذا الرد ، فإن علياً أراد -فيما يبدو- أن يترك هؤلاء المحكمة وشأنهم ، وقرر المسير بجنده إلى الشام . لكنه فوجئ بنبأ مقتل عبد الله بن خبّاب ابن الأرت وبعض أهله على يد نفر من المحكمة . وكان نحو خمسمائة من محكمة البصرة قد خرجوا إلى النهروان ، وعلى رأسهم مسعر بن فدكى التميمى[3] ، استجابة لإخوانهم من محكمة الكوفة الذين راسلوهم من النهروان على النحو المشار إليه . وبينما هم يسيرون قابلوا رجلا فى طريقهم يسوق زوجه على حماره ، ولما ظهر عليه الخوف من رؤيته لهم سألوه عن اسمه. فقال : عبد الله بن خباب بن الأرت صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقالوا : حدثنا بحديث سمعته من أبيك عن الرسول عليه السلام . فحدثهم بحديث فى الفتن ينهى عن الإسهام فيها ، ففهموا أنه يعنى بذلك تخطئتهم على خروجهم[4] خاصة وأنهم حين سألوه عن الحكومة والتحكيم أجابهم بقوله : "إن علياً

---

(١) الطبرى : تاريخ الأمم ، ج٥ ، ص ٧٧ .

(٢) الطبرى : نفسه ، ص ٧٨ .

(٣) البلاذرى : أنساب الأشراف ، ج٢ ص ١٩٥ - ١٩٦ .

(٤) ابن الجوزى : تلبيس ابليس ، ص ٩١ .

أعلم بكتاب الله منكم وأشد توقّيا على دينه وأنفذ بصيرة ، ولذلك قالوا له : "إنك لست تتبع الهدى ، إنما تتبع الرجال على أسمائها" ، ثم قربوه إلى شاطئ النهر فذبحوه هو وزوجته[1].

سار على بجنده إلى النهروان ، ولما قرب أرسل إلى من بها من المحكمة يقول : سلموا إلينا قتلة أصحابنها ، ثم أنا تارككم ، وكاف عنكم حتى ألقى أهل الشام ، فلعل الله يقلب قلوبكم ويردكم إلى خير مما أنتم عليه من أمركم . فردوا عليه قائلين : كلنا قتلهم ، وكلنا نستحل دماءهم ودماءكم[2] وحينئذ قرر على أن يرفع لهم راية أمان مع أبى أيوب الأنصارى ، وناداهم أبو أيوب قائلا : من جاءها منكم ممن لم يقتل ، ولم يستعرض ، فهو آمن ، ومن انصرف منكم إلى الكوفة أو المدائن وخرج من هذه الجماعة فهو آمن ، إنه لاحاجة لنا -بعد أن نصيب قتلة إخواننا منكم- فى سفك دمائكم[3] ، وقد حرص علىّ -كعادته دائما- على إصدار أوامره بألا يبدأ جنده بالقتال .

أقبلت المحكمة حتى دنوا من جند علىّ وهم ينادون : لاحكم إلاّ لله .. الرواح إلى الجنة ، وحملوا على أصحاب علىّ حملة رجل واحد ، فأمطرهم جنده بالرماح والنبال ، واستقبلوهم بالسيوف حتى أفنوهم عن آخرهم ، بحيث لم ينج منهم غير بضعة أشخاص. وذكر المبرد[4] أن عدد ماأصاب جند علىّ منهم -فى أصح الأقاويل من وجهة نظره- ألفين وثمانمائة ، إذا أن عدد المحكمة وقتذاك بلغ ستة آلاف ، بقى منهم بالكوفة زهاء ألفين ممن يسر أمره ، وخرج أربعة آلاف ، مال منهم ألف ناحية أبى أيوب الأنصارى مستأمنين ، كما انصرف بعضهم إلى الكوفة .

---

(١) المبرد : الكامل فى الأدب ، ج٣ ،ص ١١٧ ، والبلاذرى : أنساب الأشراف ،ج١ ،ص ١٧٥ ، والطبرى : تاريخ الأمم ،ج٥ ،ص ٨٢ .

(٢) المسعودى : مروج الذهب ،ج٢ ،ص ٦٩١ .

(٣) الطبرى : تاريخ الأمم ، ج٥ ص٨٦ .

(٤) الكامل : ج٣ ، ص ١٠٦ .

وقد جمع عليّ ماكان فى عسكر المحكمة بالنهروان ، فقسم السلاح والدواب بين من شهد القتال من جنده ، ورد المتاع والعبيد والإماء إلى أهلهم[1] .

كان أكثر من قتل من المحكمة بالنهروان من أهل الكوفة ، ومن المعلوم أن جيش على كان أكثره أيضا من أهل هذه المدينة ، فقد قتل زيد بن عدى بن حاتم ، وكان أبوه (عدى بن حاتم) فى جيش على ، وأكثر القتلى كانوا بهذه الصورة أو قريبا منها ، ولذا غدا جيش عليّ حزينا كئيبا على قتلى خصومه (أو قتلى أهله) ، فتغيرت النفوس ، وتبدلت الطباع[2] .

لذلك لانعجب من ردّ جند عليّ حين أراد أن يسيرهم من النهروان إلى معاوية من فورهم ، إذا قالوا له : ياأمير المؤمنين نفذت نبالنا ، وكلت أذرعنا ، وتقطعت سيوفنا ، ونصلت أسنة رماحنا ، فارجع بنا نتزود بأحسن عدتنا . ولعل أمير المؤمنين يزيد فى عدتنا ، فإن ذلك أقوى لنا على عدونا . فرجع على بهم حتى نزل النخيلة بالقرب من الكوفة فعسكر بها ، وأمر الجند أن يلزموا معه هذا المعسكر حتى يتهيئوا لملاقاة أهل الشام ، فأقاموا معه أياما ، ثم أخذوا يتسللون إلى الكوفة شيئا فشيئا ، حتى أصبح المعسكر خاليا إلا من على ونفر يسير[3] .

وتوالت الأحداث فى الدولة الإسلامية بعد معركة النهروان فى سنة ٣٨ هـ ، إذ تمكن معاوية من انتزاع مصر ، بفضل المقاومة التى أبداها الغاضبون من أهلها لمقتل عثمان[4] ضد واليها محمد بن أبى بكر ، الذى كان من الذين أسهموا فى الثورة على الخليفة المذكور . كما انتزع معاوية اليمن والحجاز ، وأخذ جنده يغيرون على العراق ذاته .

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ، ج٢ ، ص ٦٩٣ .

(٢) محمود شاكر : التاريخ الإسلامى ج٣ ، ص ٢٧٧ -٢٧٨ .

(٣) الطبرى : تاريخ الأمم ، ج ٥ ، ص ٨٩ - ٩٠ .

(٤) ابن خلدون : العبر ، ج٢ ، ص ١٨١ .

على أن علياً تمكن من بث روح الحماسة بين أنصاره مـن جديـد ، بفضـل ماألقـاه عليهم من خطب رنانة وكلمات مؤثرة ، حتى بايعه أربعون ألفا علـى الموت[1] ، فوطـد العزم على التوجـه بهـم إلى الشـام لملاقـاة خصمـه ، إلا أن أحـد الخـوارج فاجـأه بطعنـة غادرة ، وهو عبد الرحمن بن ملجم المرادى ، فاستشهد فى سـنة ٤٠هـ ، وبـايع أنصـاره ابنه الحسن بالخلافة ، لكنه لم يلبث أن عقد الصلح مع معاوية فى السنة التالية ، وتنازل له عن الخلافة حقنا لدماء المسلمين ، وقد عرف عام الصلح بينهما بعام[2] الجماعة .

---

(١) ابن خلدون : العبر ، حـ٢ ، ص١٨٦ .

(٢) الطبرى : تاريخ الأمم ،ج٥ ،ص ١٦٣ .

الباب الأول

نشأة الإباضية

١- مرداس بن حدير التميمى وتزعمه لمحكمة البصرة بعد معركة النهروان :

هو أحد بنى ربيعة بن حنظلة التميمى المكنى بأبى بلال[١] . وكان ممن قاتلوا فى صفين تحت لواء الإمام علىّ بن أبى طالب ، ثم أنكر التحكيم ضمن فئة منها أخوه عروة بن حدير الذى يقال : إنه أول من نطق بعبارة "لاحكم إلا لله"[٢] . وقد شهد هذان الأخوان يوم النهروان ضد الإمام علىّ ، وكانا من بين الناجين القلائل يومذاك .

وقد وقع إختيار مرداس بعد نجاته على مدينة البصرة لتكون مقاما له ،فيمم وجهه شطرها ، وصحبه إليها نفر ممن كانوا على رأيه ، وهناك شرع أبو بلال فى بث أفكاره ، فانضم إليه عدد لابأس به من أهلها .

ويرى البعض[٣] أن أبا بلال هو أول من نقل أفكار المحكمة إلى البصرة . لكننا نعتقد أن بعض أهالى المدينة المذكورة اعتنقوا هذه الأفكار قبل مقدم أبى بلال إليها ، بدليل ماسبقت الإشارة إليه من أن خمسمائة من محكمة البصرة ، وعلى رأسهم مسعر ابن فدكى التميمى ، انضموا إلى إخوانهم من محكمة الكوفة قبل معركة النهروان ، وأن بعضهم فتك بعبد الله بن خباب بن الأرت وزوجه ، وهم فى طريقهم إلى النهروان[٤] .

وقد اشتهر مرداس بالزهد والورع ، وبلغ من حسن سيرته أن جميع فرق الخوارج تعتبره من أئمتها[٥] . كما يقول ابن الأثير[٦] : "وأما أبو بلال مرداس فكان عابدا مجتهدا

---

(١) يقال له أحيانا : مرداس بن أدية ، وهى جدته ، وقيل أمه [الكامل فى الأدب ،ج٣ ،ص ٩٦ والشماخى : السير ،ج١ ،ص ١٦] .
(٢) الشماخى : السير ،ج١ ،ص٦٥ .
(٣) محمد قرقش : عمان والحركة الإباضية ،ص٧٦ .
(٤) ابن الجوزى : تلبس إبليس ،ص٩١ .
(٥) الرقيشى : مصباح الظلام ، ورقة ٢١ أ .
(٦) الكامل فى التاريخ ،ج٣ ،ص٣٦١ .

عظيم القدر فى الخوارج ... وكانت الخوارج تتـولاه" . بـل إن بعـض الفـرق الإسـلامية -فيما بعد- ادعت نسبتها إليه .

يقول المبرد(١) : "ومرداس تنتحله جماعه ...لقشفه وبصيرته وصحة عبادته وظهـور ديانته وبيانه ، وتنتحله المعتزلة وتزعم أنه خرج منكرا لجور السـلطان ، داعيـا إلى الحـق ، وتحتج له بقوله لزياد بن أبيه حين قال على المنـبر : والله لآخـذن المحسـن منكـم بالمسـئ ، والحاضر منكم بالغائب ، والصحيح بالسقيم . فقام إليه مرداس فقال : قـد سمعنـا مـاقلت أيها الإنسان ، وما هكذا ذكـر الله ، فهـو - عـز وجـلّ- يقـول : ﴿**ولاتزر وازرة وزر أخرى**﴾ ، وأنت تزعم أنك تأخذ المطيـع بالعـاصى ! ثـم خـرج فـى عقـب هـذا اليـوم . والشيعة تنتحله ، وتزعم أنه كتب إلى الحسين يقول : إنى لست أرى رأى الخوارج ، وما أناإلا على دين أبيك" .

ويقول أحد الباحثين الإباضيين(٢) : يبدو أن أبـا بـلال مـرداس كـان يمثـل الجنـاح المعتدل بين المحكمة ، لأنه لم يرو عنه أنه كان ممن استحلوا الاسـتعراض أو سـفك الدمـاء بغير الحق قبل واقعة النهروان ، ويـدل مسـلكه بعدهـا علـى أنـه كـان يتحلـى بـالاعتدال ويحرص على إقناع مخالفيه بالحجة والبرهان ، كما كان يرى أن الخلاف الذى وقع بشـأن التحكيم ماكان ينبغى -بحال من الأحوال- أن يصل بالمسلمين إلى حد التقاتل بالسـيف ، خلافا لما تقضى به شريعتهم السمحة الغراء .

وكانت قبيلة تميم -التى ينتمى إليها مرداس- تقيم بالبصرة وقتذاك ، وتشكل جزءا هاما من سكانها ، إذ كان فى استطاعتها أن تجند مـن رجالاتهـا ستة آلاف مقـاتل عنـد اللزوم(٣) ، كما كان يتزعمها الأحنف بـن قيـس المشـهود لـه بالحكمـة وسـداد الـرأى . ويقول ابن الأثير(٤) : "وكان الأحنف أحد الحكمـاء الدهـاة .... وقـدم على عمـر (بـن

---

(١) الكامل فى الأدب ، ج٣ ، ص ١١٨ .

(٢) صالح بن أحمد الصوافى : الإمام جابربن زيد ،ص ١٣٦ .

(٣) ابن الأثير : المرجع السابق ، ج٣ ،ص ١٢٧ .

(٤) أسد الغابة فى معرفة الصحابة ، ج١ ،ص٦٩ .

الخطاب) فى وفد البصرة ، فرأى منه عقلا ودينا وحسن سمت ... ثم كتب معه كتابا إلى الأمير على البصرة يقول له : الأحنف سيد أهل البصرة ، فما زال يعلو من يومئذ .

كان من الطبيعى أن يحظى مرداس فى البصرة بعطف ابن عمه الأحنف بن قيس وكرمه ، خاصة بعد أن أظهر مرداس الميل إلى الاعتدال وكراهة العنف ، ويبدو أن هذا الموقف من جانب الأحنف تجاه مرداس جعل الإباضيين يعتقدون أن الأحنف مال إلى رأى المحكمة ، فيذكر كل من الدرجينى[1] والشماخى[2] ترجمة له ضمن أسلاف الإباضية . كما يقول أحد الإباضين المحدثين[3] : "وقد مال الأحنف بن قيس للمحكمة ورأى آراءهم ووافق على مسلكهم وخطتهم ، لذلك آوى إليه أبا بلال وأتباعه ، وأسبغ عليهم حمايته . ولعل السبب فى ذلك هو مالمسه من أن هؤلاء المحكمة مالوا إلى الاعتدال" .

على أن الأحنف بن قيس لم يمل إلى رأى المحكمة ولا وافق على مسلكهم وخطتهم، لأنه كان من أنصار على بن أبى طالب المخلصين ، إذ حارب فى صفه ضد معاوية يوم صفين ، كما حارب الخوارج ضمن جنده يوم النهروان ، ومن قبل منع عشرة آلاف من تميم وغيرهم من أن ينضم أحد منهم إلى أعداء علىّ يوم الجمل ، إذ تمكن من حملهم جميعا على الحيدة يومذاك[4] .ويرى الدكتور عوض خليفات[5] أن الأحنف ابن قيس تخلى عن علىّ بن أبى طالب بعد معركة النهروان ، وإن كان لم يعط ولاءه لمعاوية بدليل تصديه لحركة ابن الحضرمى لما حاول الإستحواذ على البصرة موالاة لمعاوية . كما يشير خليفات إلى أن سلوك الأحنف بعد المعركة المذكورة ينفى أية تبعية من جانبه للخوارج .

---

(١) طبقات المشايخ بالمغرب ،ج٢ ، ص ٢٣٥ .

(٢) السير ،ج١ ،ص٧٦ .

(٣) صالح بن أحمد الصوافى : الإمام جابر بن زيد ، ص ١٣٧ .

(٤) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج٣ ، ص١٢٧ .

(٥) نشأة الإباضية ، ص٦٥ .

ومن المعروف أن معاوية طمع فى الإستحواذ على البصرة وضمها إليه بعد فشل التحكيم فى سنة ٣٨ هـ ، على أساس أن كثيرا من أهلها كانوا عثمانية ، لذلك سير عبدالله بن الحضرمى إليها وحمله كتابا إلى أهلها يذكرهم فيه بآثار عثمان فيهم ، وحبّه العافية ، وسده الثغور ، ويذكر قتله ويدعوهم إلى الطلب بدمه ، ويضمن أنه يعمل فيهم بالسنة ، ويعطيهم عطاءين فى السنة بدلا من عطاء واحد . وقد استجاب بعض أهل البصرة لابن الحضرمى بينما أظهر البعض الآخر معارضتهم له . أما الأحنف بن قيس فقد وقف على الحياد واعتزل الفريقين ، وقال بعد أن فرغ ابن الحضرمى من تلاوة كتاب معاوية :"لاناقتى فى هذا ولا جملى[١] .

وهكذا يتضح لنا أن الأحنف بن قيس لم يتصدّ لابن الحضرمى ، كما أنه - فيما يبدو - دخل فى طاعة معاوية ، مثلما فعل أهل العراق ، بعد أن تنازل له الحسن بن على عن الخلافة سنة ٤١ هـ . والدليل على ذلك أن الأحنف كان ضمن وفد البصرة الذى مثل بين يدى معاوية سنة ٥٦ هـ لأخذ رأيه فى البيعة لابنه يزيد بالخلافة من بعده ، ويفهم مما قاله الأحنف حينذاك أنه كان يقر بإمرة المؤمنين لمعاوية ، فضلا عن السمع له والطاعة . يقول ابن الأثير[٢] : وتكلم من حضر من الوفود فقال معاوية للأحنف : ماتقول يا أبا بحر؟ فقال : نخافكم إذا صدقنا ، ونخاف الله إذا كذبنا ، وأنت يا أمير المؤمنين أعلم بيزيد فى ليله ونهاره ، وسره وعلانيته ، ومدخله ومخرجه ، فإن كنت تعلمه لله تعالى وللأمه رضا فلا تشاور فيه ، وإن كنت تعلم فيه غير ذلك فلا تزوده الدنيا وأنت صائر إلى الآخرة ، وإنما علينا أن نقول : "سمعنا وأطعنا" .

ويظهر من القول المذكور للأحنف فى حضرة معاوية أنه لم يكن راضيا عن إسناد الخلافة ليزيد بعد أبيه ، فمن يا ترى ذلك الشخص الجدير بها من وجهة نظر الأحنف ؟ تتحدد الإجابة على هذا التساؤل بما ذكره صاحب الإمامة والسياسة[٣] الذى أورد نفس

---

(١) ابن الأثير · الكامل فى التاريخ ، جـ٣ ، ص٣٣٢

(٢) نفسه ، جـ٣ ص٣٥٢ .

(٣) جـ١ ، ص١٧١ (هذا الكتاب منسوب لابن قتيبة) .

رواية ابن الأثير المذكورة تقريبا مع شيء من الزيادة يقول فيهـا : " ... فـلا تـزوده الدنيـا وأنت صائر للآخرة ، فإنه ليس لك من الآخرة إلا ما طاب ، واعلم أنه لا حجة لك عنـد الله إن قدمت يزيدا على الحسن والحسين ، وأنت تعلم من هما وإلى ماهما ، إنما علينا أن نقول : (سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير)" . وإذا صح هذا الذى ذكـره صـاحب الإمامة والسياسة من أن الأحنف كـان لا يقـدم أحـدا علـى الحسـن والحسـين فـى تـولى الخلافة بعد معاوية ، فإنه يكون بذلك لم يتخلّ عن ولائه لعّلى بـن أبـى طـالب وأولاده ، ولئن كانت نفسه قد تأثرت -مثل الكثيرين غيره من أنصـار علـىّ- بسـبب هـلاك ذوى قرباهم فى معركة النهروان ، مما حملهم على التسلل من المعسكر الذى أقامه علىّ بالنخيلة على النحو السابق ذكـره ، إلا أن هـذا التـأثر كـان مؤقتـا ، إذ لم يلبـث أنصـار علـىّ أن تجمعوا حوله مرة أخرى بتأثير خطبه ، ولما قتـل فجـأة ، انضـوى هـؤلاء تحـت لـواء ابنـه الحسن ، ولما تنازل الحسن لمعاوية عن الخلافة سنة ٤١ هـ بايع أنصاره معاوية على مضـض ومن هؤلاء الأحنف بن قيس .

وبصرف النظر عن صحة ماقيل عن تخلى الأحنف عـن علـى بـن أبـى طـالب بعـد معركة النهروان أو عدم صحته ، فإن الشيء المؤكد هـو أنـه لم يمـل إلى رأى المحكمـة ولا وافق على مسلكهم وخطتهم ، بدليل أنه كـان يقـر لمعاويـة بـإمرة المؤمنـين ، وأنـه رغـم كراهته لتولى يزيد الخلافة من بعده ، أعلن علـى المـلأ أنـه لـن يسـعه إلا الإقـرار بالسـمع والطاعة ، فى حالة إصرار والده على إسناد الخلافة له من بعـده . ولـو أن الأحنـف مـال حقا إلى رأى الخوارج ، مافعل ذلـك بحـال مـن الأحـوال ، خاصـة وأنـه لم يكـن تنقصـه الشجاعة لإبداء الرأى على النحو المشار إليه . ولعل فى موقف عبدالله بـن إبـاض ، وهـو من المحكمة البارزين ، دلالة على صحة الرأى القائل بأن الأحنـف لم يمـل إلى المحكمـة لأن ابن إباض افتتح رسالته المشهورة للخليفة الأموى عبدالملك بن مـروان بقولـه : "بسـم الله الرحمن الرحيم . من عبدالله بن إباض إلى عبد الملك بن مروان ، أما بعد : سلام عليك[1] ..." أى أنه لم يقر له بإمرة المؤمنين ، بل وقدم اسمه على اسم عبدالملـك ، كمـا قـال ابـن إبـاض فـى رسـالته المشـار إليهـا :"... ولا تسـأل عـن معاويـة وعـن صناعتـه غـيرى ،

---

(١) انظر : سالم بن حمود السيابى : إزالة الوعثاء عن أتباع أبى الشعثاء ، ص٩٥ - ٩٦ .

لأنى قد أدركته ورأيت عمله وسيرته ، ولا أعلم من الناس أحدا أترك للقسمة التى قسمها الله ولا لحكم حكمه لله ولا أسفك لدم حرمه الله منه ... ثم استخلف ابنه يزيد فاسقا لعينا كافرا شاربا للخمر فيكفيه (ذلك) من الشر ، فلا يخفى عمل معاوية ويزيد على كل عاقل . فاتق الله يا عبدالملك ولا تخادع نفسك فى معاوية[1]" .

ويدل تعاطف الأحنف بن قيس نحو عبيد الله بن زياد فى أثناء محنته ، وحرصه على الدفاع عنه ، على أنه لم يمل إلى رأى الخوارج، لأن بغض هؤلاء لابن زياد مشهور ، فمن الثابت أنه حين اضطربت أحوال الأمويين ، على أثر موت يزيد بن معاوية ، اضطر ابن زياد إلى الاختفاء عند أحد أعيان البصرة فترة من الوقت قبل أن يفر إلى الشام ، وفى أثناء ذلك حاول بعض الأهلين مهاجمة داره ، لكن الأحنف تصدى لهم وقال :"لا يدخل دار ابن زياد أحد وأنا حى"[2] .

كما أن الثابت أنه بعد موت يزيد بن معاوية قاد الأحنف بن قيس كتيبة بنى تميم فى حملة مصعب بن الزبير سنة ٦٧ هـ على الكوفة ضد المختار بن أبى عبيد الثقفى[3] ، مع أن موقف المحكمة من ابن الزبير تحدد فى خروج بعضهم عليه مثل : نافع بن الأزرق، ونجده بن عامر الحنفى ، ومهادنة البعض الآخر له ، دون مناصرته ، مثل : عبدالله ابن صفار ، وقد أطلق المحاربون لإبن الزبير من الخوارج اسم "القعدة" على إخوانهم من المهادنين له . ولا شك أن مناصرة الأحنف لابن الزبير سنة ٦٧ هـ ضد أعدائه تدل دلالة أكيدة على أنه لم يمل إلى الخوارج ، وهذا يفسر لنا حرص مصعب بن الزبير على تشييع جنازة الأحنف بن قيس لما توفى فيما بعد[4] .

وقد استدل الدكتور عوض خليفات[5] بما أشار إليه الشماخى[6] من أن مصعب

---

(١) نفس المرجع السابق والصفحة .

(٢) خليفة بن خياط : تاريخ خليفة بن خياط ، ص ٢٥٨ .

(٣) انظر دائرة المعارف الإسلامية : مجلد ١ ص ٥٠٧ .

(٤) ابن الأثير : أسد الغابة فى معرفة الصحابة ، جـ١ ص ٦٩ .

(٥) نشأة الحركة الإباضية ، ص٧٢ .

(٦) السير ، جـ١ ، ص٧٦ .

ابن الزبير مشى فى جنازة الأحنف لما توفى سنة ٦٧ هـ فقال (أى خليفات) : "إن مصعب بن الزبير كان يحترم زعماء القعدة من الخوارج ويمشى فى جنازة من يموت منهم" . إلا أن الأحنف كان من أنصار ابن الزبير على النحو المشار إليه ، كما لم يظهر أية تبعية للخوارج ، وهى حقيقة أشار إليها الباحث المذكور نفسه(١) . هذا فضلا عن أن جل اهتمام الأحنف بن قيس فى أخريات حياته ، كان منصرفا إلى التوفيق بين القبائل المختلفة التى تقطن البصرة ، وحملها على تناسى الأحقاد وتضافر جهود رجالها -بقدر المستطاع- على الوقوف أمام عدوها المشترك "الخوارج" وكانت أمنيته هى القيام بعمل حاسم ضد هذه الفرقة(٢) .

ذهب البعض(٣) إلى القول بأن الحماية التى أسبغها الأحنف بن قيس على مرداس ابن حدير وأصحابه ، كانت من بين الأسباب التى مكنته من نشر دعوته بين الكثيرين بالبصرة فى مأمن من بطش الوالى الأموى . لكن الحقيقة أن سياسة الدولة الأموية فى بداية عهدها نحو الخوارج المعتدلين ، وليست الحماية المشار إليها من جانب الأحنف ، هى التى كفلت لمرداس وأصحابه السلامة والأمان ، إذ كان الأمويون يتساهلون وقتذاك مع المعتدلين منهم ، بل يخطبون ودهم أحيانا ، حتى يتفرغوا لقتال المتطرفين من الخوارج، أولئك الذين كانوا يستعرضون الناس ويغيرون على القرى لسفك دماء مخالفيهم وإشاعة الهلع والفزع بين ظهرانيهم . وليس أدل على ذلك من أن رجلا على رأى الخوارج مثل ذات يوم بين يدى الوالى الأموى زياد بن أبيه فأراد أن يعاقبه ، فقال له الرجل : "إنك قد قلت قولا فصدقه بفعلك ، وكان من قولك : ومن قعد عنا لم نهجه ، فقعدت . فأمر (زياد) له بصلة وكسوة وحملان"(٤) . كما بلغ زياد عن رجل يكنى بأبى الخير ، من أهل

---

(١) نشأة الحركة الإباضية ، ص ٦٥ .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية ، جـ١ ، ص٥٠٧ .

(٣) عوض خليفات : المرجع السابق نفسه ، ص ٦٦ ، وصالح بن أحمد الصوافى : الإمام جابر ابن زيد ، ص ١٣٨ .

(٤) المبرد : الكامل فى الأدب ، جـ٣ ، ص ١٤٦ .

البأس والنجده ، أنه يرى رأى الخوارج ، فدعاه فولاه بلدة بالأهواز اسمها "جندى سابور" وما يليها ؛ ورزقه أربعة آلاف درهم فى كل شهر ، وجعل عطاءه السنوى مائة ألف ، فكان أبو الخير هذا يقول "مارأيت شيئا خيرا من لزوم الطاعة والتقلب بين أظهر الجماعة"[1] .

ويتضح مما ذكرناه ان الذى كفل الأمان لمرداس وأصحابه طول عهد زياد (٤٥ - ٥٣ هـ) ، ليست حماية الأحنف وقبيلته لهم ، وإنما هو سياسة الوالى المذكور مع المعتدلين أمثالهم ، أولئك الذين تحاشوا التعرض له بالنقد والتجريح وإثارة الناس ضده . خاصة وأنه يفهم مما ذكره الطبرى[2] أن الوالى المذكور وعد مرداسا وعدا صريحا بأنه لن يتعرض له ولأصحابه بأى سوء طالما التزموا الهدوء والسكينة .

أما المتطرفون من الخوارج فقد اتبع معهم زياد أقسى وسائل القمع والنكال ، كما توعد كل قبيلة مقيمة بالبصرة بإجلائها وحرمانها من العطاء ان هي تقاعست عن قتال من ينضم من أبنائها إلى الخوارج . فيروى الطبرى[3] أن زياداً كان يقول : "إن أى خارجة خرجت من قبيلة فلم تقاتلها ، حرمتها العطاء وأجليتها" . ويذكر المبرد[4] أن قبائل مزينة وغيرها اجتمعت ذات يوم على بعض الخوارج الذين ظهروا بالبصرة فقتلوهم عن آخرهم، ثم ذهبوا لمقابلة زياد ، فقال لهم : لولا أنكم أطفأتم هذه النار لقلت أنكم الذين اشعلتموها . فكانت القبائل اذا أحست بخارجية فيهم شدتهم وأتت بهم زيادا . ويعلق المبرد[5] على هذا الموقف من جانب زياد بقوله : فكان هذا أحد ما ذكر من صحه تدبيره، وله أخرى فى الخوارج ، وهى أنهم حين أخرجوا معهم امرأة ظفر بها قتلها ثم عرّاها فلم تخرج النساء بعد على زياد ، وكن إذا دعين إلى الخروج قلن : لولا التعرية لسارعنا .

---

(١) المبرد : الكامل فى الأدب ، جـ٣ ص ١٤٦ .

(٢) تاريخ الأمم والملوك ، جـ٣ ، ص ٢٢١ .

(٣) نفسه ص٢٣٨ .

(٤) نفسه ص١٣٦ .

(٥) نفسه ، ص١٣٧ .

تابع عبيد الله بن زياد - لما تولى بعد أبيه سنة ٥٥ هـ - سياسة التنكيل بالمتطرفين من الخوارج رجالا ونساء ، وزاد على ذلك فنكل بالمعتدلين منهم والمعتدلات . كما كان يلجأ للحيلة أحيانا لإثارة الفتن والوقيعة بين أبناء الخوارج ، إذ كان يضع الجماعة منهم في السجن ثم يغرى من يقتل زميلا له بإطلاق سراحه . يقول ابن الأثير[1] : "كان قوم من الخوارج بالبصرة يجتمعون إلى رجل اسمه "جدار" فيتحدثون عنده ويعيبون السلطان ، فأخذهم ابن زياد فحبسهم ، ثم دعاهم وعرض عليهم أن يقتل بعضهم بعضا ويخلى سبيل القاتلين ، ففعلوا ، فأطلقهم . وكان ممن قتل بعض أصحابه رجل اسمه "طواف" فعزلهم أصحابهم (من الخوارج) وقالوا : قتلتم إخوانكم ! قالوا : أكرهنا ، وقد يكره الرجل على الكفر وهو مطمئن بالإيمان . وندم "طواف" وأصحابه ، فقال طواف : أما من توبة؟ فكانوا يبكون ، وعرضوا على أولياء من قتلوا الدية فأبوا ، وعرضوا عليهم القود فأبوا ، ولقى "طواف" أحد الأشخاص فقال له : أما ترى لنا من توبة ؟ فقال : ما أجد لك إلا آية فى كتاب الله عز وجل وهى قوله : ﴿**ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم**﴾[2] . فدعا "طواف" أصحابه إلى الخروج ... وكانوا سبعين رجلا ، وانتهى الأمر بقتلهم جميعا ، وعلى رأسهم "طواف".

ذكر الدرجينى[3] أن عبيد الله بن زياد سجن جماعة من المحكمة ، ثم حرض الموالى منهم على قتل العرب ، فأبى هؤلاء قائلين :"أهل ولايتنا وأهل نعمتنا" . وحينئذ دعا الوالى المذكور العرب إلى قتل أصحابهم من الموالى ، فأجابه اثنان منهم يدعى أحدهما "قريب" والثانى "زحاف" فأطلق سراحهما ، ولكنهما واجها استنكارا حادا من جانب مرداس بن حدير وأصحابه ، فبعد أن كانا من الصفوة المبجلين تبرأ هؤلاء منهما . وحينئذ حاول هذان الرجلان استعطاف مرداس وأصحابه ، فعرضا عليهم أن يدفعا دية القتلى أو

---

(١) الكامل فى التاريخ جـ٣ ص ٣٥٩ .

(٢) سورة النحل ، آية ١١٠ .

(٣) طبقات المشايخ بالمغرب ، ص ٢٣٣ .

يقتلا قصاصا وتكفيرا عما اقترفاه ، لكن هذا العرض رفض تماما . فلما ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، تأولا قوله تعالى :**﴿ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد مافتنوا ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم﴾** ، فخرجا من البصرة يعلنان الثورة على عبيد الله بن زياد ، وتمكنا من إقناع سبعين آخرين بالخروج معهما ، وأخذوا يستعرضون الناس ويسفكون دماءهم ، لكن هذه الثورة انتهت بالفشل وقتل الكثيرين منهم ، وعلى رأسهم قريب وزحاف . ويذكر المبرد[1] أن مرداس بن حدير كلما ذكرهما كان يقول : "قريب لا قربه الله من الخير ، وزحاف لا عفا الله عنه ، ركباها عشواء مظلمة" .

على أن المبرد[2] يذكر أن حركة "قريب" و "زحاف" المشار اليها حدثت على عهد زياد وليس على عهد ابنه عبيد الله ، ويؤيده فى ذلك كل من الطبرى[3] وابن الأثير[4] ، بل ويذكران - على وجه التحديد - السنة التى خرجا فيها ، وهى سنة ٥٠هـ ، ولا تشير هذه المصادر الثلاثة إلى موضوع إغرائهما من جانب أى وال أموى بالقيام بقتل إخوانهما من الخوارج ، وإنما تشير فقط إلى أنهما خرجا يستعرضان الناس ويسفكان دماءهم ، وهذا هو السبب فى أن مرداس بن حدير تبرأ منهما .

يقول الدكتور عوض خليفات[5] :"وتشير المصادر الإباضية إلى أنهما (قريب وزحاف) كانا أخوين ، بينما تذكر المصادر السنية أنهما ابنى خالة ... (كما) تشير المصادر الإباضية إلى أن حركة قريب وزحاف قد حدثت فى النصف الثانى من القرن الأول الهجرى . ولما كانا قد ثارا فى عهد ابن زياد ، وقبل ثورة أبى بلال مرداس، وكان الأخير قد ثار عام ٦١هـ ، فالراجح أنهما ثارا قبل هذا التاريخ ، وربما كانت ثورتهم فى

---

(١) الكامل فى الأدب ج ٣ ص ١٣٦ .

(٢) نفسه .

(٣) تاريخ الأمم والملوك ، ج٥ ص ٢٣٧ .

(٤) الكامل فى التاريخ ، ج٣ ص٣١٨ .

(٥) نشأة الحركة الإباضية ، ص٦٨- ٦٩ .

عام ٦٠هـ أى قبل سنة واحدة من حركة أبى بلال . أما رواية عمر بن شبه[1] التى تذكر أنهما ثارا على عهد زياد بن أبيه وفى عام ٥٠هـ "فواضح عدم صحتها".

على أن الشماخى[2] وهو مصدر إباضى ، يتفق مع المصادر السنية فى القول بأن قريب وزحاف كانا ابنى خالة ، كما يتفق مع هذه المصادر أيضا فى القول بأن حركتهما حدثت على عهد زياد وليس على عهد ابنه عبيد الله . هذا فضلا عن أن الدكتور خليفات[3] لم يستند فى حديثه عن حركة قريب وزحاف إلا على مصدر إباضى واحد ، هو طبقات المشايخ بالمغرب للدرجينى . ولذلك فإن التعبير بعبارة "وتشير المصادر الإباضية" يحتاج إلى إعادة النظر ، كما أنه من الواضح أن ماذكره الدرجينى عن حركة الرجلين المذكورين يتشابه إلى حد كبير مع حركة "طواف" المشار إليها ، تلك التى كانت على عهد عبيد الله بن زياد سنة ٥٨هـ .

وهكذا نرى أنه من المحتمل أن يكون الدرجينى خلط بين حركة قريب وزحاف وحركة طواف بن غلاق ، وذلك لتشابه أحداث الحركتين ، فظن أن الأولى حدثت على عهد عبيد الله بن زياد . وحيث أن الدرجينى لم يذكر تاريخا محددا لحركة قريب وزحاف ، بينما ذكر كل من المبرد والطبرى وابن الأثير على النحو السابق الإشارة إليه– أنها وقعت على عهد زياد ، وبالتحديد فى سنة ٥٠ هـ ، فليس ثمة ما يمنعنا من ترجيح ما أجمع عليه هؤلاء المؤرخون الثلاثة ، خاصة وأن مؤرخا رابعا ، هو خليفة بن خياط[4] يذكر أيضا أن حركة قريب وزحاف وقعت على عهد زياد وليس على عهد ابنه عبيد الله .

شدد بن زياد النفير على الخوارج بعد حركة "طواف" المشار اليها ، فألح فى

---

(١) أورد الطبرى هذه الرواية (تاريخ الأمم ، حـ٥ ص ٢٣٧) .

(٢) السير ، حـ١ ص ٥٩ – ٦٠ .

(٣) نشأة الحركة الإباضية ، ص ٦٨ – ٦٩ .

(٤) تاريخ خليفة بن خياط ، ص ٢١٩ .

طلبهم وملأ بهم سجنه ، بل وأخذ الناس بسببهم ، فحبس مرداس بن حدير وأصحابه[1] ، وذلك على الرغم من أنهم كانوا يتبرءون من كل من يستعرض الناس ويسفك دماءهم ، أمثال قريب وزحاف وطواف وغيرهم . على أن ابن زياد لم يلبث أن أطلق سراح مرداس فى الوقت الذى أمر فيه بقتل جميع أصحابه ، وكان السبب فى إطلاق سراحه هو ماقيل من أن السجان تشفع فيه لدى ابن زياد فوهبه له وخلى سبيله ، وكان هذا السجان ظئرا للوالى المذكور ، وأعجب بصلاح مرداس وحلاوة منطقه وشدة اجتهاده فى العبادة[2] . ولما سئل ابن زياد عن الحكمة فى تنكيله بمعتدلى الخوارج على هذا النحو ، أجاب بأنه يتحاشى الشر قبل وقوعه ، ويقمع النفاق قبل أن ينجم[3] .

كان من الطبيعى ألا يأمن مرداس على نفسه من ابن زياد بعد أن رآه ينكل بأصحابه ، وقد تأثرت نفسيته كثيرا بما فعله الوالى المذكور بإحدى النساء التى كانت على رأيه واسمها "البلجاء" ، وهى امرأة من بنى يربوع كانت تحرض الناس على ابن زياد وتذكر تجبره وسوء سيرته ، وكانت من المجتهدات فى العبادة ، وعلم مرداس أن ابن زياد يضمر الفتك بها ، ولذلك بادر إلى تحذيرها ونصحها بالتقية قائلا : "إن الله قد وسع على المؤمنين فى التقية فاستترى ، فإن هذا المسرف على نفسه (أى ابن زياد) ، الجبار العنيد ، قد ذكرك[4] " لكن البلجاء خشيت أن يفتك ابن زياد بمن يمتنع عن تقديم المعلومات عنها أو يساعدها على الاختفاء ، وعبرت عن ذلك لمرداس بقولها :"أخشى أن يلقى أحد بسببى مكروها" ولم يلبث ابن زياد أن وجه إليها من أحضرها بين يديه ، فقطع يديها ورجليها ورمى بها فى السوق ، فمر مرداس بالسوق ، والناس مجتمعون ، فقال : ماهذا ؟ فقالوا : البلجاء ، فعض على لحيته وقال : لهذه أطيب نفسا بالموت منك يا مرداس ؟ ماميتة أموتها أحب الى من ميتة البلجاء[5] .

---

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، جـ٣ ص ٣٦٠ .

(٢) المبرد : الكامل ى الأدب ، جـ٣ ص١٣٨ ، وابن الأثير : نفسه ، ص٣٦٠-٣٦١ .

(٣) المبرد : نفسه، والطبرى : تاريخ الأمم جـ٥ ص ٣١٣ .

(٤) ابن الأثير : نفسه .

(٥) المبرد :نفسه .

ضاق مرداس بن حدير ذرعا بما لقيه أصحابه من بطش ابن زياد ونكاله ، ولم يستبعد أن تمتد إليه يد البطش من قبل الوالى المذكور ، ولذا قرر الخروج من البصرة عله يجد مقاما أكثر أمانا وأنسب لنشر مبادئه ، وحث أصحابه على الخروج معه بقوله : "إن الإقامة على الرضا بالجور ، وإن تجريد السيف وإخافة الناس لعظيم ، ولكن نسير فى أرض الله ولا نجرد سيفا ، وإن أرادنا قوم بظلم امتنعنا منهم[١] .

استجاب لمرداس أربعون رجلا من أصحابه ، فخرج بهم حتى استقر بهم المقام فى بلدة "آسك"[٢] وفى طريقه إليها قابله صديق له ونصحه بالعودة إلى البصرة وعدم الخروج ، مخافة أن يفتك به رجال ابن زياد وأصحابه . فقال له مرداس : لا تخف فإنى لا أجرد سيفا ، ولا أخيف أحدا ، ولا أقاتل إلا من قاتلنى[٣] .

تابع مرداس وأصحابه السير حتى بلغوا بلدة "آسك" وصادفوا فى طريقهم مالا محمولا لابن زياد ، وكان فى استطاعتهم أن يستحوذوا عليه كله ، لكن مرداس بن حدير قرر ألا يأخذ منه إلا عطاءه وعطاء أصحابه ورد الباقى[٤] ، ولما استفسر أحدهم عن السبب فى ترك بقية هذا المال ، أجابه مرداس بقوله :"إنهم يقسمون هذا الفيء ، كما يقيمون الصلاة ، فلا نقاتلهم[٥] . كما كان مرداس يقول لمن يقابله : "أبلغوا من لقيكم انا لم نخرج لنفسد فى الأرض ، ولا لنروع أحدا ، ولكن هربا من الظلم ، ولسنا نقاتل إلا من يقاتلنا ، ولا نأخذ من الفيء إلا أعطياتنا"[٦] . وعلى الرغم من ذلك فإن ابن زياد لم يترك مرداسا وشأنه ، لأنه خشى أن يبث دعوته فى تلك الناحية التى نزل بها مع أصحابه ، فسير إليهم ألفى مقاتل يقودهم رجل يدعى أسلم بن زرعة . وتشير بعض

---

(١) الشماخى : السير ، جـ١ ص ٦٢ .

(٢) بلدة بنواحى الأهواز بالقرب من أرجلان (ياقوت : معجم البلدان ، ج١ ص٦١) .

(٣) المبرد : الكامل فى الأدب ، جـ٣ ، ص١٣٩ .

(٤) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، جـ٣ ص٣٦١ .

(٥) المبرد : نفسه ، ص١٣٩ - ١٤٠ .

(٦) المبرد : نفسه ، ص١٤٠ .

المصادر إلى أن نقاشا دار بين الفريقين خاطب فيه مرداس القائد الأموى المذكور بقوله : اتق الله يا أسلم، فإنا لا نريد قتالا ، ولا نحتجن فيئا ، فما الذى تريد ؟ قال : أريد أن أردكم إلى ابن زياد ، قال مرداس : إذاً يقتلنا . قال : وإن قتلكم . قال : تشركه فى دمائنا . قال : إنى أدين بأنه محق وأنكم مبطلون : فصاح به أحد أصحاب مرداس قائلا : أهو محق وهو يطيع الفجرة وهو أحدهم ، ويقتل بالظنة ، ويخص بالفىء ، ويجور فى الحكم ؟ .

ومن المحتمل أن يكون النقاش المشار إليه قد أثر فى نفسية القائد الأموى المذكور، مما حمله على العودة من حيث أتى ، تاركا جماعة مرداس وشأنها . ويذكر ابن الأثير[1] أن مرداسا وأصحابه حملوا على هذا الجيش الأموى حملة رجل واحد فهزموه . بينما يذكر المبرد[2] أن القائد الأموى المذكور انهزم بدون قتال لما حمل عليه مرداس وأصحابه حملة رجل واحد .

ويبدو أن ماذكره المبرد فى هذا الصدد هو الأرجح ، لأنه ليس من المعقول أن ينشب قتال بين هذين الطرفين دون أن تحدث إصابات بين أى منهما . كما نستبعد الاحتمال القائل بأن القائد الأموى تأثر بالنقاش المشار إليه فترك خصومه وشأنهم وعاد من حيث أتى ، لأنه لو فعل ذلك لما تورع ابن زياد عن الفتك به ، خاصة وأن الخوارج سبوا ابن زياد ووصفوه - أمام كل الجند - بأقذع الصفات . وفى هذه الحالة يكون من المرجح أن القائد الأموى المذكور لاذ بالفرار لما حمل عليه مرداس وأصحابه حملة رجل واحد ، ومما يؤيد ذلك أن الصبية فى البصرة بعد ذلك كانوا كلما رأوا هذا القائد صاحوا به ساخرين : مرداس وراءك ، حتى شكا ذلك إلى ابن زياد ، فأمر الشرطة أن يكفوا الناس عنه[3] . وفى ذلك يقول أحد شعراء الخوارج ، وهو عيسى بن فاتك ، شعرا جاء فيه :

(١) الكامل فى التاريخ ، حـ٣ ص٣٦١ .

(٢) المبرد : الكامل فى الأدب ، حـ٣ ، ص ١٤٠ .

(٣) المبرد : نفسه ، وابن الأثير ، نفسه .

أألفا مؤمن فيـــما زعمتـــم	ويهزمهم بآسك أربعــونــا
كذبتم ليس ذلك كما زعمتم	ولكن الخوارج مـؤمنــونــا
هم الفئة القليلة قد علمتــــم[1]	على الفئة الكثيرة ينصرونــا

عول ابن زياد على تسيير جيش آخر قوامه ثلاثة آلاف رجل إلى مرداس وأصحابه، ووقع اختياره على عباد بن علقمة المازنى ، المشهور بعباد بن أخضر ، ليكـون قـائدا لهـذا الجيش ، وقد تمكن عباد من الفتك بمرداس وأصحابه عن آخرهم وذلك فـى عـام ٦١ هـ وبذلك أسدل الستار على حركة هذا الرجل الذى يبجله جميع الخوارج ، المتطرفون منهم والمعتدلون .

ويفهم مما ورد فى بعض المصادر أن المعركة التى قتل فيها أبو بلال مرداس وأصحابه لم تقع أيضا فى بلدة آسك ، اذ يشير المبرد[2] إلى أن أبا بلال تحرك مع أصحابه إلى بلدة "دار ابجرد" من أرض فارس ، وأن الجيش الأموى بقيادة عباد لحق بهم هناك ، بينما يشير الطبرى إلى أن عبادا لحق أبا بلال وأصحابه بتوج (وهى مدينة شديدة الحر تقع بأرض فارس)[3] .

أثار الفتك بمرداس وأصحابه على النحو المشار إليه حنق الخوارج جميعهم ، فانـبرى شعراؤهم يتسابقون فى رثائهم والإشادة بإيمانهم وشجاعتهم . وفـى ذلـك يقـول عيسـى ابن فاتك[4]

مضوا قتلا وتمزيقا وصلــبا	تحوم عليهـــم طير وقــــو ع
إذا ما الليل أظلم كابـــدوه	فيسفر عنهم وهم ركــــو ع

---

(١) ورد شطر هذا البيت عند المبرد نفسه،(ص١٤١) هكذا : هم الفئة القليلة غـير شـك . ومـا أثبتنـاه فى المتن منقول من معجم البلدان لياقوت حـ١ ص٥٨ .

(٢) المبرد : نفسه ، ص ٢٥٣ .

(٣) صفى الدين البغدادى : مراصد الاطلاع على الأمكنة والبقاع حـ١ ص ٢٨٠ .

(٤) الطبرى: تاريخ الأمم ، حـ٥ ص٣١٤ .

أطار الخوف نومهم فقاموا وأهل الأمن فى الدنيا هجوع

وقال عمران بن حطان :

ياعين بكى لمرداس ومصرعه يارب مرداس اجعلنى كمرداس
انكرت بعدك من كنت أعرفه ما الناس بعدك يا مرداس بالناس

وقد صمم محبو مرداس على الأخذ بثأره ، رغم قوة قبضة ابن زياد وشدة بطشه ، وتمكن بعضهم بالفعل من الترصد لقائد الجيش الذى فتك به وبأصحابه ، وهو عباد بن علقمة المازنى ، فقتلوه غيلة . فلما بلغ ابن زياد نبأ مقتله وهو بالكوفة وقتذاك ، بعث إلى نائبه بالبصرة عبيد الله بن أبى بكرة ألا يدع أحدا على رأى الخوارج إلا حبسه ، وأن يجد فى طلب من يتغيب منهم . فجعل عبيد الله يتتبعهم فيأخذهم ، فلما قدم ابن زياد إلى البصرة أخذ من فى السجن منهم فقتلهم جميعا ، وكان من بينهم عروة بن حدير التميمى أخو مرداس ، فحاوره قبل أن يقتله قائلا : جهزت أخاك على ؟ فقال : والله لقد كنت به ضنينا ، وكان لى عزا ، ولقد أردت له ما أريده لنفسى ، فعزم عزما فمضى عليه ، وما أحب لنفسى إلا المقام وترك الخروج . قال له أفأنت على رأيه ؟ قال كلنا نعبد ربا واحدا . قال : أما لأمثلن بك . قال : اختر لنفسك من القصاص ماشئت . فقطعوا يديه ورجليه ، ثم قال : كيف ترى ؟ قال : أفسدت على دنياى وأفسدت عليك آخرتك . ثم أمر به فقتل ثم صلب على باب داره[1] .

ذكر الطبرى[2] أن مقتل عروة بن أدية تم فى سنة ٥٨ هـ ، أى قبل مقتل أخيه مرداس ، وأن السبب فى قتله هو أن عبيد الله بن زياد خرج فى رهان له ، فلما جلس ينتظر الخيل اجتمع الناس وفيهم عروة ، فأقبل على ابن زياد فقال : خمس كن فى الأمم قبلنا ، فقد صرن فينا : (أتبنون بكل ريع آية تعبثون .وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون .

(١) المبرد : الكامل فى الأدب ، جـ٣ ص ١٤٥ .

(٢) تاريخ الأمم ، جـ٥ ، ص٢١٢ - ٣١٣ .

وإذا بطشتم بطشتم جبارين) ، وخصلتين أخريين لم يذكرهما الراوى . فلما قال عروة ذلك ظن ابن زياد انه لم يجترىء على ذلك إلا لأن معه جماعة من أصحابه ، فقام من فوره منصرفا تاركا رهانه ، فقيل لعروة : ما صنعت ! والله ليقتلنك : فهرب عروة إلى الكوفة وتوارى بها ، لكن رجال ابن زياد تمكنوا من القبض عليه وأتوا به إلى الوالى المذكور ، فأمر به فقطعت يداه ورجلاه ، ثم دعا به فقال : كيف ترى ؟ قال : أرى أنك أفسدت دنياى وأفسدت آخرتك ، فقتله ، وأرسل إلى ابنته فقتلها .

ومن المحتمل أن يكون ماذكره الطبرى بالنسبة لواقعة مقتل عروة هو الأرجح ، بدليل أن عروة لم يكن بصحبة أخيه مرداس حين خرج إلى الأهواز ثائرا فى سنة ٦١ هـ على النحو المشار إليه[١] .

وعلى الرغم من اعتزاز الخوارج كلهم بأبى بلال مرداس حتى أن كل فرقة تعتبره من أئمتها[٢] ، إلا أن الإباضية - فيما يبدو - هم الذين تمسكوا بمبادئه ، واتخذوا من مسلكه نبراسا ينسجون على منواله . ويوضح الرقيشى[٣] هذه المبادىء بقوله : انه لم يكن يدعى هجرة ولا ينتحلها ، ولا يخيف آمنا ، ولا يستحل استعراضا ، ولا يغنم

---

(١) يقول محمد قرقش (عمان والحركة الاباضية ، ص٨٦ حاشية ٦٢) : يذكر الطبرى ،ج٥ ص٣١٢، وابن عبد ربه : العقد الفريد ، حـ١ ص ١٥٩ أن عروة بن أدية التميمى قد قتل قبل خروج أبى بلال إلى آسك . بينما تذكر الروايات الإباضية أن ذلك تم بعد مقتل أبى بلال (الشماخى : السير، حـ١ ، ص٦٦ ، والبغدادى : الفرق بين الفرق ، وخليفات : نشأة الحركة الإباضية ص ٧١ ، ومهدى طالب : الحركة الاباضية ، ص٦٦) على أنه يجب أن نلتفت إلى أن لروايات الإباضية لم تنفرد بالإشارة إلى أن مقتل عروة تم بعد مقتل أخيه ، لأن المبرد أشار إلى ذلك أيضا على النحو الوارد فى المتن . كما أن كلا من البغدادى ، وخليفات ، ومهدى طالب . ليسوا من الإباضية .

(٢) الرقيشى : مصباح الظلام ، ورقة ٢١ أ .

(٣) نفسه .

أموالا ، ولا يسبى ذرية ، ولا ينزل قومه (المسلمين من غير الإباضية) منزلة أهل الأوثان .

كما أنه من الملاحظ أن أبا بلال مرداس حين دعا أصحابه للخروج ضد ابـن زيـاد واجابه اربعون منهم ، حرص هؤلاء على أن يولوا أمرهم حريث بـن حجـل لكنـه أبـى ، فولوا أمرهم مرداسا[1] ، ولما بويع مرداس على هذا النحو لم يجبر أحدا على الخروج معه، كما أن هؤلاء لما قرروا الخروج لم يلجأ أحد منهم إلى التقية . ومن الملاحـظ أن الإباضيـة التزموا بكل هذه المبادىء فيما بعد ، ويتضح ذلك فيمـا يتعلـق بنـوع مـن أنـواع الإمامـة عندهم ، وهى "إمامة الشراء" التى تقام عادة فى مرحلة الكتمان ، عندمـا يقـرر الإباضيـة "الشراء" أى الثورة ضد حكـم الجبـابرة مـن الحكـام مـن وجهـة نظرهـم ، فهـم حينـذاك يختارون من بينهم إماما لهم يقودهم فى الحرب ويدير أمرهم فيبايعونه على القتال وجهـاد الأعداء حتى الموت أو النصر . وكان من شروط الشراء عند الإباضية ما يأتى[2] :

١- أن لا يقل عدد الشراة عن أربعين رجلا .

٢- أن ينتخب الشراة إمامـا مـن بينهـم تكـون سـلطته نـافذة عليهـم دون غـيرهم ماداموا فى مرحلة الثورة .

٣- لا يجوز للشراة أن يستعملوا التقية الدينية مهما كـانت الظـروف ولأى سـبب كان .

٤- أن لا يجبروا أحدا على الالتحاق بهم .

٥- أن لا يروعوا أحدا من المسلمين ، ولا يقاتلونه إلا إذا بدأ هو بعدوان .

٦- لا يجوز للشراة أن يرجعوا عن هذا الأمر إلا اذا نجحوا وهزموا عدوهم .

---

(١) المبرد : الكامل فى الأدب ، جـ٣ ، ص١٣٩ .

(٢) سعيد عاشور وزميله : عمان والحضارة الإسلامية ، ص ٩٧ .

٢- إنقسام محكمة البصرة بعد أبي بلال وظهور الإباضية

اجتمع أعيان محكمة البصرة ممن كانوا على رأى مرداس بن حدير فى سنة ٦٤ هـ، وعلى رأسهم نافع بن الأزرق وعبد الله بن إباض وعبدالله بن صفار ونجدة بن عامر الحنفى وغيرهم ، فتذكروا بطش ابن زياد وما حل بهم من هلاك ، فقال لهم نافع ابن الأزرق : إن الله قد أنزل عليكم الكتاب ، وفرض عليكم الجهاد ، واحتج عليكم بالبيان، وقد جرد فيكم أهل الظلم السيوف ، وهذا من قد ثار بمكة ، فاخرجوا بنا نأت البيت ونلق هذا الرجل ، فإن يكن على رأينا جاهدنا معه العدو ، وإن يكن على غير رأينا دافعنا عن البيت ما استطعنا ، ونظرنا بعد ذلك فى أمورنا . فخرجوا حتى قدموا على عبدالله ابن الزبير ، فسر بمقدمهم ونبأهم أنه على رأيهم وأعطاهم الرضا من غير توقف ولا تفتيش . فقاتلوا معه حتى مات يزيد بن معاوية وانصرف الجيش الشامى عن مكة[١] .

على أن هؤلاء المحكمة عادوا فلاموا أنفسهم لمناصرة عبدالله بن الزبير دون التأكد من موافقته إياهم فى التبرؤ من عثمان بن عفان ، خاصة وأنه كان يقاتل عليا فى معركة الجمل مع أبيه الزبير وطلحة بن عبيد الله تحت شعار "يا لثارات عثمان" . ولذلك مشى هؤلاء إلى عبدالله فقالوا له : "إنا قد قاتلنا معك و لم نفتشك عن رأيك حتى نعلم أمنا أم من عدونا؟ خبرنا ما مقالتك فى عثمان؟"[٢] . وقد حرص هؤلاء المحكمة على أن يذكروا ابن الزبير بمساوىء عثمان من وجهة نظرهم ، وطالبوه بالبراءة منه ومن علىّ بن أبى طالب وتكفير أبيه الزبير وطلحة . فرد عليهم ابن الزبير ، كما يحكى المبرد[٣] ، مذكرا إياهم بأن الله تعالى أمر وله العزة والقدرة فى مخاطبة أكفر الكافرين وأعتى العتاة - بأرأف مما قاله المحكمة له ، إذ قال تعالى لموسى ولأخيه لما أرسلهما إلى فرعون :﴿**فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى**﴾[٤] ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لاتؤذوا

---

(١) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، جـ٥ وص٥٦٤ .

(٢) الطبرى : نفسه .

(٣) الكامل فى الأدب ، جـ٣ ، ص١٥٥ - ١٥٦ .

(٤) سورة طه ، آية ٤٤ .

الأحياء بسبب الموتى ، فنهى عن سبّ أبى جهل من أجل عكرمة ابنه ، كما قال لهم ابن الزبير : قد كان يغنيكم عن هذا القول الذى سميتم فيه طلحة وأبى أن تقولوا : نبرأ من الظالمين ، فإن كانا منهم دخلا فى غمار الناس ، وإن لم يكونا منهم تحفظونى سبّ أبى وصاحبه ، وأنتم تعلمون أن الله جل وعزّ قال للمؤمن فى أبويه : **﴿وإن جاهداك على أن تشرك بى ماليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا﴾**(١) ، وقال جل ثناؤه : **﴿وقولوا للناس حسنا﴾**(٢) كما قال ابن الزبير فى رده على المحكمة : وقد سمعت الذى ذكرتموه عن عثمان بن عفان - رحمه الله - وإنى لا أعلم مكان أحد من خلق الله اليوم أعلم بابن عفان وأمره منى ، إذ كنت معه حيث نقم القوم عليه واستعتبوه، فلم يدع شيئا استعتبه القوم فيه إلا أعتبهم فيه ، ثم إنهم رجعوا إليه بكتاب له يزعمون أنه كتبه فيهم يأمر فيه بقتلهم ، فقال لهم : ما كتبته فإن شئتم فهاتوا بينتكم ، فإن لم تكن حلفت لكم ، فوالله ما جاءوه ببينة ، ولا استحلفوه ، وإنما وثبوا عليه فقتلوه، وكل ماعبتم به عليه ليس كذلك ، بل هو لكل خير أهل ، وأنا أشهدكم ومن حضر أنى ولى لابن عفان فى الدنيا والآخرة ، وولى أوليائه وعدو أعدائه . فقال له المحكمة : برىء الله منك ياعدو الله . فرد عليهم بقوله : برىء الله منكم يا أعداء الله(٣) .

غادر المحكمة مكة على أثر خلافهم المذكور مع ابن الزبير ، فذهبت طائفة منهم إلى اليمامة على رأسها أبو طالوت ومعه من أعيان المحكمة : عطية بن الأسود اليشكرى ، وعبد الله بن ثور الملقب بأبى فديك ، وقد انتخبت هذه الطائفة نجدة بن عامر الحنفى إماما لها فيما بعد ، وذلك بعد مسيره إليها على أثر خلافه فى الرأى مع نافع بن الأزرق. أما أغلب المحكمة الآخرين فقد عادوا إلى البصرة ، وعلى رأسهم ابن الأزرق وعبد الله ابن إباض وعبد الله بن صفار ونجدة بن عامر الحنفى وأبو بيهس . وتختلف الروايات فى

---

(١) سورة لقمان ، آية ١٥ .

(٢) سورة البقرة آية ٨٣ .

(٣) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، حـ٣ ، ص ٥٦٥ .

بيان مصير هؤلاء عقب قفولهم إلى البصرة ، فيذكر البلاذرى[1] : أن ابن زياد تلقف هؤلاء جميعا وأودعهم السجن ، بينما يقول المبرد[2] : "فلما صاروا إلى البصرة نظروا فى أمورهم فأمروا عليهم نافعا . ويقول ابن الأثير[3] : فأما نافع وأصحابه فإنهم قدموا البصرة وهم على رأى أبى بلال ، واجتمعوا وتذاكروا فضيلة الجهاد ، فخرج نافع على رأس ثلثمائة ، وذلك عند وثوب الناس بابن زياد وكسر الخوارج باب السجن . وعلى أية حال ، فإن الظروف التى عاد فيها هؤلاء إلى البصرة سنة ٦٤ هـ كانت تتسم بالقلق والاضطراب ، بسبب موت يزيد بن معاوية واختلاف أهل البصرة حول موقفهم من ابن زياد بين مبايع له ومعارض ، لدرجة أن القتال نشب بين الأزد وربيعة وبنى تميم وقيس ، وفى هذه الظروف تمكن المحكمة من كسر أبواب السجون والخروج منها ، ويقال إن عدد المسجونين منهم وقتذاك بلغ أربعمائة رجل[4]، وإنهم تمكنوا من إفساد البيعة لابن زياد ، ومشوا فى الناس يدعون إلى محاربة السلطان ويظهرون ما هم عليه ، حتى اضطرب على عبيدالله بن زياد أمره واضطر إلى الهرب .

انتهز محكمة البصرة فرصة اقتتال أهل البصرة بعضهم مع بعض على النحو المذكور، فاجتمع منهم ثلاثمائة وبايعوا نافع بن الأزرق على الخروج إلى الأهواز وإعلان الثورة ، فمضى بهم نافع إلى هناك فى سنة أربع وستين ، و لم يلبثوا أن طردوا عمال بنى أمية عن هذه الجهة وقاموا هم بجباية الفيء من الأهلين ، ثم لحق بهم كثير ممن لم يخرج معهم إلى الأهواز من محكمة البصرة ، وذلك لما تعرضوا للضغط من جانب أهلها ، بعد أن تصالحوا فيما بينهم وتفرغوا لمواجهة المحكمة الذين كانوا بين ظهرانيهم[5] .

فضلت فئة قليلة من محكمة البصرة القعود وعدم الخروج إلى الأهواز مع ابن

---

(١) أنساب الأشراف ، جـ٤ ق ٢ ، ص ١٠٢ .

(٢) الكامل فى الأدب ، جـ٣ ص١٥٨ .

(٣) الكامل فى التاريخ ، جـ٣ ، ص٤٩١ .

(٤) المبرد : نفسه ، الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، جـ٣ ص٥٦٦ .

(٥) المبرد : نفسه ، ص ١٥٩ .

الأزرق ، ومن هؤلاء عبد الله بن إباض وعبد الله بن صفار ورجال معهما على رأيهما . ونظر نافع فرأى أن ولاية من تخلف عن الخروج من الذين قعدوا منهم ، لاتحل له ، وإن من تخلف عنه لا نجاة له ، فأخبر أصحابه بذلك ، ودعاهم إلى البراءة منهم وأنهم لا يحل ميراثهم ، وأطلق عليهم اسم "القعدة" تحقيرا لهم من وجهة نظره ، كما تخلى ابن الأزرق عن نهج مرداس بن حدير ، فرأى استعراض المخالفين وقتل أطفالهم ، وأن جميع المسلمين كفار مثل كفار العرب لايقبل منهم إلا الإسلام أو القتل . وقد أجابه على رأيه هذا كثير من أصحابه بينما فارقه بعضهم ، وممن فارقه نجده بن عامر الحنفى الذى سار إلى اليمامة وأطاعه الخوارج هناك ، ونصبوه إماما لهم بدلا من أبى طالوت[1] . وقد أورد المبرد[2] نصّ كتابين متبادلين بين نجدة بن عامر ونافع بن الأزرق ، أحدهما بعث به إلى نافع بعد أن افترق عنه وسار إلى اليمامة ، يعترض فيه على تكفير نافع للقعدة وقتله أطفال المشركين ونسائهم واستحلاله الأمانات . أما الكتاب الثانى فقد ردّ به نافع عليه مدافعا عن وجهة نظره .

كذلك كتب نافع بن الأزرق إلى من سماهم بالقعدة فى سنة ٦٥ هـ يقول : "بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد ، فإن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ، والله إنكم لتعلمون أن الشريعة واحدة ، ففيم المقام بين أظهر الكفار ، ترون الظلم ليلا ونهارا ، وقد ندبكم الله إلى الجهاد فقال : وقاتلوا المشركين كافة ، ولم يجعل لكم إلى التخلف عذرا فى حال من الأحوال ، فقال : انفروا خفافا وثقالا . وإنما عذر الضعفاء والمرضى والذين لايجدون ماينفقون ، ومن كانت إقامته لعلّة . ثم فضل عليهم مع ذلك المجاهدين ، فقال : لايستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله ، فلا تغتروا ولاتطمئنوا إلى الدنيا ... فاتقوا الله وتزودوا فإن خير الزاد التقوى ، والسلام على من اتبع الهدى"[3] .

---

(١) المبرد : الكامل فى الأدب ، ج٣ وص ١٦٠ ، وابن الأثير : الكامل فى التاريخ،ج٣ ، ص ٤٩١-٤٩٢ .

(٢) المبرد : نفسه ، ص ١٦٠- ١٦١ .

(٣) المبرد :نفسه ، ص ١٦٣ .

أدى الكتاب المذكور من ابن الأزرق إلى ظهور الانقسام بين زعماء القعدة بسبب تباين موقفهم منه . فيذكر الطبرى[1] أن ابن الأزرق بعث بكتابه هذا إلى عبد الله ابن صفار وعبد الله بن إباض ومن قبلهما من الناس . "فأتيا به ، فقرأه عبد الله بن صفار ، فأخذه فوضعه خلفه ، فلم يقرأه على الناس خشية أن يتفرقوا ويختلفوا . فقال له عبد الله ابن إباض : مالك لله أبوك ! أى شيئ أصبت ! أأن قد أصيب إخواننا ، وأسر بعضهم ! فدفع الكتاب إليه ، فقرأه فقال : قاتله الله ! ، أى رأى رأى ! صدق نافع بن الأزرق ، لو كان القوم مشركين كان أصوب الناس رأيا وحكما فيما يشير به ، وكانت سيرته كسيرة النبى صلى الله عليه وسلم فى المشركين ، ولكنه قد كذب وكذّبنا فيما يقول ، إن القوم كفار بالنعم والأحكام ، وهم برآء من الشرك ، ولاتحل لنا إلا دماءهم وماسوى ذلك من أموالهم فهو علينا حرام . فقال ابن صفار : برئ الله منك ، فقد قصرت ، وبرئ الله من ابن الأزرق فقد غلا ، وبرئ الله منكما جميعا . وقال الآخر : فبرئ الله منك ومنه" .

يتفق المبرد مع الطبرى فيما أوضحاه من أن كتاب ابن الأزرق أدى إلى انقسام زعماء القعدة بسبب تباين موقفهم منه ، فيقول المبرد[2] : "فحين ورد عليهم (كتاب ابن الأزرق) كان فى القوم يومئذ أبو بيهس هيصم بن جابر الضّبعى ، وعبد الله بن إباض المرّى ، فأقبل أبو بيهس على ابن إباض فقال : إن نافعا غلا فكفر ، وإنك قصرت فكفرت- تزعم أن من خالفنا ليس بمشرك ، وإنما كفار النعم لتمسكهم بالكتاب وإقرارهم بالرسول ، وتزعم أن مناكحهم ومواريثهم والإقامة فيهم حلُ طلق . وأنا أقول : إن أعداءنا كأعداء رسول الله صلى الله عليه وسلم تحل لنا الإقامة فيهم كما فعل المسلمون فى إقامتهم بمكة ، وأحكام المشركين تجرى فيهم ، وأزعم أن مناكحهم ومواريثهم لاتجوز لأنهم منافقون يظهرون الإسلام ، وإن حكمهم عند الله حكم المشركين ... فالدار دار كفر ، والاستعراض فيها جائز ، وإن أصيب من الأطفال فلا حرج . فصاروا (أى الخوارج) فى هذا الوقت على ثلاثة أقاويل : قول نافع فى البراءة

---

(١) تاريخ الأمم والملوك ، ج٥ ،ص ٥٦٨ .

(٢) المبرد : الكامل فى الأدب ،ج٣ ص١٦٢ .

والاستعراض واستحلال الأمانة وقتل الأطفال : وقول أبى بيهس الـذى ذكرنـاه ، وقـول عبد الله بن إباض وهو أقرب الأقاويل إلى السنة من أقاويل الضلال" .

يقول عوض خليفات[1] : ولعل هذا الإنقسام الـذى حـدث حـوالى سـنة ٦٤ هـ هوالذى حدا ببعض المؤلفين إلى الاعتقاد بأن الخوارج قد انقسموا إلى أربـع فـرق ، وهـى الأزارقة والنجدية والصفرية والإباضية . والحقيقة فعلا هو انقسام نهائى بين المتطرفين مـن الخوارج ، وبين القعدة الذين آثروا القعود وحبّذوا الدعوة إلى مذهبهم بالطرق السـلمية . أما القعدة فلم ينقسموا إلى إباضية وصفرية إلا فى وقت لاحق ، وذلك لما أطلق الحجـاج سراح زعيم القعدة من سجنه وقتذاك ، وهو عمران بن حطان ، فكانت هذه الخطوة مـن جانبه منطلقا لتحول خطير فى تاريخ حركـه الخـوارج القعـدة ، لأن موقـف عمـران مـن الحجاج بعد إطلاق سراحه أدى إلى جدل عنيف ونقاش حاد بين جماعة القعدة ،إذ تذكـر المصادر الإباضية أن أصحاب عمران قد اجتمعوا إليه بعد خروجه من الحبس فقالوا : "إنما أطلقك الله لما رأى لنا من مصلحة فى رجوعك إلينا ، فهلم إلى محاربة الحجـاج . فقـال : هيهات! غلّ يدا مطلقها ، واسترق رقبة معتقهـا ، والله لاحاربتُه أبـدا" . وقـد أدى هـذا الموقف من قبل عمران نحو الحجاج إلى انقسام فى الرأى عميق بين أصحـاب عمـران مـن القعدة، فاختلفوا حول الخطوة التالية الواجب اتخاذها إزاء التطورات التـى حدثـت نتيجـة لسياسة الحجاج إزاءهم ولوقف عمران من هذا الوالى . وانتهى الجدل والنقاش بينهـم إلى انقسام القعدة إلى فرقتين : الصفرية وكانت ترى الخروج والثورة ولكنها لاتكفر من قعـد كما فعل الأزارقة من قبل ، والإباضية وهى التى آثرت الاستمرار فى القعـود حتـى تحـين الفرصة المناسبة للانقضاض على الحكم القائم وتأسيس الإمامة طبقا لمبادئهم . أما عمـران نفسه فيبدو أنه استاء من النتيجة التى انتهى إليها الجدل بين جماعتـه فقـرر تـرك البصـرة ، وأخذ يتنقل بين أحياء العرب فى العراق والشام وعمان منتحلا أسماء مختلفة ، ومنتسبا فى كل مرة نسبا جديدا يقربه من القوم الذين استضافوه ، واسـتقر أخـيرا فـى عمـان حيـث

---

(١) نشأة الحركة الإباضية ، ص ٧١- ٧٤ .

وجد أهلها يعظمون أبا بلال مرداس ودعوته ، فأظهر أمره بينهم ، وبقى هناك حتى مات .

لكن الملاحظ أنه ليس ثمة خلاف بين ماأورده كل من المبردوالطبرى حول تحديد التاريخ الذى نشأت فيه كل من فرقة الأزارقة والنجدات والإباضية ، ألا وهو سنة ٦٥هـ . ففى هذا العام تخلى ابن الأزرق عن نهج مرداس بن حدير وأعلن عن آرائه المتطرفة السابق الإشارة إليها . فأجابه على ذلك كثير من أصحابه الذين سموا بالأزارقة ، بينما فارقة بعضهم ، وممن فارقه نجدة بن عامر الحنفى الذى سار إلى اليمامة حيث نصبه الخوارج هناك إماما لهم وعرف هؤلاء بالنجدات ، كما أرسل نافع بن الأزرق فى العام المذكور كتابا إلى أعيان القعدة بالبصره ، أدى إلى انقسامهم إلى إباضية وبيهسيه طبقا لرواية المبرد ، أو إلى إباضية وصفرية طبقا لرواية الطبرى . ومعنى هذا أنه لاخلاف بين المؤرخين المذكورين من حيث أن الإباضية نشأت سنة ٦٥ هـ . لكن الخلاف بينهما فقط يدور حول تحديد اسم أحد أعيان القعدة بالبصرة الذى اطلع على كتاب ابن الأزرق المشار إليه فتبرأ منه واتهمه بالغلو ، كما تبرأ من عبد الله بن إباض فى نفس الوقت واتهمه بالقصور لما استمع لرأيه فى الكتاب المذكور ، فنجد اسمه عند المبرد هو أبو بيهس الذى تنسب إليه البيهسية ، بينما اسمه طبقا لروايه الطبرى ـ على النحو السابق ذكره ـ هو عبد الله ابن صفار . ولو صحت هذه الرواية لكان معنى هذا أن الصفرية نشأت أيضا فى نة ٦٥ هـ ، ولكننا لانطمئن إلىصحة هذا التاريخ بالنسبة لنشأة الصفرية ، لأن الكثيرين من كتاب الفرق[1] لاينسبون الفرقة لابن صفار وإنما إلى زياد بن الأصفر ، كما ينسبها بعض المؤرخين[2] إلى شخص يدعى النعمان بن صفر ، وهؤلاء الأشخاص الثلاثة (ابن صفار وابن الأصفر ، وابن صفر) يحيط بهم جميعا الغموض[3] . هذا فضلا عن أن أصل

(١) البغدادى : الفرق بين الفرق ، ص٧٠ والشهرستانى : الملل والنحل ، ص١٠٢ والخوارزمى : مفاتيح العلوم ، ص ٢٥ .

(٢) المقريزى : الخطط ، ج٢ ، ص ٢٥٤ .

(٣) دائرة المعارف الإسلامية ، مجلد ١٤ ، ص ٢٢٩ مادة "الصفرية" .

الصفرية واشتقاقها ربما لايرجع إلى اسم أحد الأشخاص بالمرة ، فيقول المبرد[1] : قال قوم إنما سموّا بصفرةٍ عَلَتْهم ، لأنهم أناس نهكتهم العبادة فاصفرت وجوههم ، وتصديق ذلك قول عاصم الليثى ، وكان على رأى الخوارج فتركه وصار من المرجئة .

فارقت نجدة والذين تزرقوا	وابن الزبير وشيعة الكذاب[2]
والصفر الآذان الذين تخيروا	دينا بلا ثقة ولاكتاب

أما بالنسبة لأبىبيهس فلا خلاف على نسبة البيهسية إليه ، كما أنه شخصية تاريخية غير غامضة مثل أولئك الأشخاص الذين ينسب البعض إليهم الصفرية ، فمن المعلوم أن أبا بيهس لجأ إلى المدينة فرارا من اضطهاد الحجاج ، لكن عاملها عثمان بن حيان سجنه ثم قتله ، وذلك فى عام ٩٤ هـ[3] .

لذلك نميل إلى ترجيح ماأورده المبرد من أن الشخص الذى تبرأ من كل من ابن الأزرق وابن إباض على أثر ورود كتاب ابن الأزرق إلى القعدة بالبصرة سنة ٦٥هـ هو أبو بيهس وليس عبد الله بن صفار . ومما يؤيد ذلك قول المؤرخ الإباضى الدرجينى[4] يصف عبد الله بن إباض : "وقلى (أبغض) مااعتقده ابن الأزرق فى المحمدية (المسلمين) ، وعدل عن طريقى البيهسية والنجدية ، وسلك محجة العدل ، وكان قدوة لأهل الفضل" . فلو كان ابن صفار هو الذى تبرأ من ابن إباض لاستبدل الدرجينى كلمة "البيهسية" فى قوله المذكور بكلمة "الصفرية" ، ولكن هذه الفرقة - على مايبدو - لم تكن قد نشأت بعد، لأن الصفرية كانوا فى البداية يقولون بقول ابن إباض[5] ، ثم تمايزوا عن الإباضية شيئا فشيئا حتى صاروا فرقة قائمة بذاتها ، ولانستطيع تحديد الوقت الذى حدث فيه ذلك ، لأن المصادر لاتسعفنا فى هذا الصدد .

---

(١) الكامل فى الأدب ، ج٣ ، ص ١٥٣ ، ١٦٣ .

(٢) المقصود به المختار بن أبى عبيد الثقفى .

(٣) الطبرى : تاريخ الأمم ، ج٦ ص ٤٨٥ .

(٤) طبقات المشايخ بالمغرب ، ج٢ ،ص ٢٤٤ .

(٥) المبرد : نفسه ، ج٣ ، ص١٦٣ .

أما بالنسبة لما يراه خليفات من أن القعدة انقسموا إلى إباضية وصفرية فى أثناء ولاية الحجاج بن يوسف الثقفى على العراق (٧٥ - ٩٥ هـ) على أثر إطلاقه سراح عمران بن حطان والجدل الذى ثار بين القعدة بسبب موقف عمران من الوالى المذكور ، فإن جميع المصادر السنية التى تيسر لنا الاطلاع عليها تنفى مسألة وقوع عمران فى قبضة الحجاج . فيقول الأصبهانى[1] : "وكان (عمران) من القعدة ... وكان أصله من البصرة، فلما اشتهر بهذا المذهب طلبه الحجاج ، فهرب إلىالشام ، وطلبه عبد الملك فهرب إلى عمان ، وكان يتنقل بها إلى أن مات فى تواريه" . ويذكر المبرد[2] أن عمران ابن حطان كان رأس القعدة من الصفرية وخطيبهم وشاعرهم ، وكان من حديثه أنه لما أطرده الحجاج كان يتنقل فى القبائل ، فكان إذا نزل فى حيّ انتسب نسبا يقربه منه ؛ ثم خرج حتى نزل بروح بن زنباع وزير عبد الملك بن مروان ، فانتمى له من الأزد...فخرج من عنده وخلف له رقعة فيها أبيات ، ونزل بزفر بن الحارث الكلابى فانتسب له أوزاعيا، ثم ارتحل حتى نزل بعمان ، فوجدهم يعظمون أمر أبى بلال ويظهرونه ، فنزل فيهم وأظهر أمره ، فبلغ ذلك الحجاج ، فكتب فيه إلى عمان ، فهرب ، فنزل بقوم من الأزد ، فلم يزل فيهم حتى مات" . وينفرد الدرجينى[3] ، وهو مؤرخ إباضى ، بذكر قصة الحجاج مع عمران بن حطان على وجهين مختلفين : الوجه الأول يتمثل فيما نقله عن المبرد من حيث مطاردة الحجاج لعمران ، واضطراره إلى التنقل فى البلاد متخفيا إلى أن انتهى به المطاف بالإقامة فى عمان حيث توفى . أما الوجه الثانى للقصة عنده فيتمثل فى قوله : "لما أوتى الحجاج بعمران بن حطان أسيرا ، قال ياحرسى : اضرب عنق ابن الزانية. فقال عمران : بئس ماأدبك به أهلك يا حجاج ، أبعد الموت منزلة أصانعك عليها؟ ماكان يؤمنك أن ألقاك بمثلها ؟ فاستحى الحجاج ، فأطلقه . وذكر أن أصحابه (عمران) اجتمعوا إليه فقالوا : إنما أطلقك الله لما رأى فى رجوعك إلينا ، فهلم إلى محاربة الحجاج فقال : هيهات ! غلّ يداً مطلقها ، واسترق رقبة معتقها ، والله لاحاربته أبدا ،

---

(١) الأغانى ، ج١٦ ،ص ١٤٦ .

(٢) الكامل فى الأدب ، ج٣ ، ص ٨٨ - ٩٢ .

(٣) طبقات المشايخ بالمغرب ، ج٢ ، ص ٢٢٧ - ٢٣٢ .

فجعل يتنقل فى الأحياء متخفيا كما تقدم (أى كما ورد فى القصة على النحو الأول المنقول عن المبرد)" .

وعلى الرغم من أن الدرجينى لم يرجح أحد الوجهين المذكوريين الذين أوردهما لقصة الحجاج مع عمران ، إلا أن عوض خليفات اعتمد الوجه الثانى فقط ، واستند عليه فى القول بتمايز القعدة إلى إباضية وصفرية على عهد الحجاج ، بافتراض أن الجدل ثار بين القعدة نتيجة لموقف عمران ، بعد إطلاق سراحه ، من هذا الوالى على النحو المشار إليه . ومن الملاحظ أن خليفات لم يذكر الأسباب التى حدت به إلى ترجيح الوجه الثانى الذى أورده الدرجينى لقصة الحجاج مع عمران ، علما بأنه يتشكك فى بعض ماجاء به بدليل ماقاله من أن الحجاج أطلق سراح عمران ربما بإيعاز من عبد الملك بن مروان ، فى محاولة لكسب ود القعدة والتفرغ لمحاربة الخوارج المتطرفين كالأزارقة والنجدية[1] ، مع أن هذا القول يتعارض مع ماأورده الدرجيينى من أن الحجاج أطلق سراحه بسبب حسن تأدبه فى الرد عليه رغم أنه (أى الحجاج) سبّة بفحش القول . ويبدو أن الدرجينى رغب فى تقريظ عمران باعتباره أحد زعماء الشراة الأوائل ، فساق حكاية وقوعه فى أسر الحجاج الذى واجهه بفحش القول ، فبادله عمران بعبارات ومواقف تدل على رباطة جأش وحلاوة لسان وحسن وفاء .

كما أنه من الملاحظ أن ما أورده الدرجينى بشأن حبس عمران يتعارض مع ماجاء فى المصادر السنية ، علما بأن ماأشار إليه خليفات[2] من أن المبرد أورد مايفيد حبسه لايتفق مع ما أورده المؤرخ المذكور فى هذا الصدد . ونفس الأمر ينطبق على الشماخى -المؤرخ الإباضى- الذى لم يشر بتاتا إلى حبس عمران ، بل نقل قصته مع الحجاج عن المبرد دون أن يزيد عليها شيئا .

ثم إن الانقسام بين جماعة القعدة إلى إباضية وصفرية لو صح أنه حدث نتيجة

(١) خليفات : نشأة الحركة الإباضية ، ص ٧٣ .

(٢) انظر :نشأة الحركة الإباضية ، ص٧٣ حاشية ٤٥ حيث يقول خليفات : "عن حبس عمران" انظر الدرجينى ، ورقة ٩٧ والشماخى : السير ، ص ٧٧ ، والمبرد الكامل ، جـ٢ ص١٦٧- ١٧٢.

للنقاش الحاد بين أفرادها بسبب موقف زعيمهم عمران بن حطان المشار إليه من الحجاج ، لكان من المفروض أن تتبرأ منه الصفرية لما جرى عليه العرف بين الخوارج ، أو على الأقل لايتولونه ، لأن هذه الفرقة هى التى أصرت -كما يقول خليفات- على الخروج والثورة ضد الحجاج ، على عكس عمران الذى قال لهم : "والله لا أحاربه أبدا" ، ولكن ذلك يتعارض مع ماذكرته كثير من المصادر من أن الصفرية تتولى عمران ابن حطان . مما يحملنا على الاعتقاد بأن انقسام القعدة إلى إباضية وصفرية لاعلاقة له بموقف عمران من الحجاج .

كما أن رحيل عمران من البصرة وتنقله بين أحياء العرب منتحلا أسماء مختلفة إلى أن مات فى عمان – ليس له علاقة البته باستيائه من نتيجه أى جدل أو نقاش بين جماعة القعدة ، لأن عمران فعل ذلك بسبب مطاردة الحجاج له ، باعتباره شاعرا موهوبا وخطيبا بارعا ، وخوف هذا الوالى من أن يوظف عمران مواهبه المذكورة فى إثارة الناس ضده .

ومن الجدير بالذكر أن الصفرية لم تكن وحدها التى تتولى عمران بن حطان ، بل إن الإباضية تتولاه أيضا . يقول الدرجينى[1] : " ومنهم (أى من الإباضية) عمران ابن حطان الشارى رحمه الله ورضى عنه ، وهو النهاية فى الورع والصلاح ... لما خصه الله عز وجل من فنون العلم والنزاهة والحلم وشهامة الجنان وفصاحة اللسان" . كما يقول الشماخى[2] : "ومنهم عمران بن حطان الشيبانى ... وكان ورعا صالحا شاعرا خطيبا عالما" ولو كان عمران رئيسا للصفرية فقط لما ادعت المصادر الإباضية مثل ذلك ، وخاصة أنها حريصة على ألاّ تذكر أيا من مخالفيهم من الخوارج بالتبجيل والاحترام[3]. وتفسير ذلك هو أن الإباضية والصفرية كانتا تشكلان معا قبل انقسامهما جماعة واحدة ، فلما انسلخت منها شيئا فشيئا وأصبحت فرقة قائمة بذاتها ، ظل أتباع هاتين الفرقتين يتولون رؤساءهم ومقدميهم قبل هذا الانسلاخ . وأهم هؤلاء الرؤساء والمقدمين هم :

---

(١) طبقات المشايخ بالمغرب ،ج٢ ، ص ٢٢٦ .

(٢) السير ، ج١ ، ص ٧٣ .

(٣) عوض خليفات : نشأة الحركة الإباضية ، ص ٧٢ .

عبد الله بن وهب الراسبى وحرقوص بن زهير السعدى وإخوانهما من المحكمة الأوائل ، وأبو بلال مرداس بن أدية التميمى ، وعمران بن حطان الشيبانى الذى كان من رءوسهم ومقدميهم قبل هذا الانسلاخ .

ومن المعروف أن عمران بن حطان كان صديقا حميما لأبى بلال مرداس ، ولما قتل الأخير سنة ٦١هـ رثاه عمران بحرارة فى قصائد رنانة ، ولذا يصفه الدرجينى[١] بأوصاف منها : ... وإن خطب أبلغ وأطنب أو أوجز ، وإن نظم سحر بيانه أو أوجز" . ومن أجل ذلك نال عمران احترام المحكمة وقتذاك وأصبح من المقدمين عندهم ، باعتباره شاعرا موهوبا ، وخطيبا مفوها ، وفقيها بارعا . ولما خرج نافع بن الأزرق إلى الأهواز سنة ٦٤هـ وتخلف عنه بعض المحكمة الذين أطلق عليهم اسم "القعدة" كان عمران من بين هؤلاء القعدة ، لأنه - فيما يبدو - لم يكن ميالا إلى الخروج والثورة بحكم كبر سنه ، لكنه مع ذلك كان يوظف مواهبه فى الدعوة لمذهبه والتحريض ضد أعدائه . يقول الأصبهانى[٢] عنه : "هوشاعر فصيح من شعراء الشراه ودعاتهم والمقدمين فى مذهبهم ، وكان من القعدة لأن عمره طال فضعف عن الحرب وحضورها ، فاقتصر على الدعوة والتحريض بلسانه . وفيما يلى نماذج من أقواله فى هذا الصدد[٣] :

(١) أثنى على عبد الرحمن بن ملجم المرادى قاتل على بن أبى طالب رضى الله عنه بقوله :

ياضربة من تقى ماأراد بها	إلا ليبلغ من ذى العرش رضوانا
إنى لأعلمه يوما وأحسبه	أوفى البرية عند الله ميزانا

(٢) وقال فى رثاء أبى بلال مرداس لما خرج على عهد عبيد الله بن زياد ولقى مصرعه هو وأصحابه :

لقد زاد الحياة إلى بغضا	وحبا للخروج أبو بلال

(١) طبقات المشايخ بالمغرب ، ج٢ ، ص ٢٢٦ .

(٢) الأغانى ،ج١٦ ، ص ١٤٦ .

(٣) المبرد : الكامل فى الأدب ، ج٣ ، ص ٨٨ ، والحارثى : العقوذ الفضية ص ٧٣ -١١٧ .

أحاذر أن أموت على فراشى	وأرجو الموت تحت ذرى العوالى
ولـو أنى علمت بأن حتفى	كـحتـف أبى بـلال لم أبـالى

وقال أيضا :

ياعيـن بـكى لمرداس ومصرعـه	يارب مرداس اجعـلنـى كمرداس
وأخـوة لـه طابـت نفـوسهـــم	بالموت عند التفاف النـاس بالناس
أنكرت بعدك ماقد كنت أعرفه	مـاالنـاس بعـدك يـامـرداس بالناس

وقد كانت الأبيات المذكورة وأمثالها دعوة صريحة مـن جـانب عمـران بـن حطـان لتحريض الشراة على الاقتداء بابن ملجـم فـى الفتـك بكـل حـاكم يعتبرونـه غريمـا لهـم ، وكذلك الاقتداء بابى بلال وأصحابه فى الخروج على الأمويين والثورة ضدهم . ولذلك لانعجب إذا رأينا أن الشاعر المذكور ظل مطاردا من الحجاج فى أخريـات حياتـه ، وأنـه اظطر إلى التنقل متخفيا بـين أحيـاء العـرب فـى كـل مـن العـراق والشـام وعمـان حيـث توفى.وهذا فيما يبدو هو الذى حدا بالجماعات التى انشطرت إلى الإباضية والصفريـة إلى تولى عمران بن حطان ، حتى بعد هذا الانشطار ، وذلك للأسباب الآتية :

(١) كان عمران من رءوسهم ومقدميهم قبل هذا الانشطار .

(٢) التعاطف مع بطل للشراه ظل مطاردا من قبل الحجاج إلى أن لقى ربه .

(٣) توافقـه مـع الإباضيـة والصفريـة فـى النفـور مـن غلـو ابـن الأزرق وأمثالـه ، لانحرافهم عن منهج أبى بلال مرداس الذى يتخذ منه عمران مثلا أعلى .

ذهب عوض خليفات[١] إلى أن العلاقات بين الزبـيريين والقعـدة فـى الفـترة مـابين ٦٤ إلى ٧٥ هـ كانت طيبة ، لأن المصادر السنية والشيعية والإباضية لم تذكر أى احتكاك مسلح بينهم وبين عبد الله بن الزبير فى أثناء حكمه للبصرة ، كما أن أخـاه مصعـب ابـن الزبير كان يحترم زعماءهم ويمشى فـى جنـازة مـن يمـوت منهـم . ويقـول : "إن المصـادر

---

(١) نشأة الحركة الإباضية ، ص ٧٢- ٧٣ .

المتوافرة لاتشير إلى أسباب وجود هذه العلاقات الحسنة بين الطرفين رغم اختلافهما فى كثير من المبادئ والأهداف . ولكن من المحتمل أن القعدة أدركوا عدم قدرتهم على القيام بأى نشاط علنى يؤلب عليهم الولاة ، فآثروا اللجوء إلى الهدوء والاكتفاء بالدعاية لمذهبهم سرا وبطريقة لاتسبب غضب عمال ابن الزبير ... ومن جهة أخرى فإن الزبيريين أرادوا تجنب استثارة القعدة ، وخاصة أنهم كانوا يواجهون أعداءا كثيرين مثل الأزارقة والشيعة والأمويين ، وقد ضمن ولاة ابن الزبير بموقفهم المتسامح من القعدة عدم قيام هؤلاء بالمعارضة العلنية لحكم ابن الزبير ، وبكلمة ، فقد كانت العلاقات السلمية بين القعدة والزبيريين لمصلحة الطرفين ، وقد أدرك كل منهما ذلك و لم يحاول استفزاز الطرف الآخر" .

على أنه يجب ألا نبالغ فى قدرة القعدة على عهد الزبيريين ، لأنهم كانوا قلة . يقول الطبرى(1) : "خرج من بقى منهم (الخوارج) بالبصرة فلحق بابن الأزرق ، إلا قليلا منهم ممن لم يكن أراد الخروج يومه ذلك ، منهم عبد الله من صفار وعبد الله بن إباض ، ورجال على رأيهما" . كما أن هذه القلة التى آثرت القعود ظلت متمسكة به ، ليس فقط على عهد الزبيرين ، بل حتى عهد مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية (١٢٧ - ١٣٢هـ) وذلك حين قرر الإباضية فى سنة ١٢٩هـ إعلان أول إمامة لهم فى حضرموت على يد عبد الله بن يحى المعروف بطالب الحق .

ولذلك فإنه من الطبيعى ألا تشير المصادر إلى حدوث أى احتكاك مسلح بين القعدة والزبيريين . ولايفهم من ذلك بالضرورة أن العلاقات بين هذين الطرفين كانت طيبة ، خاصة وأن مايقوله خليفات(2) من أن مصعب بن الزبير كان يمشى فى جنازة من يموت من القعدة لايتفق مع الحقيقة فى شيئ ، لأنه استند فى قوله هذا على ماذكره

---

(١) تاريخ الأمم ، ج٥ وص ٥٦٧ .

(٢) نشأة الحركة الإباضية ، ص٧٣ .

الشماخي[١] من أن مصعبا مشى فى جنازة الأحنف بن قيس ، وكذلك على مايقوله المؤرخون الإباضيون[٢] من أن الأحنف كان من الخوارج أسلاف الإباضية . على أن الحقيقة هى أن الأحنف كان -كما سبق أن ذكرنا- من ألد أعداء الخوارج ، وأنه أعان ابن الزبير على قتالهم والتصدى لهم ، وخليفات[٣] نفسه ينفى تبعية الأحنف للخوارج ، ويذكر ذلك فى عبارة واضحة نصها : "ويذكر بعض المؤرخين الإباضيين أن الأحنف كان من أسلافهم ، ولكن سلوك الأحنف فيما بعد ينفى هذه التبعية للخوارج . وربما كان الإباضيون مدفوعين فى ثنائهم عليه ومدحهم له بما لاقاه أسلافهم ، أتباع أبى بلال، من حماية عندما لجئوا إلى البصرة بعد وقعة النهروان" . كما أن رأى أتباع أبى بلال فى عبد الله بن الزبير معروف ، إذ تبرأ أعيانهم منه وتخلوا عن الوقوف بجانبه فى الدفاع عن الكعبة المشرفة ، وذلك بعد أن رفض موافقتهم على التبرؤ من عثمان وأبيه الزبير وطلحة على النحو الذى سبقت الإشارة إليه ، علما بأن عبد الله بن إباض كان ضمن أعيان المحكمة الذين تبرأوا من ابن الزبير وقتذاك . وبناء على ذلك يمكن القول بأن العلاقات بين القعدة والزبيريين فى البصرة ،لم تكن طيبة ، وإن عدم تعرض هؤلاء للأذى من جانب الزبيريين فى البصرة سببه هو قلة القعدة وقتذاك وإدراكهم عدم قدرتهم على القيام بأى نشاط معادى للزبيريين ، ولذا ظلوا منكمشين إلى أن قتل مصعب بن الزبير فى سنة ٧١ هـ . ومن المحتمل أن يكون القعدة نشطوا فى الدعاية لمذهبهم فى الفترة التى أعقبت مصرع مصعب وامتدت إلى التاريخ الذى عين فيه الحجاج بن يوسف الثقفى واليا على العراق وهو سنة ٧٥ هـ . وهذا ماحمل الوالى المذكور على مطاردة عمران بن حطان باعتباره من رءوس القعدة وشعرائهم البارزين وخطبائهم البلغاء ، وذلك على النحو السابق ذكره .

---

(١) السير ، ج١ ، ص ٧٦ (طبعة سلطنة عمان ١٩٨٧) وص ٨١ (الطبعة الحجرية سنة ١٨٨٤ بالقاهرة) .

(٢) الدرجينى : طبقات المشايخ بالمغرب ، ج٢ ، ص ٢٣٥ ، والشماخى : السير ، ج١ ، ص ٧٦ .

(٣) نشاة الحركة الإباضية ، ٦٥ .

تحدث الدكتور رجب عبد الحليم[1] عن نشأة المذهب الإباضى ، فقال : إن الإباضية هم فريق من المحكمة رأوا القعود عن الحرب وعن رفع السيف ضد إخوانهم المسلمين عقب معركة النهروان . ولذلك عاداهم الفريق الثانى من المحكمة ممن ظلوا على عدائهم وصدامهم مع الدولة الأموية ، وأطلقوا عليهم اسم "القعدة" تحقيرا لهم ، لأنهم -من وجهة نظر هذا الفريق الثانى- قعدوا عن الجهاد فى سبيل الله بمحاربة الولاة والحكام الظالمين . وقد تطورت الأحوال بهذا الفريق الثانى للانقسام إلى فرق ثلاث هى الأزارقة والنجدات والبيهسية منذ عام ٦٤ هـ ، وأضيف إليها الفرقة الرابعة المعروفة باسم الصفرية منذ عام ٧٥[2] . وقد اتفق أصحاب هذه الفرق الأربع فيما بينهم على آراء واختلفوا فى آخرى وكفر بعضهم بعضا ، واصطدموا بالدولة الأموية مرات عديدة ، وتصدت لهم قوات الخلافة وأخضعت شوكتهم وقضت على زعامتهم . أما الإباضة فلم يشتركوا فى هذا الصراع الذى دار بين الفرق الأربع المذكورة التى حملت وحدها اسم الخوارج وبين قوات الخلافة الأموية أو العباسية ، وإنما اعترضت الإباضية على هذا الصراع منذ البداية ، وأخذوا يبثون أفكارهم فى سرية وهدوء ، وخاصة بعد أن التفوا حول إمام لهم هو جابر ابن زيد الأزدى لما مات عبد الله بن إياض ، وكانت علاقة الحجاج بالأزد قد ساءت، سواء من كان منهم بالبصرة أو فى عمان ؛ وتعرض لهم بالتنكيل والقتل والتشريد والتعذيب حيث سجن وجوهم مثل يزيد بن المهلب الذى سجنه هو وإخوته عام ٨٥ هـ بعد أن عزله عن خراسان ، ومثل سعيد وسليمان ملكى عمان اللذين فرّا من وجهه إلى شرقى أفريقيا . وإزاء هذه السياسة التى اتبعها الحجاج ، ولى الأزد -الذين كانت تربطهم بالحركة الإباضية علاقة عضوية- وجوههم نحو جابر بن

---

(١) الإباضية فى مصر والمغرب وعلاقتهم بإباضية عمان والبصرة ، ص ١٤- ١٥ .

(٢) تحديد هذا العام لظهور الصفرية هو مجرد رأى ذهب إليه الدكتور عوض خليفات ، ونقل الدكتور رجب ذلك عنه . على أنه سبقت مناقشة الأسباب والمبررات التى بنى عليها خليفات رأيه فى هذا الصدد ، وانتهينا بعد هذه المناقشة إلى عدم الموافقة على هذه المبررات [انظر ص ٧١ -٧٥ من هذا الكتاب] .

زيد ليكون الزعيم الروحى لهم ، ونحو المهالبة ليكونوا القادة السياسيين أو العسكريين الذين يمكن أن يحفظوا لهم كيانهم . ومعنى ذلك -يقول الدكتور رجب- أن القعدة هم الذين انضموا لجابر بن زيد ، وانضووا تحت قيادته بعد أن انتهى دور عبد الله بن إباض نهاية غير معروفة ، وبعد أن رأوا مدى القوة التى ينعم بها هذا الفقيه الأزدى بسبب مساندة الأزدله ، لدرجة أن الحجاج المشهور بالبطش والعنف لم يجرؤ على قتله عندما عرف صلته بالإباضية ، واكتفى بنفيه إلى بلده عمان ، و لم يلبث أن عاد منها إلى البصرة مرة أخرى ، و لم يتعرض له الحجاج فى كثير أو قليل . وقد أخذ جابر بن زيد فى هذه الأثناء -ونتيجة لهذه الملابسات- يدعو إلى أفكار معينة عرفت فيما بعد بالمذهب الإباضى.

على أننا لانتفق مع الدكتور رجب فيما ذهب إليه من القول بأن الإباضية لم تظهر على مسرح التاريخ إلا على يد جابر بن زيد بعد أن التف حوله الأزد ، وذلك للأسباب الآتية :

(١) إن الانقسام الذى حدث بين المحكمة فى سنة ٦٤ هـ لم يتمخض عن نشأة فرق ثلاث فقط هى : الأزارقة والنجدات والبيهسية كما يقول الدكتور رجب ، وإنما كانت الإباضية ضمن الفرق التى نشأت نتيجة لهذا الإنقسام ، وهذه حقيقة يؤكدها الطبرى على النحو الذى سبق أن أوضحناه ، كما تؤكدها المصادر التى استند إليها الدكتور رجب فى قوله بانقسام الخوارج إلى الفرق الثلاث المشار إليها فى العام المذكور، وأهم هذه المصادر على النحو الذى أورده فى الحاشية رقم ٦ ص ١٤ من كتابه هى : الكامل فى الأدب للمبرد ، وطبقات المشايخ فى المغرب للدرجينى ، والكشف والبيان للقلهاتى . فاذا نظرنا إلى المبرد[١] نجده يقول : "وصاروا (أى الخوارج) فى هذا الوقت على ثلاثة أقاويل : قول نافع بن الأزرق فى البراءة والاستعراض واستحلال الأمانة وقتل الأطفال ، وقول أبى بيهس الذى ذكرناه ، وقول عبد الله بن إباض وهو أقرب الأقاويل إلى السنة من أقاويل الضلال" . أما الدرجينى[٢] فإنه يشير إلى الخلاف بين عبد الله ابن

(١) الكامل فى الأدب ، ج٣ ، ص ١٦٣ .

(٢) طبقات المشايخ بالمغرب ،ج٢ ، ص ٢١٤ .

إباض ونافع بن الأزرق بقوله : "إنه قعد عن اللحاق (بـابن الأزرق) مـن غيرإنكـار ، ثـم قلى (أبغض) مااعتقده ابن الأزرق فى المحمدية (المسلمين) كما يصف الدرجينـى عبـد الله ابن أياض بأنه إمام أهـل الطريـق ، والمؤسـس لأبنيـة الأسـلاف ، والعمـدة (المرجـع) فـى الإعتقادات ، ورأس العقد ، ورئيس من البصرة وغيرها من الأمصـار ، وإليـه النسـبة فـى العقائد . ويفيد هذا الكلام -بلاشك- بأن عبد الله بن إباض لما اختلـف مـع ابـن الأزرق اتخذ خطا فكريا مميزا، ليس فقط عن الأزارقة ، وإنما أيضا عن البيهسية والنجدات ، بدليل قول المؤرخ المذكور[1] فى معرض حديثه عن ابن إباض : "وعـدل عـن طريقـى البيهسـية والنجدية (النجدات)" . وقد عرف هذا الخط الفكرى المميز بـالمذهب الإبـاضى ، وصـار ابن إباض إماما له ومؤسسا . وبالنسبة للقلهـاتى ، فإنـه تحـدث فـى كتابـه المذكـور عـن عقائد جميع الفرق الدينيـة فـى الإسـلام ، ومنهـا فـرق الخـوارج ، ولكنـه لم يعنـى بذكـر تواريخ نشأة كل منها ، فهو يقول عن الأزارقة مثلا : إمامهم أبو راشد نافع بن الأزرق ، وهـو أول مـن خـالف اعتقـاد أهـل الإسـتقامة (المحكمـة) وشـق عصـا المسـلمين وفـرق جماعتهم... وخـرج مـن البصـرة إلى الأهـواز فغلـب عليهـا[2] . كمـا يقـول : البيهسـية "أصحاب أبى بيهس...وكان فى زمان الحجاج بن يوسـف ، وكـان الحجـاج طلبـه فـى زمان الوليد[3] (٨٥ -٩٦ هـ) . أمـا الإباضيـة فيقـول القلهـاتى[4] عنهـا : "هـى الفرقـة المحقة... لمكان إمام المسلمين عبد الله بن إباض ...وهو الذى فـارق جميـع الفـرق الضالـة عن الحق ... نشأ زمان معاوية بن ابى سفيان ، وعاش إلى زمان عبـد الملـك بـن مـروان (٦٥ - ٨٥ هـ) . ومع أن المؤرخ المذكور ممن لايعول عليه فى تحديـد التواريـخ ، إلا أنـه يشير ضمنا إلى أن الإباضيـة وإمامهـا عبـد الله بـن إبـاض ربمـا كـانت سـابقة علـى نشـأة البيهسية المنسوبة إلى إمامها أبى بيهس ، لأن ابن إباض نشأ -كما يقول- فى زمن معاوية (٤١- ٦٠هـ) بينما كان أبو بيهـس فـى زمـان الحجـاج (٧٥- ٩٥هــ) . والمعـروف أن

---

(١) طبقات المشايخ بالمغرب ، جـ٢ ص٢١٤ .

(٢) الكشف والبيان ، ج٢ ، ص ٤٢٣ .

(٣) نفسه ، ج٢ وص ٤٣١ - ٤٣٢ .

(٤) نفسه ، ج٢ وص ٤٧١ .

الخلاف الذى حدث بين المحكمة لأول مرة وأدى إلى انقسامهم كان فى سنة ٦٤ هـ أو فى العام الذى يليه .

(٢) يقول الدكتور رجب : إن القعدة هم الذين انضموا لجابر بن زيد بعد أن رأوا مدى القوة التى يتمتع بها هذا الفقيه الأزدى بسبب مساندة الأزدله ، لدرجه أن الحجاج المشهور بالبطش والعنف لم يجرؤ على قتله عندما عرف صلته بالإباضية ، واكتفى بنفيه إلى عمان ، ولما عاد إلى البصرة تركه وشأنه .

على أن الحجاج لم يكن يقتل مالهم صلة بالإباضية ، بدليل أنه اكتفى بسجن أبى عبيدة مسلم بن أبى كريمة ورفاقه من أعيان الإباضية . كما أن قول الدكتور رجب المذكور يتعارض مع ماذكره هو نفسه من أن الحجاج تعرض لوجوه الأزد بالتنكيل والقتل والتشريد والتعذيب ، سواء من كان منهم بعمان ، أو من كان بالبصرة وخاصة أسرة المهلب ، فكيف إذن يلجأ الأزد إلى طلب الحماية من هذه الأسرة التى تم التنكيل بها على النحو المذكور ؟

كما أنه ليس ثمة دليل على أن الحجاج اكتشف أية صلة لجابر بن زيد بالإباضية ، فعلى مبلغ علمى لم يشر أى من المصادر السنية إلى شئ من هذا القبيل . أما المصادر الإباضية فبعضها -مثل الرقيشى[(١)]- يشير إلى أن جابرا كان لايفصح عن صلته بالإباضية وأن أصحابه كانوا يسترونه مخافة التنكيل به من جهة الأعداء . وبعض المصادر الإباضية[(٢)] يكتفى بالإشارة إلىنفى الحجاج لجابر دون ذكر السبب . فإذا صح هذا النفى، فليس من الضرورى أن يكون بسبب صلة جابر بالإباضية ، خاصة وأن أعيان الإباضية وزعماءها -كما قلنا- وضعهم الحجاج فى سجنه و لم يخرجوا منه إلاّ بعد مماته، ويمكن أن يكون سجن جابر ونفيه متعلقا بتعاطفه مع أسرة المهلب الأزدية التى نكل بها الحجاج واستنكاره لمظالم هذا الوالى بصفة عامة ، أسوة بموقف صديقه الحسن البصرى

---

(١) مصباح الظلام ، ورقه ٢١ .

(٢) البسيوى : مختصر البسيوى ، ص ٦-٧ ، والشماخى : السير ،ج١ ، ص ٧١- ٧٦ .

الذى كان الحجاج يطارده أحيانا ويضطره للاختفاء فى بيت من بيوت أصحابه(١) .

كما يقول الدكتور رجب : إن القعدة انضموا إلى جابر بن زيد لما انتهى دور عبد الله بن أباض ، وأخذ يدعو إلى أفكار معينة عرفت فيما بعد باسم المذهب الإباضى .

على أنه من غير المعقول أن يدعو شخص قوى مثل جابر ، تهابه السلطة الحاكمة على النحو الذى أشار إليه الباحث المذكور ، إلى أفكار معينة ، ثم تنسب هذه الدعوة إلى شخص غيره(٢) ، إذ المفروض أن يطلق عليها اسم المذهب الجابرى أو الزيدى ، وليس المذهب الإباضى . كما أن انضمام القعدة إلى جابر وفقا لما ذهب إليه الدكتور رجب تم بعد تنكيل الحجاج بآل المهلب ، أى بعد سنة ٨٥هـ ، ومعنى هذا أن الإباضية لم تظهر على مسرح التاريخ إلا بعد ذلك ، وهذا يتعارض مع ماذكره المؤرخون الثقاة مثل المبرد والطبرى اللذين اتفقا على أن هذه الفرقة ظهرت على أثر الانقسام بين المحكمة فى سنه ٦٥ هـ ، وذلك على النحو الذى سبق أن أوضحناه .

---

(١) ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ج٧ وص ١٨١ .

(٢) يقول بعض الكتاب الإباضيين المحدثين (أحمد مهنا مصلح وآخرون : هذه مبادئنا ص ٤٢) : إنه من الغرابه أن تسمى دعوة جابر بالدعوة الإباضية ، لأنها تسمية لاتوافق معناها . لكنها غرابة سرعان ماتزول إذا ماطلع الباحث على المراحل الأولى لنشأة الحركه ومـاتميزت بـه من كتمان بالإضافة إلى عوامل أخرى جعلت الناس ينسبون المذهب لعبد الله بن إباض .

على أن الباحثين المشار إليهم لم يذكروا ماهية هذه العوامل الأخرى التى جعلت الناس ينسبون المذهب لعبد الله بن إباض . كما أن المراحل الأولى لنشأة الحركة الإباضية لم تتميز بالكتمان ، لأنها نشأت -كما سبق أن أوضحنا- فى الوقت الذى اعترض فيه عبد الله بن إباض على موقف ابن الأزرق من استعراض الناس وأبى أن يستجيب له بالخروج إلى الأهواز سنة ٦٥ هـ . كما أن نصوص الكتب المتبادلة بين ابن الأزرق وابن إباض كانت معروفه للناس وأوردها كل من المبرد والطبرى ، ورساله ابن إباض إلى عبد الملك بن مروان مشهورة . هذا فضلا عن أن الحجاج لما توفى سنة ٩٥ هـ كان زعماء الإباضية فى سجنه .

كما أننا لانوافق على أن الحجاج وضع فى اعتباره التنكيل بالأزد فى كل مكان ، لأن المصادر لاتذكر أنه تعرض بالتنكيل للأزد فى البصرة وغيرها ، اللهم إلا آل المهلب الذين كان يحقد عليهم بسبب مابلغوه من نفوذ وغنى ، وربما اتخذ الحجاج من جابر ابن زيد موقفا متشددا لتعاطفه -كما قلنا- مع ذوى قرباه من هذه الأسرة ، خاصة وأن بعض المصادر[1] تتحدث عن صلات طيبة له بأفراد منها . أما بالنسبة لعمان فقد عمل الحجاج على استعادة نفوذ الخلافة عليها بعد أن استبد بها سعيد وسليمان إبنا الجلندى . وقد اضطر الحجاج إلى إرسال جيش قوى هاجم عمان من البحر والبر بعد أن أصاب الفشل حملته الأولى عليها ، واستطاع آخر الأمر أن يهزم ابنى الجلندى المذكورين وأن يرغمهما على الفرار إلى شرقى أفريقيا ، وأن يبسط قبضته على عمان تماما[2] .

ولو صح أن الحجاج نكل بالأزد فى كل مكان ، وأن هؤلاء وقع اختيارهم -نتيجه لذلك- على جابر بن زيد ليكون قائدا روحيا لهم ، ولآل المهلب ليقودوهم سياسيا أو عسكريا ضد الحجاج وبنى أميه ، لما انضم كثير من الأزد إلى مسلمة بن عبد الملك حين سيره أخوه الخليفة يزيد فى سنه ١٣٠هـ للقضاء على حركة يزيد بن الملهب الذى ثار على بنى أمية ونجح فى الإستحواذ على بعض البلاد ، فمن الثابت أن أغلب جيش مسلمة حينذاك كان من الأزد ، حتى أن يزيد بن المهلب قال فى أثناء المعركة التى دارت بينهما : "قبح الله مسلمة ، بقومى قتلنى لابقومه"[3] . ويقول أحد الباحثين[4] : "إن عرب خراسان ، والأزد منهم خاصة ، وهم عشيرة يزيد بن المهلب وقرابته الأدنون ، لم ينصروا ثورته و لم ينضموا إليها . وقد حاول يزيد إقناعهم بالانضمام إليه فأرسل إليهم أخاه مدركا ، ولكن الأزد هناك تعاونوا مع بنى تميم فى صده عن خراسان". كما أنه بعد مقتل يزيد بن المهلب تم عزل أخيه زياد عن ولاية عمان ، ثم أعاده عليها عمر بن عبدالله الأنصارى آخر عمال الخليفة عمر بن عبد العزيز على العراق قائلاً : إن البلاد بلاد قومه وأمرها إليه . وتقول الروايات إن زيادا بقى على عمان حتى

(١) انظر الشماخى : السير ، حـ ١ص٧١ .

(٢) ولكنسن : بنو الجلندى فى عمان ، ص ١٧ .

(٣) العوتبى : الأنساب ، ص ١٥٠ .

(٤) محمد عبد الحى شعبان : الثورة العباسية ، ص ١٦٣ .

زمن العباسيين ، ولكن مما لاشك فيه أن نفوذه تضاءل بعد موت أخيه ، وعاد بنو الجلندى (وهم من أزد عمان) إلى مكان الرئاسة ، على الأقل بين قبائل الداخل[1] . وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على أن الأزد لم يولوا وجوههم نحو المهالبة ليقودوهم سياسيا أو عسكريا ضد الأمويين أو غيرهم .

أما بالنسبة لما ذكره الدكتور رجب من أن المراجع لا تفتأ تتحدث عن العلاقة العضوية بين المهالبة والحركة الإباضية ، فينبغى أن ننظر إليه بحذر ، لأن الباحث المذكور وثق هذا القول بما أشار إليه فى الحاشية رقم ٢٧ من ص ٢٠ من كتابه ، وتضم هذه الحاشية مصدرين هما (الطبرى : جـ٦ ، ص٢٩٣ ، ٤٢٦ ، وابن الأثير : الكامل ، جـ٤، ص ٥٠٢ - ٥٠٤ - ٥٤٧) إضافة إلى عدد من المراجع الحديثة . علما بأن ما جاء فى المصدرين المذكورين يدور حول أسباب حقد الحجاج بن يوسف الثقفى على آل المهلب ومكائده ضدهم لدى كل من عبد الملك بن مروان وأخيه الوليد ، وكذلك عن تمكن يزيد بن المهلب وإخوته من الهروب من سجن الحجاج وشفاعة سليمان بن عبد الملك فيهم عند أخيه الخليفة الوليد ، ثم اصطناعه لهم لما تولى الخلافة بعد الوليد ، ولم ترد أية إشارة فى الصفحات المذكورة بكل من الطبرى وابن الأثير - على الإطلاق - إلى ارتباط أحد من آل المهلب بالحركة الإباضية ، لا تلميحا ولا تصريحا .

أما ماورد فى بعض المراجع الحديثة من ذكر لوجود علاقة بين الحركة الإباضية وبعض أفراد أسرة المهلب من أمثال عبد الملك بن المهلب بحجة أنه تمت بينه وبين جابر ابن زيد مراسلات سرية تتعلق بالدعوة الإباضية ، فإنه لا صحة له ، لأن هذه المراسلات تستند إلى صورة شمسية من جوابات منسوبة لجابر بن زيد إلى عبد الملك بن المهلب لا تحمل تاريخا ولا رقم المخطوطة الأصلية ولا اسم الدار التى تحفظ بها من جهة ، وإنه لم يرد بهذه المراسلات ما يشير إلى دعوة جابر للإباضية من جهة ثانية . علما بأن الإباضية يزعمون أن جابر بن زيد مؤسس مذهبهم . لكن المصادر السنية تنفى صحة ذلك . وقدتمت مناقشة هذه القضية فى صفحات تالية بشيء من التفصيل ، وترجح لدينا عدم كون جابر من الإباضية أصلا .

(١) ولكنسن : بنو الجلندى فى عمان ، ص١٨ .

البـــاب الثـــانى

مؤسس الدعوة الإباضية



١- عبدالله بن إباض ودوره فى تأسيس الدعوة الإباضية

سبق أن أشرنا إلى أن المبرد والطبرى اتفقا حول نسبة الإباضية إلى عبد الله ابن إباض ، وكذلك على نشوئها فى سنة ٦٥ هـ . وقد تبعهما فى نسبة هذا المذهب إلى ابن إباض عدد كبير من المؤرخين وكتاب الفرق[١] . ومع ذلك فهناك قلة تنسب الإباضية إلى شخص آخر ، فيذكر المقدسى[٢] أن الإباضية ينتسبون إلى شخص يقال له :"الحارث ابن إباض" . وينسبهم المقريزى[٣] إلى عبدالله بن إباض بن مقاعس واسمه الحارث بن عمرو ويعتبره من غلاة الخوارج الذين خرجوا على الأمويين قرب نهاية حكمهم ، ثم يعود فيشير إلى احتمال نسبهم إلى قرية أباض بضم الهمزة ، وهى قرية باليمامة نزل بها نجدة ابن عامر الحنفى . كما ينسب الملطى[٤] الإباضية إلى عبدالله بن إباض ، ولكنه فى موضع آخر من كتابه يعود فيقول : "إنهم أصحاب "إباض بن عمر" الذين خرجوا فى سواد الكوفة فقتلوا وسبوا الذرية ، وظلت بقاياهم بهذه المنطقة حتى منتصف القرن الرابع الهجرى .

على أن هذه القلة التى تنسب الإباضية إلى غير عبدالله بن اباض تتصف أقوالها بالتناقض وعدم الاتساق مع الواقع التاريخى : فالحارث بن اباض المشار إليه هو -طبقا لما ذكره كثير من كتاب الفرق- مؤسس إحدى فرق الإباضية التى انشقت عنها ويقال لها "الحارثية" ويسميه البعض "الحارث بن مزيد الإباضى" ، فيقول البغدادى[٥] :"زعمت الحارثية أنه لم يكن لهم إمام بعد المحكمة الأولى إلا عبدالله بن إباض وبعده حارث ابن

---

(١) ابن قتيبة : المعارف ، ص ٦٢٢ ، وابن الأثير : الكامل ، جـ٣ ص١٢٤ ، وابن خلدون : العبر، جـ٢ وص٧٨ ، وعبدالله بن محمد الناشىء الأكبر : مسائل الإمامة ، ص٦٨ ، والرازى : الزبدة فى الكلمات الإسلامية ، ص٥٤ ، البغدادى : الفرق بين الفرق ، ص٥٤ .

(٢) البدء والتاريخ ، جـ٥ ، ص١٣٨ .

(٣) الخطط ، جـ٢ ، ص٣٥٥ .

(٤) التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع ، ص٥٢ .

(٥) الفرق بين الفرق ، ص٨٤ .

مزيد الإباضى ، ويكتفى الأشعرى والسمعانى بذكر اسمه مجردا من اسم أبيه ، فهو عندهما "الحارث الإباضى" . فيقول الأشعرى(١) :"الفرقة الثالثة من الإباضية أصحاب حارث الإباضى" . أما السمعانى(٢) فيشير إليهم بقوله :"أصحاب الحارث الإباضى ويقال لهم الحارثية" . هذا فضلا عن أن وصف ابن إباض وأتباعه بالغلو يتعارض كلية مع ما أوردته المصادر الكثيرة الأخرى من وصفهم بالاعتدال ، ولقد سبق أن أشرنا إلى أن ابن إباض ومن كانوا على رأيه ، حبذوا القعود فلم يخرجوا مع نافع بن الأزرق ، ثم أنكروا عليه استعراض المخالفين واستحلال أموالهم وسبى ذراريهم . أما ما أشار إليه المقريزى من احتمال نسبة الإباضية إلى قرية "أباض" باليمامة فلا يمكن الموافقة عليه ، لأن اليمامة كانت معقلا للنجدات ، -و لم يشر أحد على مبلغ علمى- إلى تواجد للإباضية هناك .

وعلى الجملة ، فإن معظم المؤرخين وكتاب الفرق من أهل السنة يذكرون أن اسم المذهب الإباضى اشتق من إسم عبدالله بن إباض ، وتؤيدهم فى ذلك جميع المصادر الإباضية(٣) . وقد تم العدول فى هذا الاشتقاق عن اسم الولد إلى اسم الوالد ، طلبا للتخفيف واختصاص الأشهر ، وذلك فى اللغة معروف لاينكر(٤) ، فأنصار عبدالله ابن الزبير يقال لهم "الزبيريين" وأتباع نافع بن الأزرق يقال لهم "الأزارقة" وهكذا .

وبالنسبة لفتح همزة "أباض" أو كسرها فيختلف فيهاالإباضية . وتقول سيدة كاشف(٥) : إنهم فى عمان يفتحون الهمزة . لكن جاء فى دائرة المعارف الإسلامية(٦) أنهم فى شمالى أفريقيا يفتحون الهمزة بينما يكسرها إباضية عمان . ومما يؤيد ذلك أن

---

(١) مقالات الإسلاميين ، جـ١ ، ص١٠٤ .

(٢) الأنساب ، ص٨٧ .

(٣) الدرجينى : طبقات المشايخ ، جـ٢ ، ص٢١٤ والرقيشى : مصباح الظلام ، ورقة ١٩ ، والأزكوى : كشف الغمة ، ورقة ٢٤٤ ، والبرادى : الجواهر المنتقاة ، ص١٥٦ ، والقلهاتى : الكشف والبيان ، ج٢ ص٤٧١ .

(٤) الدرجينى : نفسه ، ص٢١٤ .

(٥) عمان فى فجر الإسلام ، ص٧٥ .

(٦) دائرة المعرف الإسلامية ، المجلد الأول ، ص٢٢

البرادى[1] - وهو مؤرخ إباضى تونسى - يقول :"عبدالله بن أباض رضى الله عنه النسبة إليه أباضى بفتح الهمزة" . ويذهب أطفيش[2] إلى القول بتثليث همزة "اباض" أى بجواز فتحها أو كسرها أو ضمها .

أما غير الإباضية فيكسرون همزة "إباض" . يقول ابن منظور[3] :"وإباض (بكسر الهمزة) اسم رجل ... والإباضية فرقة من الخوارج أصحاب عبد الله بن إباض التميمى.... وأباض (بضم الهمزة) عرض باليمامة كثير النخل والزرع" . أما الفيروزبادى[4] فيقول :"أبض (بفتح الهمزة) البعير شدّ رسغ يده إلى عضده حتى ترتفع يده عن الأرض ... وعبدالله بن إباض (بكسر الهمزة) التميمى نسب إليه الإباضية من الخوارج" .. ولعل ما ورد بهذين المصدرين من إشارة إلى كسر وضم وفتح همزة "إباض" على النحو المذكور هو الذى حدا بأطفيش إلى القول بجواز تثليث همزة "إباض" . لكننا لا نوافقه فى هذا الصدد ، لأن المصدرين المشار إليهما متفقان على كسر همزة "إباض" فيما يتعلق بأسماء الأشخاص ، ومنها عبدالله بن إباض .

وعبدالله بن إباض من قبيلة تميم التى نزحت إلى البصرة بعد تمصيرها ، وهو من بنى مرة بن عبيد رهط الأحنف بن قيس[5] ، ولا تشير المصادر إلى تاريخ ولادته ولاتاريخ وفاته . على أنه يفهم مما جاء فى رسالته إلى الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان أنه أدرك عهد معاوية ، وأنه كان وقتذاك مميزا وقادرا على تقييم أعمال الناس من حيث موافقتها الحق أو الباطل من وجهة نظره . يقول ابن إباض فى هذه الرسالة مخاطبا الخليفة المذكور :"ولا تسأل عن معاوية وعن صناعته غيرى ، لأنى أدركته ورأيت عمله

---

(١) الجواهر المنتقاة ، ص١٥٥ .

(٢) انظر الحارثى : العقود الفضية ، ص١٢٢ .

(٣) لسان العرب ، جـ٢ الضاد فصل الألف ، ص٣٧٩ .

(٤) القاموس المحيط : فصل الهمزة باب الضاد ، جـ٢ ، ص٣٣٥ .

(٥) الرقيشى : مصباح الظلام ، ورقة ١٩ .

وسيرته[١] . ولا يرد اسمه فى المصادر قبل عام ٦٣ هـ ، ففى هذا العام توجه ضمن أعيان محكمة البصرة إلى مكة ، لمعاونة ابن الزبير فى الدفاع عن الكعبة المشرفة ضد الأمويين ولكنهم لم يلبثوا أن اختلفوا معه وعادوا إلى البصرة فى نفس العام على النحو الذى سبق أن أوضحناه . وتشير المصادر إلى أن ابن إباض قرر القعود وعدم الخروج إلى الأهواز مع نافع بن الأزرق ، ثم تبرأ منه فى السنة التالية . ولا نعرف عنه شيئا بعد هذا التاريخ ، اللهم إلا ما تنفرد به المصادر الإباضية من إيرادها نصا للرسالة المشار إليها ، يفهم منه أن عبدالله بن إباض سطرها ردا على كتاب تلقاه من عبد الملك بن مروان . ويبدو أن هذه الرسالة وما ورد بها من قول ابن اباض : إنه أدرك معاوية ورأى عمله وسيرته - كانت الأساس الذى استند إليه بعض المؤرخين الإباضيين المتأخرين[٢] فى القول بأن عبدالله ابن إباض "نشأ فى زمان معاوية بن أبى سفيان (٤١ /٦٠هـ) ، وعاش إلى زمان عبد الملك ابن مروان (٦٥/٨٦هـ)" .

وقد ذهب الزركلى[٣] إلى القول بأن ابن إباض عاش إلى أواخر عهد عبد الملك ، لكن هذا القول تعوزه الأدلة التاريخية ، وكل مايمكن القطع به استنادا إلى ماجاء فى رسالة ابن اباض إلى الخليفة المذكور أنها كتبت بعد عام ٦٧ هـ ، لما فيها من إشارة إلى هزيمة المختار الثقفى على يد مصعب بن الزبير[٤] تلك التى وقعت فى العام المذكور . ويفترض أن عبد الملك شرع فى مكاتبة ابن اباض بعد التخلص من الزبيريين ووقوع البصرة - التى كان يقيم بها ابن اباض - تحت نفوذه ، والمعروف أن ذلك تم فى سنة ٧٣ هـ . وكان ردّ ابن اباض عليه - فيما نرجحه - قبل ولاية الحجاج بن يوسف الثقفى للعراق سنة ٧٥ هـ ، لأن هذا الرد خلا تماما من أية إشارة إلى هذا الوالى ، علما بأن ابن

---

(١) البرادى : الجواهر المنتقاة ، ص ١٥٨ .

(٢) الرقيشى : مصباح الظلام ، ورقة ٢٠ ، والقلهاتي: الكشف والبيان ، حـ٢ ، ص٤٧١ ، والأزكوى : كشف الغمة ، ورقة ٢٤٤ ب .

(٣) الأعلام ، حـ١ ص ١٨٤ .

(٤) البرادى : الجواهر المنتقاه ، ص ١٦٣ .

إباض أسهب فى ذكر ما اعتبره ضلالا من جانب كل من عثمان بن عفـان ومعاوية ابـن أبى سفيان وابنه يزيد ، وتبرأ منهم باعتبارهم أئمة ضلالة ، واتهم عبد الملك صراحة بأنـه يسير على نهجهم ونصحه بالعدول عن ذلك[١] . ولـو أن ابـن اباض كتـب رسـالته إلى الخليفة المذكور فى أثناء ولاية الحجاج ، لما فاته التنديد به طالما أنه كان بصدد استعراض مظالم بنى أميه من وجهة نظر المحكمة .

على أنه ينبغى ألا يفوتنا أن إدراك عبدالله بن إباض زمان معاوية وقيامه بمراسلة عبد الملك بن مروان ، بصرف النظر عن كون هذه المراسلات تمت فى بداية عهد هذا الخليفـة أو قرب نهايته ، لا يعنى بالضرورة أنه ولد فى زمان معاوية ومات على عهد عبد الملك . فمن الكتاب من يذهب إلى أن عبد الله بن إباض كان تلوا لجابر بن زيد الذى توفى قرب نهاية القرن الهجرى الأول وربما - فى بعض الأقوال - أوائل القرن الثانى . يقول الكاتب الإباضى المعاصر على يحيى معمر[٢] :"عبدالله بن اباض كان صنوه وتلـوه... وبعـد وفـاة جابر بن زيد ظهر عبدالله بن اباض بأجلى مظاهر الغيرة الدينيـة" . ومـن الكتـاب[٣] مـن يعكس الأمر فيجعل من جابر بن زيد إماما للإباضية بعد عبدالله بن إباض .

أما بالنسبة لما قام به عبدالله بن إباض من نشاط سياسى أو مذهبى بعـد رسـالته إلى عبد الملك بن مروان ، فلا تشـير المصـادر إلى معلومـات يمكـن الاطمئنـان إليهـا فـى هـذا الصدد ، لأن بعض المعلومات الواردة إما غامضة أو غير صحيحة . ويتمثل هذا الغمـوض فيما أوردته بعض المصادر الإباضية عن نشـاط ابـن ابـاض ، إذ يصفـه الدرجينـى[٤] بأنـه "جـامع الكلمـة لمـا وقـع التفريـق ...والمهـدم لمـا اعتمـده أهـل الخـلاف" . ويقـول عنـه

---

(١) البرادى : الجواهر المنتقاه ، ص١٦٤ .

(٢) الإباضية فى موكب التاريخ ، جـ١ (الحلقة الأولى) ، ص ١٥١ .

(٣) رجب عبد الحليم : الإباضية فى مصر والمغرب ، ص١٤ - ١٥ .

(٤) طبقات المشايخ ، جـ٢ ، ص٢١٤

الشماخى[1] فى كتاب السير : "وله مناظرات مع الخوارج وغيرهم" كما يقول فى كتاب القول المتين ردا على المخالفين[2] :"وله مناظرات مع أهل النّطس والتفلسف كانت الحجة الدامغة التى يخنس أمامها كل ثرثار ."أما القلهاتى[3] فيقول عنه : "وهو الذى فارق جميع الفرق الضالة عن الحق من المعتزلة والقدرية والصفاتيه والجهمية والخوارج والروافض والشيع ، وهو أول من بين مذاهبهم ونقض فساد اعتقادهم ، بالحجج القاهرات ، والآيات المحكمات النيرات ، والروايات البينات الشاهرات" . ولم تذكر المصادر المشار إليها ماهية هذه المناظرات ، ولا الوقت الذى حدثت فيه، كما لم تورد - ولو حجة واحدة - من تلك الحجج الموصوفة بالقاهرات التى يخنس أمامها كل ثرثار . هذا فضلا عما يراه البعض[4] من أن بعض الفرق الدينية المشار إليها لم يكن قد اكتمل نموها بعد .

أما المعلومات الغير صحيحة التى توردها بعض المصادر عن ابن إباض فتتمثل فيما ذكره ابن حوقل[5] من أنه وعبدالله بن وهب الراسبى هاجرا من العراق إلى جبل نفوسة فى ليبيا حيث توفيا هناك . علما بأن الراسبى هو الذى قاد المحكمة ضد علىّ بن أبى طالب فى معركة النهروان سنة ٣٨ هـ ولقى فيها مصرعه مع معظم أتباعه ، وهذه حقيقة تؤكدها جميع المصادر على إختلاف اتجاهاتها . كما تذهب بعض المصادر إلى أن عبد الله ابن إباض عاصر مروان بن محمد (١٢٧-١٣٢هـ) آخر خلفاء الدولة الأموية . يقول الشهرستانى[6] : "الإباضية أتباع عبدالله بن اباض الذى خرج فى أيام مروان بن محمد فوجه إليه عبد الله بن عطية فقاتله بتبالة . وقيل إن عبدالله بن يحيى الإباضى كان رفيقا له

(١) جـ١ ص٣٧ .

(٢) انظر سالم بن حمود السيابى : إزالة الوعثاء ، ص٥٠ .

(٣) الكشف والبيان ، جـ٢ ، ص٤٧١ .

(٤) عوض خليفات : نشأة الحركة الإباضية ، ص٧٩ .

(٥) المسالك والممالك ، ص٤٣ .

(٦) الملل والنحل ، ص١٣٧ .

فى جميع أحواله وأقواله" . أما القزوينى[1] فيشير إلى إسهام ابن اباض فى حركة عبدالله ابن يحى المعروف بطالب الحق ، تلك التى قامت بحضرموت سنة ١٢٩ هـ وامتدت إلى الحجاز فى نفس الوقت . على أن المصادر الإباضية لم تشر إطلاقا إلى أن ابن اباض أسهم فى حركة طالب الحق المشار إليها ، علما بأن هذه المصادر أسهبت كثيرا فى ذكر تفاصيل هذه الحركة باعتبارها أول محاولة من جانب الإباضية لإقامة الإمامة الظاهرة بعد مرحلة الكتمان . ولقد سبق أن نوهنا إلى أن المصادر الإباضية تجعل عبدالله بن اباض من رجال الطبقة الأولى للتابعين الذين توفوا قبل عام ١٠٠هـ . كما أن المؤرخين السنيين الأقدم من الشهرستانى والقزوينى مثل : خليفة بن خياط والبلاذرى والأصبهانى ، لم يشيروا بتاتا إلى اشتراك عبد الله بن إباض فى الحركة المذكورة ، علما بأن هؤلاء المؤرخين أسهبوا أيضا فى ذكر الكثير من تفاصيلها . هذا ومن الثابت أن حركة طالب الحق قامت على عهد أبى عبيدة مسلم بن أبى كريمة الذى تولى إمامة الإباضية وخرج من سجن الحجاج فى سنة ٩٥ هـ ، ولا تذكر المصادر الإباضية أية إشارة - ولو عابرة - لابن إباض فى ذلك العهد ، مما يوحى بأنه توفى قبل العام المذكور . فكيف يتسنى له الإسهام فى حركة قامت بعد ذلك فى سنة ١٢٩ هـ ؟ . وأخيرا"لعل السبب فى إشارة الشهرستانى والقزوينى إلى اشتراك عبدالله بن اباض فى ثورة طالب الحق هو تشابه الاسمين الأولين لكلا الرجلين فحدث الالتباس تبعا لذلك[2]" . يقول على يحيى معمر[3]: لعل الذين ذكروا خروج ابن اباض أيام مروان بن محمد اشتبه عليهم بأحد الرجلين: المختار بن عوف ، أو بلج بن عقبة من أصحاب عبدالله بن يحيى طالب الحق ، وهم جميعا من الإباضية .

هذا وقد ذكر الخطيب البغدادى[4] رواية غريبة تفيد بأن عبدالله بن إباض عاصر الخليفة المأمون (١٩٥ - ٢١٨هـ) . وهذه الرواية واضحة البطلان ، لما جاء بها من أن

---

(١) أثار البلاد وأخبار العباد ،جـ١ ، ص٢٧ .

(٢) عوض خليفات : نشأة الحركة الإباضية ،ص٨٣ .

(٣) الإباضية بين الفرق ، جـ١ وص٧٠ .

(٤) تاريخ بغداد ، جـ٣ ، ص٣٦٩ .

هذا الخليفة قال : إن الرافضة والمعتزلة فى جهنم ، مع أن المأمون هو أول من شجع الاعتزال من خلفاء بنى العباس ، أولئك الذين تبنوا هذا المذهب إلى حد اضطهاد مخالفيه من أهل المذاهب الأخرى ،وذلك منذ عهد المأمون حتى عهد المتوكل (٢٣٢، ٢٤٧هـ).

٢- تباين موقف الإباضيين القدماء والمحدثين بالنسبة لدور ابن اباض فى تأسيس الدعوة الإباضية

سبقت الإشارة إلى أن معظم المؤرخين وكتاب الفرق من أهل السنة يذكرون أن اسم "الإباضية" اشتق من اسم مؤسس فرقتها ، وهو عبد الله بن اباض التميمى .

ويفهم مما أورده المؤرخون الإباضيون القدماء ممن تحدثوا عن نشاة الإباضية وكتبهم غير مفقودة ، أن عبدالله بن إباض هو مؤسس الفرقة الإباضية وإمامها الأول ، فيصفه الدرجينى[١] (المتوفى فى القرن السابع الهجرى) بقوله :"إمام أهل الطريق وجامع الكلمة لما وقع التفريق ، فهو العمدة فى الاعتقادات ، والمبين لطرق الاستدلالات والاعتمادات ، والمؤسس لأبنية هى مستندات الأسلاف والمهدم لما اعتمده أهل الخلاف ، وكان على رأس العقد ، ورئيس من بالبصرة وغيرها من الأمصار ، والمتقدم فى حلبة الفضل بين أولئك الأخيار . قعد عن اللحاق واشتراه من غير إنكار ، وقنع بالخمول من غير قصور ولا إقصار ، وقلى ما اعتقده ابن الأزرق فى المحمدية ، وعدل عن طريقى البيهسية ، والنجدية ، وسلك محجة العدل ، وكان قدوة لأهل الفضل ، فإليه النسبة فى العقائد ، معدولا بها عن اسم الوليد إلى اسم الوالد ، طلبا للتخفيف واختصاص الأشهر ، وذلك فى الحق معروف لاينكر" .

كما يقول البرادى[٢] (المتوفى فى القرن الثامن الهجرى) :"عبدالله بن إباض رأس العقد وإمام القوم" .

---

(١) طبقات المشايخ بالمغرب ، جـ٢ ، ص٢١٤ .

(٢) الجواهر المنتقاة ، ص ١٥٥ .

وهكذا نرى أن عبد الله بن إباض عند أولئك المؤرخين الإباضيين القدماء هو إمـام القوم من أهل الطريق (الإباضية) ، والمؤسس لأبنية (لمبادىء) هذه الفرقـة ، والعمـدة فـى اعتقاداتها ، أى أنه كان المرجع المعتمد فى المسـائل العقدية ، والمهـدم لمـا اعتمـده أهـل الخلاف من أصحاب الفرق الأخرى عـن طريـق المنـاظرات والمجـادلات ، ورئيـس العقـد الذى كان كل إباضى على عهده يمثل فريدة من فرائده . وفوق ذلك كله كان ابن اباض عند هؤلاء المؤرخين الإباضيين القدماء هو رئيس من بالبصرة وغيرها من الأمصار .

كما نستطيع أن نلمس فى قـول المؤرخـين الإبـاضيين المذكوريـن إشـارة إلى نشـأة الإباضية وتمايزها عن الأزارقة والنجدات والبيهسية ، وأن ذلك حدث حين قعـد عبـدا لله ابن إباض عن اللحاق بابن الأزرق دون إنكار لخروجه إلى الأهواز ، وأن ابن إبـاض قلـى (أى أبغض واستنكر) ما اعتقده ابن الأزرق فى المحمدية (أى المسلمين المخالفين) ، وعدل عن طريقى البيهسية والنجدية - وهذه الإشارة تتفق تماما مـع ماسبق أن ذكرنـاه مـن أن المبرد والطبرى تحدثا عن انقسام المحكمة إلى الفرق الأربـع الرئيسية المذكـورة ، وأن هـذا الانقسام بدأ - كما يقولا - حين قعد عبدا لله بن إباض ومعه أناس على رأيه عن الخروج مع ابن الأزرق إلى الأهواز فى سنة ٦٤ هـ ، وأنه رغم ذلك لما تلقى كتابا من ابن الأزرق فى السنة التالية أظهر قلقه قبل أن يطلع عليه مخافة أن يكون ابن الأزرق وأصحابه أصابهم مكروه بعد خروجهم إلى الأهواز ، لكنه حين اطلع على هذا الكتاب علق عليه بكلمـات تفيد استنكاره لموقف ابن الأزرق من المسلمين المخالفين ، وكـان معـه وقتـذاك أبوبيهـس الذى تبرأ من ابن الأزرق لغلوه ، وتطرفه ، كمـا تـبرأ مـن ابـن إبـاض فـى نفـس الوقـت لتقصيره من وجهة نظره . وكان نجدة بن عامر الحنفـى وقتـذاك باليمامـة يعلـن استنكاره أيضا لموقف ابن الأزرق محددا لنفسه موقفا متمايزا أطلق على مؤيديـه اسـم "النجديـة" أو النجدات ومعنى ذلك أن ما أورده هؤلاء المؤرخون الإبـاضيون القدمـاء يؤكـد مـا ذكـره المؤرخون السنيون من أن ابن إباض هو مؤسس فرقة الإباضية وإمامها الأول دون سواه .

غير أن المؤرخين الإبـاضيين المتـأخرين يعطـون لابـن إبـاض دورا ثانويـا فـى نشـأة الإباضية ، ويؤكدون أن مؤسس دعوتها هو جابر بن زيـد الأزدى العمـانى الـذى هـاجر

إلى البصرة وأقام فيها مثل الكثيرين غيره من أزد عمان . فيقول الشماخى[1] (المتوفى فى القرن العاشر الهجرى) :"وفى حفظى أنه (أى عبدا لله بن إباض) يصدر فى أمره عن رأى جابر بن زيد" . ويقول الرقيشى[2] (المتوفى فى القرن الثانى عشر الهجرى) :"فقد بلغنا أن أبا بلال مرداس بن حدير وغيره من أئمة المسلمين[3] (ومنهم عبدا لله بن إباض) لم يكونوا يخرجون إلا بأمر إمامهم فى دينهم جابر بن زيد العمانى ومشورته ، ويحبون ستره عن الحرب لئلا تموت دعوتهم ، ليكون رداء لهم" .

وقبل مناقشة القول المذكور للمؤرخين الإباضيين المتأخرين تجدر الإشارة إلى أنه إذا كان هؤلاء يعطون دورا ثانويا لابن اباض فى تأسيس الدعوة الإباضية ، فإن بعض الكتاب الإباضيين المحدثين لا يجعلون له دورا بالمرة ، فضلا عن أن كلامهم عنه يناقض بعضه بعضا .

فيقول سالم بن حمود السيابى[4] :"إن للمذهب الإباضى حلقات ثلاث ، يمثل عبد الله بن عباس الحلقة الأولى منها ، وجابر بن زيد الثانية ، وأبو عبيدة مسلم بن أبى كريمة الثالثة ". كما يقول السيابى[5] أيضا :"إن ابن إباض من أتباع جابر بن زيد ، وكان يستشيره فى أموره ومهاماته الدينية وفيما يفعله وما يذر" . ويتفق على يحى معمر[6] مع السيابى فى هذا الصدد إذ يقول :"وكان (عبدا لله بن اباض) من أتباع جابر بن زيد

---

(١) السير ، جـ١ ص ٧٣ .

(٢) مصباح الظلام ، ورقة ٢٠ .

(٣) يطلق الإباضية على أنفسهم "جماعة المسلمين" أو "أهل الدعوة" أو "أهل الاستقامة" . أما غيرهم من المسلمين فيطلقون عليهم اسم "أهل القبلة أو "الموحدين".(انظر القلهاتى: الكشف والبيان ، جـ٢ ، ص٤٧١ ، وعوض خليفات : نشأة الحركة الإباضية ، ص٥٨ ، وجودت عبد الكريم : العلاقات الخارجية للدولة الرستمية ، ص ٤٠ - ٤١) .

(٤) إزالة الوعثاء ،ص٣٣ .

(٥) طلقات المعهد الرياضى ، ص٧٧ .

(٦) الإباضية بين الفرق الإسلامية ، جـ١ ، ص١٧١ - ١٧٢ .

مؤسس المذهب الإباضى ، ولو نسب المذهب الإباضى إلى جابر بن زيد تلميذ ابن عباس كان فى رأيى أصح علما وأصدق منهجا" . ولكن الكاتبين المذكورين يختلفان فى موقفهما بالنسبة لمآثر ابن إباض الدينية ، فيقول السيابى[1] : إن عبدا لله بن اباض لا توجد مسألة واحدة تؤثر عنه فى الدين ، بينما يقول معمر[2] : إن الإباضية يعتبرون ابن اباض من أئمة المسلمين ويعرفون الكثير من أقواله فى القضايا الشرعية . ويوضح الدكتور صالح بن أحمد الصوافى[3] مآثر ابن إباض الدينية بقوله : "وعلى ذلك فلم يكن عبدا لله ابن إباض ممن خرجوا (إلى الأهواز سنة ٦٤هـ) ، بل كان على رأس القعدة الذين آثروا الاعتدال ، وعدم مفارقة الجماعة الذين لم يستحلوا ما استحله الأزارقة من استحلال دماء المسلمين وأموالهم واستعراضهم ووصفهم بالكفر ، وعدم جواز مناكحتهم وموارثتهم فلم يستحل ابن إباض شيئا من ذلك" . ومن الواضح أن الصوافى يشير هنا إلى ما أورده الطبرى[4] من قول ابن إباض ردا على كتاب نافع بن الأزرق سنة ٦٥ هـ الذى نصه: "قاتله ا لله ، أى رأى رأى . صدق نافع بن الأزرق ، لو كان القوم مشركين ، كان أصوب الناس رأيا وحكما فيما يشير به ، لكنه كذب ، وكذبنا فيما يقول ، ، إن القوم كفار بالنعم والأحكام[5] ، وهم برآء من الشرك ، ولا يحل لنا إلا دماءهم وما سوى ذلك من أموالهم فهو علينا حرام" . وهكذا يتبين لنا أن ابن إباض هو صاحب مقولة : إن مخالفى الإباضية من أهل القبلة كفار نعمة ، وليسوا كفار شرك على نحو

---

(١) أصدق المناهج ، جـ٢٠ .

(٢) الإباضية بين الفرق الإسلامية ، جـ١ ص٥٨ .

(٣) الإمام جابر بن زيد ، ص١٦٥ .

(٤) تاريخ الأمم ، جـ٥ ص ٥٦٨ .

(٥) كبائر الكفر بنعمة ا لله عند الإباضية هى : الأكل الحرام ، وشهادة الزور ، عقوق الوالدين ، وترك المرء فريضة من فرائض ا لله غير مستحل لها ، وغير ذلك من الكبائر . أما كبائر الشرك فهى كل كبيرة تخل بالاعتقاد ، كاستحلال ماحرم ا لله ، أو تحريم ما أحل ا لله تعالى ، أو إنكار ما علم من الدين بالضرورة ، أو جحود حكم قطعى كالرجم وغيره (انظر على يحى معمر : الإباضية بين الفرق الإسلامية ، جـ٢ ، ص٢٨٦) .

من أهل القبلة كفار نعمة ، وليسوا كفار شرك على نحو مـاذهب الأزارقـة وغـيرهم مـن غلاة الخوارج ، مع ملاحظة أن هذه المقولة لا تزال من المبادىء الهامة للمذهب الإباضى. وعلى الرغم من أن الصوافى[1] يقـر لابـن إبـاض بهـذا الدورالأساسـى فـى نشـأة الفرقـة الإباضية وتمايزها عن الأزارقة وغيرهم ، إلا أنه يقول : إن الأمويـين أعـداء الإباضيـة هـم الذين أطلقوا عليها هذا الإسم ، لأنهم كانوا "لا يريدون نسبة هـذه الفرقـة إلى جـابر بـن زيد حتى لا يجذبوا إليها الأنظار وتميل إليها النفوس ، فنسبوها إلى ابن إبـاض ، وهـو أقـل منزلة من جابر فى العلم ، وإن كان لا يقل عنه فى التقوى والورع والصلاح .

على أنه يمكن أن يوجه إلى الإباضية نفس الاتهـام المشـار إليـه بالنسـبة للأمويـين ، فيقال إنهم نسبوا تأسيس دعوتهم إلى جابر بن زيد بدلا من عبدا لله بن إباض ، لأن جابرا كان فقيها ذائع الصيت ، وذلك حتى يجذبوا إليها الأنظار ، وتميل إليها النفـوس ، خاصـة وأن نظرة الناس إليه تختلف عن نظرتهم إلى ابن إباض الذى ارتبط اسمه بحركة الخوارج .

٣- تفنيد القول بتأسيس جابر بن زيد للدعوة الإباضية

رأينا ما ذهب إليه كل من الشماخى والرقيشى من القول بأن عبدا لله بن إبـاض لم يكن يصدر فى أمره إلا عن رأى جابر بن زيد ، وأن الأخير كان يقود الإباضية مـن وراء ستار . على أن هذا القول لا يتفق مع الحقيقة فى شىء ، وذلك للأسباب الآتية :

(١) لم يشر أى واحد من المؤرخين الإباضيين الذين سبقوهما - على مبلغ علمى- إلى أن ابن إباض كان يصدر فى أمره عن جابر بن زيد .

(٢) لم يذكر الشماخى ولا الرقيشى المصدر الذى اعتمد عليه فى هذا الصـدد ، إذ اكتفى الأول بقوله :"وفى حفظى" بينما قال الثانى "بلغنا" . علما بأن كلا منهما يحـرص على ذكر مصادره بالنسبة لأغلب المعلومات التى يوردها فى كتابه .

---

(١) الإمام جابر بن زيد ، ص ١٦١ - ١٦٢ .

(٣) ثمة تناقض واضح فيما يذكره كل من الشماخى والرقيشى "بالنسبة لدور عبدا لله بن إباض ، فيقول الشماخى[1] : "عبدا لله بن إباض المرّى التميمى إمام أهل التحقيق ، والعمدة عند شغب أهل التفريق ، سلك بأصحابه محجة العدل ، وفارق سبل الضلالة والجهل" . ثم يضيف إلى ذلك عبارة " وفى حفظى أنه يصدر فى أمره عن رأى جابر بن زيد" وهى عبارة لا تستقيم مع ما تقدمها من وصفه لابن إباض بالإمام والعمدة (المرجع المعتمد) لأهل التحقيق (الإباضية) ، أضف إلى ذلك أن له أصحابا سلك بهم محجة العدل . أما الرقيشى[2] فنلاحظ أنه أطلق على أشخاص مثل : مرداس وعبدا لله ابن إباض وأبى عبيدة مسلم بن أبى كريمة اسم "أئمة المسلمين" وميز جابرا عنهم بأنه "إمامهم فى الدين" . لكن الرقيشى يصف ابن إباض - فى عبارة أخرى[3] بأنه "إمام فى الدين" أيضا ، فضلا عن كونه أول من فارق الفرق المتطرفة وأوضح فسادها .

(٤) إن القول بأن عبدا لله بن إباض كان يصدر فى كل أموره عن رأى جابر ابن زيد لحرص الأخير على التخفى والعمل من وراء ستار - هذا القول لا دليل عليه ، خاصة وأن السلطات الأموية لا يعقل أن تؤذى شخصا ينتقد معتقدات الفرق المعارضة للأمويين علانية ، لأن هؤلاء لم يتبنوا أياً من هذه الفرق مثلما فعل العباسيون مثلا بالنسبة للمعتزلة فى فترة من فترات عصرهم الأول . كما أن بعض الفرق كالخوارج والشيعة كان أصحابها يبذلون قصارى جهدهم للإطاحة بالدولة الأموية ، ولذلك فلا يعقل أن يتعرض الأمويون بالأذى لمن يناظر هذه الفرق ويدحض آراءها . وما دام الأمر كذلك ، فإن جابر ابن زيد ليس فى حاجة إلى أن يتخفى وراء ستار ، ويوحى لعبدا لله بن إباض أو لغيره بأن ينوب عنه فى مناظرة أصحاب الفرق المشار إليها وبيان فساد اعتقاد أصحابها

---

(١) السير ، جـ١ ص٧٣ .

(٢) مصباح الظلام ، ورقة ٢٠ .

(٣) ونص هذه العبارة هو : "الإباضيون منسوبون إلى إمامهم فى الدين عبدا لله بن إباض ...وهو الذى فارق جميع الفرق الضالة عن الحق ، وهم المعتزلة ، والقدرية ، والصفاتية ، والجهمية ، والخوارج ، والروافض والشيع . وهو أول من بين مذاهبهم وفساد اعتقاداتهم بالحجج القاهرات والآيات المحكمات النيرات (انظر سالم الحارثى : العقود الفضية ، ص ١٢١) .

علما بأن المصادر الإباضية[1] تؤكد أن جابرا كان يناظر الخوارج بنفسه وعلانية ، وأنهم - فى مواجهته - لم يكن يسعهم إلا السكوت . كما ينقل الشماخى[2] عن المؤرخ الإباضى أبى سفيان محبوب بن الرحيل قوله : "كان جابر يأتى الخوارج فيقول لهم : أليس قد حرم الله دماء المسلمين بدين ؟ فيقولون : نعم ، وحرم الله البراءة منهم بدين ؟ فيقولون : نعم . فيقول : أو ليس قد أحل الله دماء أهل الحرب بدين بعد تحريمها بدين ؟ فيقولون : بلى . فيقول : وحرم الله ولا يتهم بدين بعد الأمر بهابدين ؟ فيقولون : نعم ، فيقول : هل أحل ما بعد هذا بدين ؟ فيسكتون" . وينقل الكاتب الإباضى المعاصر على يحى معمر[3] عن أستاذه بيوضى إبراهيم بن عمر قوله :"فأنت ترى أن جابرا سبق هذه الفرق وكان يناظرها" .

يقول أحد الباحثين من غير الإباضية ، وهوعوض خليفات[4] ، إن الإباضية رأو أنه لابد لهم من الإفصاح عن آرائهم ومعتقداتهم ، وخاصة ما يتعلق منها بوجهة نظرهم نحو متطرفى الخوارج ونحو المسلمين المخالفين فى المذهب ، حتى لايتعرضوا للسخط من جانب هؤلاء المسلمين الذين كانوا يعتبرون الأزارقة وغيرهم من الخوارج المتطرفين مارقين تجب محاربتهم والقضاء عليهم . ولهذا كان لابد للإباضية من شخص يفصح عن رأيهم حتى لا توجه إليهم نفس الاتهامات التى وصم بها متطرفوا الخوارج . وكان ابن إباض هو المؤهل للقيام بهذه المهمة الدعائية لقدرته على المناظرة والمجادلة ، ولأنه كان ينتمى إلى قبيلة تميم إحدى أهم قبائل البصرة آنذاك ومن الصعب على الولاة أن يتعرضوا له بأذى خوفا من إغضابها ، والدليل على ذلك أن ابن إباض فى رسالته إلى عبد الملك (بن مروان وصف عثمان بن عفان وخلفاء بنى أمية بالظلم والفساد ، ورغم ذلك فإن الخليفة المذكور لم يتخذ ضده أية إجراءات ، وفى رأى خليفات[5] أن الإمام الحقيقى للإباضية

---

(١) انظر الدرجينى : طبقات المشايخ بالمغرب ، جـ٢ ، ص٢٠٨ .

(٢) السير ، جـ١ ، ص٧٢ .

(٣) الإباضية بين الفرق الإسلامية ، جـ١ ، ص ٢٨٥ ، ٢٨٨ .

(٤) نشأة الحركة الإباضية ، ص٨٢ .

(٥) نفسه ، ص ٨٠

وقتذاك كان جابر بن زيد ، وأنه لم يقم بالمراسلة مع عبد الملك بدلا من ابن إباض لتصميم أتباع الفرقة بأن تبقى الحركة سرية بقدر الإمكان ، وأن يبقى اسم مؤسسها ومنظم دعوتها مستورا حتى لا يبطش به الأعداء والولاة .

على أن أول ما نلاحظه على كلام الباحث المشار إليه هو التناقض الظاهر ، ففى الوقت الذى يشير فيه إلى تصميم أتباع الفرقة الإباضية على أن تبقى حركتهم سرية ، يقول : إن الإباضية رأوا أنه لابد لهم من الإفصاح عن آرائهم ومعتقداتهم . هذا فضلا عن أن مخالفة الإباضية للخوارج المتطرفين فى الرأى والتنديد بهم لا يحتاج إلى شخص تحميه قبيلة قوية من بطش الولاة الأمويين لأن هؤلاء -كما سبق أن ذكرنا- لا يعقل أن يتعرضوا بأى أذى لمن يقوم بهذا التنديد ، بل على العكس يكون فى أمان من أذاهم . كما أننا لا نوافق على القول بأن ابن إباض كان فى منعة من قومه بنى تميم الذين يطلق عليهم الإباضية[1] اسم "الحجر الخشن" ، ويبالغون فى حجم قوتها إلى حدّ القدرة على تجنيد مائة ألف ضارب سيف[2] ، لأن ولاة الأمويين من أمثال زياد ابن أبيه وابنه عبيدا لله والحجاج بن يوسف الثقفى كانوا يضربون بشدة على أيدى أى شخص يرون فيه خطرا على الدولة الأموية ، غير عابئين البتة بالقبيلة التى ينتسب إليها ، بل إن زيادا كان يتوعد كل قبيلة بإجلائها وحرمانها من العطاء ، إن هى تقاعست عن قتال من ينضم من أبنائها إلى الخوارج ، وكذلك كانت القبائل إذا أحست بخارجية فيهم شدتهم وأتت بهم الوالى المذكور[3] . وقد استمر هذا النكال بالخوارج ، ولكن بصورة أبشع ، على عهد كل من عبيد الله بن زياد والحجاج ، ولا يغيب عن بالنا أن أعدادا كبيرة من المحكمة - بما فيهم عبدا لله بن إباض - كانوا فى سجن ابن زياد بالبصرة ، وأن هؤلاء لم يخرجوا منه إلا بعد موت الخليفة يزيد بن معاوية واضطراب أحوال الأمويين ، ذلك الاضطراب الذى حمل ابن زياد على الهروب إلى الشام . أما الحجاج فإن بطشه بأعداء الدولة الأموية مشهور لا يحتاج أى بيان ، ولكنه مع ذلك كان يلين بالنسبة لغير المتطرفين

---

(١) سالم حمود السيابى : إزالة الوعثاء عن أتباع أبى الشعثاء ، ص٥٥ .

(٢) انظر يحى بكوش : فقه الإمام جابر بن زيد ، ص١٦ .

(٣) المبرد : الكامل فى الأدب ، جـ٣ ، ١٣٦ - ١٣٧ ، والطبرى : تاريخ الأمم ، جـ٥ ، ص٢٨٨.

من هؤلاء الأعداء ، وذلك تمشيا مع السياسة العامة للأمويين وقتذاك ، وفى ظل هذه السياسة لقى عبدا لله بن إباض شيئا من التساهل ، لأنه اعتنق خطا فكريا معتدلا ، كما ظل طوال حياته من القعدة و لم ينادى بالخروج والثورة . علما بأن أبا بلال مرداس ابن حدير لقى مصرعه ومعه كل أصحابه سنة ٦١ هـ لما خرجوا على الأمويين وقتذاك ، على الرغم من إعتدال منهجه ، وكونه من قبيلة تميم ، بل إن زعيم هذه القبيلة المشهور ، وهو الأحنف بن قيس كان يدارى الخليفة معاوية بن أبى سفيان ويتجنب إثارته ، وذلك على الرغم من أن سطوة معاوية – على حدّ قول الكاتب الإباضى سالم بن حمود السيابى[1] لا تقاس بجبروت عبد الملك بن مروان .

أضف إلى ذلك أنه من المتفق عليه أن جابر بن زيد كان أكثر علما وأقوى حجة من عبدا لله بن إباض ، فضلا عن أنه كان من الأزد الذين لا يستهان بقوتهم فى البصرة ، حتى أن زعيمهم المهلب بن أبى صفرة تمكن بفضل المؤازرة التى لقيها منهم خاصة من أن يحمى البصرة من خطر الخوارج الأزارقة ، مما حدا بالبعض[2] إلى أن يطلق عليها اسم "بصرة المهلب" . وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على أن الأزد كانوا أقوى شكيمة وأكثر قوة من تميم أو غيرها من القبائل التى كانت تقيم بهذه المدينة .

كما يذكر خليفات[3] أنه من الصعب التوفيق بين كون ابن إباض إمام أهل التحقيق ورئيس القعدة ورئيس من بالبصرة وغيرها من الأقطار من جهة ، وبين كونه لا يصدر فى أفعاله إلا بأمر جابر بن زيد الذى تعتبره المصادر الإباضية المؤسس الحقيقى لدعوتهم . إلا أن الباحث المذكور يعطى تفسيرا لهذا التناقض من وجهة نظره فيقول : "من المحتمل أن جابرا كان الإمام الروحى وفقيه الإباضية ومفتيهم ... وكان ابن إباض المسئول عن الدعوة والدعاة فى شتى الأقطار ، ولذلك سمته المصادر (الإباضية) رئيس القعدة فى البصرة وغيرها من الأمصار . وتاريخ الدعوة الإباضية يشير إلى اشتراك بعض

(١) طلقات المدفع الرياضى ، ص٧٧ .

(٢) العوتبى : الأنساب ، جـ٢ ، ص١٣٦ .

(٣) نشأة الحركة الإباضية ، ص ٨٠ .

الأشخاص البارزين والمجتهدين فى المسئولية إلى جانب الإمام الأكبر لهم . وقد حدث مثل ذلك زمن أبى عبيدة مسلم بن أبى كريمة التميمى الذى أناط المهام المالية والعسكرية والإشراف على سير الدعوة خارج البصرة إلى أبى مودود حاجب الطائى . ولما كان أبو عبيدة آنذاك معروفا لدى الناس بأنه شيخ الإباضية وزعيمها فى البصرة ، فإن المصادر لم تخلط بينه وبين حاجب الطائى كما فعلت مع جابر وابن إباض ،وذلك لأن جابرا كان قد أخفى معتقده واستعمل التقية الدينية ، فلم يخطر على بال أحد أنه زعيم القعدة ومؤسس مذهبها" .

على أن تفسير خليفات للتناقض المشار إليه غير مقبول للأسباب الآتيه :

(أ) إن المصادر الإباضية[1] تصف عبد الله بن إباض بأنه "رئيس العقد" ، ولاتصفه بأنه رئيس القعدة على النحو الذى يذكره خليفات . ومن المعلوم أن الذى أطلق اسم "القعدة" على الإباضية هو نافع بن الأزرق تحقيرا لهم ، لأنهم - من وجهة نظره – قعدوا عن الجهاد فى سبيل الله ولم يخرجوا لمحاربة الولاة والحكام الظالمين .

ومن الطبيعى ألا يعترف الإباضية بهذه التسمية التى أطلقت عليهم من قبل عدوّ لهم ، ولذا يصفون ابن إباض بأنه رئيس العقد . ومعنى ذلك - كما سبق أن أوضحنا - أنه يأتى على رأس عقد الإباضية الذى يمثل كل إباضى فريدة من فرائده .

(ب) حقيقة يذكر الشماخى[2] أن المهام المالية والعسكرية والفصل فى المنازعات كانت تسند إلى أبى مودود حاجب الطائى ، أحد أعيان الإباضية على عهد إمامها الثانى أبى عبيدة مسلم بن أبى كريمة ، ولكن المؤرخ المذكور أورد فى نفس الوقت أن الإباضية فى البصرة وخارجها كانوا يرجعون إلى الإمام أبى عبيدة دون سواه فى الأمور الدينية والمسائل الفقهية[3] . كما يقول المؤرخ الإباضى المتوفى قبل الشماخى بستة قرون ، وهو

---

(١) انظر الدرجينى : طبقات المشايخ بالمغرب ، ج٢ وص ٢١٤ .

(٢) السير ، ج١ ، ص ٨٦ .

(٣) السير ، ج١ ، ص ٨٦ .

أبو زكريا[1] ، إن أبا عبيدة هو الذى أشار على الدعاة وحملة العلم المغاربة باختيار أبى الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعارفى إماما لهم وتنصيب إسماعيل الغدامسى قاضيا . هذا فضلا عن أن أبا عبيدة نفسه قد خلف لنا مؤلفا بعنوان "رسالة فى أحكام الزكاة" ومما جاء فيها أن إباضية المغرب كتبوا إليه يخبرونه بقيام دولتهم ويطلبون رأيه فى بعض الأمور . وقد فرح أبو عبيدة بكتابهم هذا غاية الفرح وأرسل إليهم يهنئهم على هذا التوفيق ويجيبهم على بعض ما استفسروا عنه[2] . وهكذا يتبين لنا أن إمام الإباضية أبا عبيدة ـ وليس حاجب الطائى ـ هو الذى كان مسئولا عن الدعوة والدعاة داخل البصرة وخارجها ، ولذلك لم يوصف حاجب من قبل مؤرخى الإباضية بأنه رئيس من بالبصرة وخارجها ، لأن إشراك الإمام له فى المسئولية على النحو المذكور لايمكن أن يضفى عليه الصفة المشار إليها ، تلك التى لاتنطبق إلا على الإمام ذاته .

(ج) تذكر المصادر الإباضية[3] أن الحجاج الثقفى أدخل جابر بن زيد سجنه ، كما نفاه فتره إلى عمان . ولو أن جابرا كان يخفى معتقده ويلجأ إلى التقية الدينية ماحدث له ذلك . كما يقول على يحى معمر[4] : "وكان جابر يندد فى دروسه ومجتمعاته بأولئك الذين انحرفوا عن دين الله ... وكان يبارك الثورة التى تطيح بالظلم وتنزع الحكم من أيدى الخونة لتضعه بين أيدى أمينة" . ولاشك أن مايقوله هذا الباحث الإباضى المشهور[5] فيه دلالة على أن جابر لم يكن يخفى معتقده .

---

(1) سير الأئمة وأخبارهم ، ص ٥٦ .

(2) رسالة أبى كريمة فى الزكاة ، ص ٣ .

(3) انظر الشماخى : السير ، ج١ ، ص ٧١ ،٨٦ ، والحارثى: العقود الفضية ، ص ١٠٢ .

(4) الإباضية فى موكب التاريخ ، ج١ ، ص ١٤٥ .

(5) يحظى على يحى معمر ، وهو كاتب إباضى ليبى توفى قريبا ، بمكانة مرموقة بين الإباضية فى المشرق والمغرب ، لأنه ألف كتابين على درجة كبيرة من الأهمية عندهم ، حاول من خلالهما أن ينفى أية علاقة بين الخوارج والإباضية ، وأنحى باللائمة على الكثير من المورخين وكتاب الفرق من أهل السنة لتحاملهم على الإباضية من وجهة نظره ، متهما إياهم بالغفلة أو التحيز .

(د) لو صح أن جابر بن زيد كان مؤسس الفرقة الإباضية ، وأنه لجأ إلى التقية وأناب عنه ابن إباض للتحدث باسم هذه الفرقة ، لأصبح ذلك تقليد ا متبعا لدى أئمة الإباضية من بعده ، وبخاصة فى الفترة التى يطلقون عليها اسم "مرحلة الكتمان" . لكن ذلك لم يحدث . والمعروف أن أئمة طائفة الإسماعيلية الشيعة هم - على مبلغ علمى — أول من لجئوا إلى التقية فى مرحلة الستر ، وكان الواحد ينيب عنه وقتذاك شخصا يطلق عليه اسم "الحجة" .

(هـ) ذهب الصوافى[1] ، وهو كاتب إباضى معاصر ، إلى أن عبد ا لله بن وهب الراسبى (إمام المحكمة وقائدهم فى معركة النهروان) كان ممن أخذ عنه جابر بن زيد وصحبه وتأثر به . كما يزعم بعض الكتاب الإباضيين المحدثين[2] أن جابرتزعم المحكمة بعد وفاة الراسبى مباشرة . على أن هذا الكلام من جانب هؤلاء الكتاب الإباضيين لايستند إلى أى مصدر تاريخى ، ولايقوم على أية أدلة ، وتلك حقيقة يذكرها أحدهم نفسه ، وهو الصوافى[3] إذ يقول : إن زعامة تلك الجماعة (المحكمة) إنما كانت — لفترة طويلة - لأبى بلال مرداس ، كما آلت ، من بعده إلى عمران بن حطان ، كما اشتهر إلى جانبهما ثم بعدهما عبد ا لله بن إباض حتى لقد نسب إليه المذهب ، و لم ترد إشارة فى تلك الفترة عن جابر بن زيد وعلاقته بتلك الجماعة" . علما بأن عمران بن حطان الذى تولى زعامة القعدة بعد مرداس توفى فى العقد التاسع من القرن الأول الهجرى[4]وذلك على عهد ولاية الحجاج بن يوسف الثقفى للعراق (٧٥ -٩٥ هـ) .

كما أن المعروف أن جابرا ولد فى عمان خلال الفترة مابين ١٨- ٢٢ هـ على

---

(١) الإمام جابر بن يزيد ، ص ١٥٠ .

(٢) البارونى : الأزهار الرياضية ، ص٢٨ ، ومحمد على دبور : تاريخ المغرب ، الكبير ، ج٢ ، ص ٣٩٢ .

(٣) الإمام جابر بن زيد ،ص ١٤٨ .

(٤) البغدادى : الفرق بين الفرق ، ج١ ، ص ٩٢ - ٩٣ ، ودائرة المعرف الإسلامية ، مجلد ١٤ ، ص ٢٣١ .

الأرجح ، وأنه رحل إلى البصرة لطلب العلم ثم طاب له المقام هناك . ولانعرف التاريخ الذى تم فيه هذا الرحيل ، غير أنه يفترض أن يكون جابر وقتذاك قادراً على تحمل مشقة السفر والترحال ، وهذا لايتهيأ له -على وجه التقريب- إلا فى العشرين من عمره . وبناء على ذلك فإنه لم يشارك ، على نحو من الأنحاء ، فى معركة صفين (٣٧هـ) التى أدت إلى انفصال جزء من جيش على ، ولافى النهروان (٣٨هـ) التى أكدت هذا الانفصال وكرسته ، لأنه ربما لم يكن موجودا بالعراق وقتذاك من جهة ، ولأن كتب التاريخ السنية والشيعية والإباضية على حد قول رجب عبد الحليم[1] لم يرد بها ذكر لأى شيئ يتعلق به أو حتى بمجرد ذكر اسمه فى تلك الفتره ، و لم يسمع أحد شيئا عن جابر بن زيد إلا على عهد الحجاج (٧٥- ٩٥هـ) ، أى بعد انتهاء هذه الأحداث بعشرات السنين . هذا فضلا عن أننا لو إفترضنا وجود جابر بن زيد بالعراق وقت مقتل الراسبى فى معركة النهروان سنة ٣٨هـ ، فإن عمره وقتذاك كان يتراوح بين السادسة عشر والعشرين ، أى أنه لم يكن قد اكتسب بعد العلم والخبرة التى تؤهله لوقوع اختيار المحكمة عليه زعيما لهم وموجها وإماما .

(٦) يشير البغدادى[2] إلى أن الصفرية على اختلاف فروعهم يقرون جميعا "بموالاه عبد الله بن وهب الراسبى وحرقوص بن زهير وأتباعهما من المحكمة الأولين ، ويقولون من بعد هؤلاء بإمامة أبى بلال مرداس الخارجى الذى خرج أيام يزيد بن معاوية ، ثم بإمامة عمران بن حطان الذى رثى بلالا لما صلب" .

ومن الثابت أن الإباضية والصفرية كانوا - قبل تمايزهما - يدخلون ضمن القعدة الذين لم يخرجوا مع نافع بن الأزرق إلى الأهواز سنة ٦٤ هـ ، ثم تمايزا فى وقت لاحق ، وهذا هو السبب -كما سبق أن أوضحنا- فى أن كلا من فرقتى الإباضية والصفرية تتولى زعماء المحكمة الأوائل المذكورين . وهنا نلاحظ أن الشماخى والرقيشى ومن جاراهما من الكتاب الإباضيين المحدثين ينفردون بالقول بأن جابر بن زيد كان له دور قيادى فى

---

(١) الإباضية فى مصر والمغرب ، ص ١٥ .

(٢) الفرق بين الفرق ، ص ٧٠ - ٧٢ .

للمحكمة قبل حدوث التمايز بين الفرقتين المذكورتين ، بدعوى أن أبا بلال مرداس وغيره كانوا لايصدرون فى أى رأى لهم إلا عنه . ولو كان لجابر هذا الدور المزعوم ، لكان ضمن زعماء المحكمة الذين تواليهم الصفرية أيضا . وإذا صح أن جابرا قام بهذا الدور من وراء ستار فليس من المعقول أن يعلم به الإباضية دون الصفرية ، وهم الذين كانوا يشكلون مع الإباضية جماعة "القعدة" قبل تمايزهما فى وقت لاحق بعد موت أبى بلال .

٧- وليس ثمة دليل على تزعم جابر بن زيد لمحكمة البصرة فى حياة أبى بلال مرداس ، لأن أبا بلال فى الواقع كان هو زعيم هذه الجماعة بلا منازع . ولذلك فإن قول الرقيشى المشار إليه بأنه لم يخرج على ابن زياد فى سنة ٦١ هـ إلا بناءً على أمر جابر ابن زيد لايتفق مع الحقيقة فى شئ ، ودليلنا على ذلك هو ماأورده الشماخى من أخبار مرفوعة إلى أبى سفيان محبوب بن الرحيل ، وهى أخبار تدل - برغم ماتتسم به من المبالغة الواضحة - على أن أبا بلال اتخذ قرار الخروج على مسئوليته الخاصه ، باعتباره زعيم محكمه البصره وقتذاك . والخبر الأول مفاده أن أبا بلال لما فكر فى الخروج ذهب إلى الكعبة وتعلق بأستارها قائلا : "اللهم إن كنت رضيت ما أريد فأرنى من ذلك علامة ، فأراه الله تلك العلامة التى تدل على رضاه تعالى (ولما عاد إلى البصرة وعزم على الخروج) اجتمع هو وأصحابه فى بيت لبنى تميم فدعوا الله ورغبوا إليه أن يجعل لهم علامة على أنه رضى خروجهم ، فانشق سقف البيت حتى نظروا إلى السماء(١)" . وثمه خبر أخر مفاده أن أبا بلال استشار أصحابه فى أمر الخروج ضد ابن زياد ، فقالوا له : "أنت سيد المسلمين (المحكمة) وبقيتهم ، فخرج"(٢) . من الجلى أنه لو كان لجابر بن زيد أى دور فى خروج أبى بلال لأشار إليه أبو سفيان ضمن هذه الأخبار المشار إليها .

كما أن جابر بن زيد لو كان زعيم محكمة البصرة فى حياة أبى بلال التى انتهت فى سنة ٦١ هـ لذهب مع أعيان هذه الجماعة فى سنة ٦٣ هـ للدفاع عن بيت الله، ضد جيش الخليفة الأموى يزيد بن معاوية الذى سيره لقمع حركة عبد الله بن الزبير العائذ

---

(١) الشماخى : السير ، ج١ ، ص ٦٤ - ٦٥ .

(٢) الشماخى : نفسه ، ص ٦٢ .

وقتذاك بهذا البيت . فقد ذهب فى السنة المذكورة جمع من هؤلاء المحكمة إلى مكة كان من أبرز أعيانه نافع بن الأزرق ، وعبد الله بن إباض ، ونجده بن عامر وغيرهم ، وكان مسيرهم إليها بمشورة نافع بن الأزرق[1] . وقد عاد هؤلاء إلى البصرة وقرروا مع غيرهم من أتباع أبى بلال هناك الخروج ضد الأمويين ، الذين اضطربت أمورهم بعد موت يزيد ابن معاوية فى سنة ٦٤هـ فخرج نافع ابن الأزرق إلى الأهواز ، ولم يلبث أن لحق به آخرون منهم بحيث صار أغلب أتباع أبى بلال وقتذاك ملتفين حول ابن الأزرق . يقول الطبرى[2] : "خرج من بقى منهم بالبصرة فلحق بابن الأزرق ، إلا قليلا منهم ممن لم يكن أراد الخروج يومه ذاك" . وفى هذا الوقت قرر ابن الأزرق ـ كما سبق أن ذكرنا ـ تكفير المخالفين واستباحة الاستعراض ، واستحلال الأمانة وقتل أطفال المخالفين ونسائهم ، إلى غير ذلك مما يعد عدولا عن نهج أبى بلال المعتدل ، وخالفه فى رأيه هذا كل من : نجدة بن عامر وعبد الله بن إباض ، وأبو بيهس ، وكان هذا الخلاف هو بداية ظهور فرق الخوارج التى نسبت كل فرقة منها إلى مؤسس لها من بين أولئك المذكورين . ويهمنا فى هذا الصدد أن نشير إلى أن أحدا من الإباضيين ، أو غيرهم ، لم يقل بأن نافع ابن الأزرق كان يصدر فى رأيه المذكور عن جابر بن زيد . كما أنه ليس ثمة دليل على أن عبد الله بن إباض بالذات ، كان يصدر وقتذاك عن جابر بن زيد دون أتباع أبى بلال المشار إليهم .

ومن الجدير بالذكر أن المصادر الإباضية تتفق مع ماذكره المؤرخون السنيون من أن عبد الله بن إباض ذهب إلى مكة للدفاع عن البيت . يقول الشماخى[3]: "وكان (ابن إباض) رحمه الله على ماحفظت ممن خرج إلى مكة لمنع حرم الله من مسلم عامل يزيد الملقب بالمسرف" . كما تشير المصادر الإباضية إلى أن جابرا دأب على الذهاب إلى مكة للحج كل سنة ، وأنه حج أربعة وعشرين حجة على ناقة واحدة[4]. فلو كان زعيما

---

(١) الطبرى : تاريخ الأمم ، ج٥ ، ص ٥٦٧ .

(٢) الطبرى : نفسه ، ص ٥٦٤ .

(٣) السير ، ج١ ، ص ٧١ .

(٤) الشماخى : السير ، ج١ ، ص ٦٨ ، والحارثى : العقود الفضية ، ص ٩٩ .

لمحكمة البصرة فى حياة أبى بلال وبعد مماته ، لانضم إلى أولئك الذين ذهبوا إلى مكة للذود عن حرم الله ، ولحرصوا على مشورته لما احتدم الخلاف بينهم وبين عبد الله بن الزبير ، ولكن جميع المصادر بمختلف اتجاهاتها لاتشير إلى شيئ من هذا .

كما تذكر المصادر الإباضية واقعة تدل على أن عبد الله بن إباض اتخذ قرارا هاما كان له أبعد الأثر فى نشأة الإباضية وتمايزها ، وهو القعود عن الخروج مع ابن الأزرق ، وذلك بطريقة تلقائية فورية ودون الرجوع إلى أحد ، إذ يقول البرادى[1] : "إن المسلمين (المحكمة) بعد قتل أبى بلال اجتمعوا بجامع البصرة وعزموا على الخروج ، وفيهم عبد الله ابن إباض ونافع بن الأزرق ووجوه المسلمين ، فلما جن الليل ، سمع عبد الله دوى القراء ورنين المؤذنين وحنين المسبحين ، فقال لأصحابه : أعن هؤلاء أخرج ، فرجع" .

قد يقال : إن محكمة البصرة من أتباع أبى بلال كانوا يخشون فتك الأمويين بإمامهم (المزعوم) جابر ، ولذلك حاولوا ستره عن الحرب على نحو ماذكره الرقيشى. ولكن الثابت أنه عند موت يزيد بن معاوية سنة ٦٤هـ ، اضطربت أحوال الأمويين وضعفت شوكتهم ، لدرجة أن محكمة البصرة حطموا أبواب السجون ، وفشوا فى الناس يؤلبونهم على والى العراق عبيد الله بن زياد حتى اضطروه للهرب إلى الشام[2]. ومن الطبيعى أنه لاخوف على جابر بن زيد فى مثل هذه الظروف من جانب أعدائه ، وبالتالى فإنه ليس فى حاجة إلى أن يتستر عليه المحكمة وقتذاك . وإذا صح أنه كان العقل المدبر لهم وأنهم كانوا لا يصدرون فى شيئ إلا عنه ، فلماذا تبادل ابن الأزرق الكتب مع عبد الله ابن إباض ونجدة بن عامر وغيرهما دون أن يبعث إلى جابر بأى كتاب للاسترشاد برأيه فى هذا المنعطف الخطير من تاريخ المحكمة ؟ ولماذا لم تشر المصادر إلى أى دور لجابر بن زيد فى الإنقسام الذى حدث بين الخوارج فى سنة ٦٥ هـ وأدى إلى ظهور فرق الأزارقة والنجدات والإباضية والبيهسية ؟ .

---

(١) الجواهر المنتقاة ، ص ١٥٦ .

(٢) المبرد : الكامل فى الأدب ، ج٣ ، ص ١٥٨- ١٥٩ .

يقول عوض خليفات[1] : "والواقع أن جابرا كان ذا علاقة وثيقة بحركة الخوارج القعدة منذ وقت مبكر ، وأصبح أحد مفكريها البارزين منذ بداية النصف الثانى للقرن الأول الهجرى وقبل مقتل أبى بلال مرداس عام ٦١ هـ ... ويستنتج من المعلومات الواردة فى المصادر الإباضية أن جابر بن زيد قد انضم إلى القعدة إبان ولاية عبيد الله ابن زياد للعراق (٥٦/٥٧ هـ -٦٤هـ)" . وفيما يلى الأسباب التى ذكرها خليفات[2] لإنضمام جابر لحركة الخوارج القعدة إبان ولاية ابن زياد :

(أ) كان جابر يصلى الجمعة فى المسجد الجامع بالبصرة خلف ابن زياد ، وعندما كان أصحابه من القعدة يعاتبونه على ذلك كان يجيبهم بقوله : "إنها صلاة جامعة وسنة متبعة" .

(ب) كان جابر يتردد على مكة ويلتقى فيها بعبد الله بن عباس ليأخذ عنه العلم والحديث . وكان يصحبه صديق له حميم يدعى أبو فقاس الأسود بن قيس الذى كان يرى رأى الإباضية ، ويبدو أن الرجلين كانا يرتحلان سنويا إلى مكة ، ربما فى موسم الحج، وكانا يلتقيان بابن عباس . وفى إحدى السنوات قدم جابر إلى مكة منفردا ولقى ابن عباس الذى استغرب غياب ابى فقاس ، صاحب جابر ، وسأل جابرا فأخبره بأنه فى سجن ابن زياد . فقال ابن عباس : وإنه لمتهم ؟ فقال جابر : نعم ، فأضاف ابن عباس اللهم بلى ! وخاطب جابرا وقال : أو ما أنت متهم ؟ قال جابر : اللهم بلى .

(ج) إن شيخا من الإباضية يدعى أبو سفيان قنبر قد أخذه عبيد الله بن زياد وجلده ليدل على أحد من المسلمين (الإباضية) فلم يفعل . وقال جابر بن زيد : "كنت قريبا منه ، وماكنت أنتظر إلا أن يقول هذا هو ، فعصمه الله" .

(د) إن جابر بن زيد وأبا بلال مرداس دخلا مرة على عائشة رضى الله عنها ، فعاتباها على ماكان منها يوم الجمل ، فاستغفرت الله تعالى وتابت مما كانت قد دخلت فيه .

---

(١) نشأة الحركة الإباضية ، ص ٨٠ - ٩٠ .

(٢) نفسه ، ص ٩١- ٩٢ .

(هـ) كان أبو بلال يبكى فى جوف الليل حتى مايطيق أن يقوم ، ولقد كان من تشوقه إلى جابر بن زيد أنه يخرج من عنده بعد العتمة ، ثم يأتيه قبل الصبح فيصلى معه ، فيقول له جابر : يا أخى أشققت على نفسك فيرد قائلا : وا لله لقد طالما هبت نفسى بلقاك ، شوقا إليك حتى أتيتك .

على أن الأسباب المشار إليها لايعول عليها فى إثبات صلة جابر بن زيد بحركة الخوارج القعدة ، لاعلى عهد ابن زياد ولا على عهد غيره ، وذلك لما يلى :

أولا : ذكر أبو عبد ا لله الكندى[1] الذى عاش فى القرن الخامس بعد الهجرة أن جابر بن زيد صلى الجمعة خلف الحجاج لاخلف ابن زياد . أما سالم الحارثى الذى اعتمد عليه خليفات[2] فى القول بأن صلاة جابر للجمعة كانت خلف ابن زياد ــ فإنه من الكتاب المحدثين و لم يذكر المصدر الذى نقل عنه . كما أن الحارثى[3] يقول مانصه : "كان (جابر) يصليها خلف زياد وولده عبيد ا لله وخلف الحجاج" . فضلا عن أنه يشير إلى أن معاتبة الإباضية لجابر كانت لصلاته خلف الحجاج .

على أن صلاة جابر بن زيد الجمعة فى المسجد الجامع بالبصرة خلف الوالى الأموى ، سواء كان زياد أو ابنه عبيد ا لله أو الحجاج ، ومعاتبة الإباضيين المعاصرين له على ذلك، لاتدل على انضمام جابر لحركة الخوارج القعدة ، بل على العكس تدل على نفى ذلك، لأن هؤلاء الإباضيين كانوا يصفون خلفاء بنى أمية الذين عاصرهم جابر بأنهم أئمة ضلالة وكفر وفجور ، وقد جاء هذا الوصف صراحة بالنسبة لكل من معاوية ابن أبى سفيان وابنه يزيد ، وذلك على لسان عبد ا لله بن إباض فى رسالته المشهوره إلى عبد الملك بن مروان[4] ، فهما -على حد تعبيره- من أئمة الضلالة الذين يحكمون بغير ماأنزل

---

(١) كتاب بيان الشرع ، ج١٣ ، ص ١٦٦ .

(٢) نشأة الحركة الإباضية ، ص ٩٠ .

(٣) العقود الفضية ، ص ٩٧ .

(٤) انظر : البرادى : الجواهر المنتقاه ، ص ١٥٦ - ١٥٧ ، والحارثى : العقود الفضية ، ص ١٢٥ - ١٢٦ .

الله ، ويقسمون بغير قسمة الله ويتبعون أهواءهم بغير سنة من الله ... وهؤلاء قال الله عز وجل فيهم : **﴿وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لاينصرون﴾**[1] ، وفيهم قال : **﴿فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهادا كبيرا﴾**[2] وقال: **﴿ولاتطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه﴾**[3] .

وبالطبع ينسحب وصف الإباضية للخليفتين الأمويين المذكورين على الولاة الأمويين بالعراق ، أمثال : زياد وابنه عبيد الله والحجاج ، بدليل أن أبا مرداس وأصحابه حين خرجوا على عبيد الله بن زياد ثائرين سنة ٦١ هـ ، وصفوه بأنه يطيع الفجرة ، ويسفك الدماء ، ويأخذ المال الحرام ، ويعطل الحدود ، ويرتشى فى الحكم ، ويقتل بالظنة ، ولايقبل معذره[4] .

ويشير المؤرخون الإباضيون[5] إلى أن والد الربيع بن حبيب ، وهو من إباضية البصرة ، عاتب جابر بن زيد على صلاته خلف ولاة الأمويين المذكورين بالعراق ، فرد عليه بقوله : "إنها صلاة جامعة ، وسنة متبعة" . وتدل هذه المعاتبة على أن الإباضيين بالبصرة كانوا لايأتمون بولاة الأمويين فى صلاتهم ، على عكس جابر بن زيد الذى لم يكن يرى غضاضة فى ذلك ، ومن البديهى أن جابرا لو صح أنه كان من مؤسسى المذهب الإباضى وإمامه الذى لايصدر الإباضيون إلا عنه ، لما عاتبه الإباضية وقتذاك على شئ يفعله هو ولا يفعلونه هم .وإن دل ذلك على شئ فإنما يدل على أن نظرة جابر بن زيد إلى الخلفاء الأمويين وولاتهم كانت تختلف عن النظرة إليهم من جانب معاصريه من الإباضيين .

---

(١) سورة القصص ، آية ٩٧ .

(٢) سورة الفرقان . آية ٥٢ .

(٣) سورة الكهف ، آية ٢٨ .

(٤) المبرد : الكامل فى الأدب ، ج٣ ، ص ١٤٠ ، والدرجينى : طبقات المشايخ ، ج٢ ، ص ٢٢٠ ، والشماخى ، ج١ ، ص ٦٢ .

(٥) انظر الحارثى : العقود الفضية ، ص ٩٧ .

علما بأن سبب معاتبه الإباضية لجابر لما رأوه يصلى الجمعة خلف الحجاج لاترجع إلى أنه كان إمامهم ومؤسس مذهبهم ، وإنما لما يعرفونه عن تنديده بالظلم والطغاة باعتباره عالما كبيرا وفقيها لاتأخذه فى الحق لومة لائم ، خاصة وأنه من أزد عمان الذي ينتسب إليهم والد الربيع بن حبيب ، وهو الإباضى الذى وجه المعاتبة المشار إليها لجابر ابن زيد[1].

ومن الجدير بالذكر أن أبا عبد الله الكندى[2] ذكر مايفهم منه أن الإباضية اختلفوا فى وقت لاحق حول صحة الجمعة خلف الإمام الفاجر ، فمنهم من حرمها ومنهم من أجازها . كما ذكر المؤرخ الإباضى القلهاتى[3] تحت عنوان "فصل فيما لايتم الإسلام إلا به" مانصه : "وصلاة الجمعة : كما فرضها الله سبحانه وتعالى وسنها رسوله وأئمة الهدى من بعده فى الأمصار الممصرة ، وخلف أئمة العدل" .

ثانيا : بالنسبة لواقعة تخلف أبى فقاس عن مرافقة جابر بن زيد فى سفره إلى مكة ذات عام واستفسار ابن عباس عن السبب فى ذلك ، يلاحظ عليها مايأتى :

(أ) أن المصادر الإباضية تتضارب فيما تورده بشأن هذه الواقعة تضاربا واضحا . فرواية الشماخى[4] التى استند إليها خليفات[5] فى هذا الصدد نصها : " .... فقال ابن عباس (لجابر) : أين صاحبك ؟ قال : أخذه ابن زياد . قال ابن عباس لجابر : وإنه لمتهم؟ قال : نعم أو ماأنت متّهم ؟ قال : اللهم بلى" . أما رواية الدرجينى[6] فنصها:".....فقال له ابن عباس : أين صاحبك ؟ قال (جابر) : أخذه عبيد الله بن زياد . فقال ابن عباس : وإنه لمنهم ؟ فقال له جابر : نعم . أو ما أنت منهم ؟ قال : اللهم لا" .

---

(١) الحارثى : العقود الفضية ، ص ٩٧ .

(٢) بيان الشرع ،ج١٣ ، ص ١٦٥ - ١٦٦ .

(٣) الكشف والبيان ، ج٢ ، ص ٤٧٣ .

(٤) السير : ج١ ص ٨٩ .

(٥) نشأة الحركة الإباضية ، ص ٩١ ، حاشية ٣٠ .

(٦) طبقات المشايخ ،ج٢ وص ٢٣٣ .

وهكذا نرى أن جابرا فى رواية الشماخى يسأل ابن عباس عما إذا كان متهما فيرد عليه بالإيجاب . أما فى رواية الدرجينى فإن ابن عباس يرد على سؤال جابر نفسه بالنفى .

(ب) إن العبارة الواردة على لسان ابن عباس مستفسرا بها من جابر عن سبب سجن ابن زياد لأبى فقاس ، وهى : "وإنه لمتهم ؟" أو "وإنه لمنهم ؟" تحتمل أكثر من معنى : فيمكن أن يكون مقصودا بها اتهامه بأنه من الخوارج أو الشيعة ، كما يمكن أن تكون التهمة بأنه من العلماء الذين لم يخفوا استنكارهم لمظالم ابن زياد وتجاوزاته ، خاصة وأن فى سيرة ولاة بنى أمية مايشهد بتنكيلهم بهذا الصنف من العلماء ، مثلما فعل الحجاج مع الحسن البصرى حين طارده حتى اضطره إلى التخفى فى دار أحد مريديه بالبصرة ، ومع جابر بن زيد حين وضعه فى السجن تارة ونفاه إلى عمان تارة أخرى .

(ج) من الواضح أن خليفات[1] نقل رواية الشماخى على نحو يخالف حقيقة ماجاء بها ، فنص مانقله هو : "فقال ابن عباس وإنه لمتهم ؟ قال جابر : نعم . فأضاف ابن عباس : اللهم بلى ! وخاطب جابرا وقال : أو ما أنت متهم ؟ قال جابر : اللهم بلى". علما بأن الصحيح هو أن جابرا هو الذى قال لابن عباس عبارة" أو ماأنت متهم ؟" وذلك طبقا لما ورد عند كل من الشماخى والدرجينى على النحو المشار إليه . كما أن جابرا لو كان متهما عند ابن زياد مثل رفيقه أبى فقاس ـ طبقا لمفهوم خليفات ــ لوضع فى السجن مثل رفيقه المذكور . فضلا عن أن القول بأن جابرا كان متهما يتعارض مع ماذهب إليه الباحث المذكور من أنه كان يتكتم عقيدته ولايظهر مذهبه ويقدم ابن إباض للتحدث نيابة عنه .

(د) إن ورود اسم أبى فقاس ضمن طبقات الإباضية عند الشماخى لايعول عليه، لأن المؤرخ المذكور كثيرا ماوضع رجالا بين الإباضية وماهم منها ، مثل الأحنف بن قيس الذى سبق أن فندنا ماذكره عن إباضيته ، ومثل عبد الملك ولد الخليفة الأموى عمر ابن عبد العزيز الذى ينفرد الإباضية بالإشارة إلى اعتناقه مذهبهم .يقول الدرجينى[2] :

---

(١) نشأة الحركة الإباضية ، ص ٩١ .

(٢) طبقات المشايخ ، ج٢ ، ص ٢٣٣ .

"فأجابهم عبد الملك بن عمر (أى أجاب وفد الإباضية إلى والده) وقبل ما دعوه إليه).

بل إن بعض الإباضية[1] يذهب إلى أن عمر بن عبد العزيز نفسه اعتنق المذهب الإباضى. كما يضع الشماخى[2] إياس بن معاوية ، قاضى الخليفة الأموى المذكور على البصرة ، بين الإباضية ، وذلك ـ على مايبدو ـ لأنه مدح جابر بن زيد" . ومن المعلوم أن الإباضية يدعون أن جابرا إمامهم ومؤسس مذهبهم . والظاهر أن كل من مدحه أو رافقه فى سفر أو تبادل معه الرسائل فى مسالة علمية أو تتلمذ على يديه، فهو ـ من وجهة نظرهم ـ إباضى .

ثالثا : أما بالنسبة لواقعة تعذيب عبيد الله بن زياد لأبى سفيان قنبر ليدله على من على رأيه من المحكمة ، فيلاحظ أن خليفات أقحم اسم ابن زياد دون سند ، لأن المصدر الذى استند إليه بالنسبة لهذه الواقعة ، وهو الشماخى[3] ، لم يرد فيه ذكر لابن زياد بالمرة، لاتصريحا ولاتلميحا . فنص ماقاله المؤرخ المذكور فى هذا الصدد هو : "كان أبو سفيان قنبر شيخا كبيرا أخذ وجلد أربعمائة سوط على أن يدل على أحد من المسلمين (الإباضية) فلم يفعل . قال جابر بن زيد : وكنت قريبا منه ، وما كنت انتظر إلا أن يقول هذا هو فعصمه الله" . فعلى الرغم من أن عبارة "أخذ وجلد" هذه مبنية للمجهول ، إلا أن خليفات ينسب ضرب الشيخ الإباضى بالسياط لابن زياد ، فى الوقت الذى ينسبه باحث آخر ، وهو رجب عبد الحليم[4] ، إلى الحجاج بن يوسف الثقفى وفى الحقيقة أن هذه الواقعة -لو صحت- لكانت على عهد الحجاج (٧٥- ٩٥هـ) . لأن المصادر الإباضية تشير إلى أن أبا سفيان قنبر كان ضمن وفد الإباضية الذى قابل الخليفة عمر بن عبد العزيز (٩٩/١٠١هـ) . ولما كانت ولاية ابن زياد للبصرة قد انتهت فى سنة

(١) انظر محمد بن يوسف أطفيش : رسالة "إن لم تعرف الإباضية يا عقبى يا جزائرى ، ص١٩ حاشية رقم (١) .

(٢) السير ،ج١ ، ص ٦٧ .

(٣) السير ، ج١ ، ص ٨٦ .

(٤) الإباضية فى مصر والمغرب ،ص ٣٤ .

٦٤هـ ، فليس من المعقول أن يتمكن أبو سفيان من تحمل مشقة السفر إلى دمشق بعد ذلك بنحو ثلاثين سنة ،لأنه كان حالة تعذيبه المشار إليها شيخا كبيرا فى السن .

ونحن وإن كنا لانستبعد تعذيب الحجاج لأبى سفيان قنبر على النحو المشار إليه ، إلا أننا نشك فى صحة العبارة التى وردت فى الرواية التى تحكى واقعة تعذيبه ، ونصها : "قال جابر : كنت قريبا منه وماكنت أنتظر إلا أن يقول : هذا هو ، فعصمه الله" ، لأن هذه العبارة وضعت -على مايبدو- للتذرع بها فى القول بأن جابرا كان يتكتم إباضيته ، علما بأنها تشير إلى قرب جابر من أبى سفيان حالة تعذيبه ، وهذا يعنى أن جابرا كان مسجونا هو الآخر ، كما تعنى -فى نفس الوقت- أن جابرا لم يكن يكتم حقيقة معتقده تجاه الحجاج والأمويين ، وإلا لما وضع فى السجن ، علما بأن بعض المؤرخين الإباضيين أوردوا إشارات إلى سجن جابر ونفيه . واستنادا إلى هذه الإشارات يقول خليفات[٢] : "وقد حبس (الحجاج) جابرا مع بعض أصحابه البارزين مثل ضمام بن السائب وأبى عبيدة مسلم بن أبى كريمة التميمى وصحار العبدى وغيرهم .

ولم يلبث الحجاج أن أطلق سراح جابر ونفاه مع رجل من مشايخ الدعوة (الإباضية) يدعى هبيره ، وهوجد أبى سفيان محبوب بن الرحيل المؤرخ الإباضى وآخر الإئمة الإباضيين فى البصرة . ومن المحتمل أن الإفراج عن جابر كان بشفاعة من صديقه الحميم ، يزيد بن أبى مسلم ، كاتب الحجاج ... بينما بقى زعماؤهم (الإباضية) ومشايخهم فى سجن الحجاج حتى مات عام ٩٥هـ" .

ويعطى خليفات[٢] تفسيرا للسبب الذى حمل الحجاج على سجن جابر بن زيد ونفيه إلى عمان ، وهو ارتيابه فىعلاقات جابر الواسعة واتصالاته الدائمة مع أتباع الحركة الإباضية فى البصرة وخارجها ، مما حمل الحجاج على التضييق عليه ووضعه تحت مراقبته . ولما استغل جابر فرصة حدوث الكراهية بين الأزد والحجاج بسبب تنكيلة بآل المهلب فى إقناع الكثيرين من هؤلاء الأزد بالانضمام إلى الدعوة الإباضية ، قام الحجاج

(١) نشأة الحركة الإباضية ، ص ١٠١ .

(٢) نشأة الحركة الإباضية ، ص٩٩-١٠٠ .

بحبس جابر مع زعماء الإباضية المشار إليهم . على أن ثمة ملاحظات بصدد هذا التفسير نجملها فيما يأتى :

أ - لم يشر أى مصدر -على مبلغ علمى- إلى أن جابرا دعا أحدا من الأزد أو غيرهم إلى الإباضية .

ب - إنه يتعارض مع ماذهب إليه خليفات[1] من أن جابر بن زيد كان يكتم عقيدته الإباضية ، حتى إن سكان البصرة لم ينتبهوا إلى أنه كان إماما وزعيما للقعدة أو حتى أنه كان على علاقة معهم ، "وذلك لأنه أخفى معتقده ، وساعده أصحابه على ذلك ، لأنهم كانوا يحبون ستره عن الحرب والهلاك حتى لاتموت دعوتهم فى مهدها" .

ج - من الواضح أن التهمة التى سجن الحجاج جابرا وأصحابه بمقتضاها -طبقا للتفسير المشار إليه- هى نشاطهم فى نشر الدعوة الإباضية ، وخاصة بين قومهم من أزد عمان . ولو صحت هذه التهمة لما قام الحجاج بنفى جابر بن زيد بعد إطلاق سراحه إلى عمان بالذات . ومن نافلة القول أن سجن الحجاج لجابر ونفيه من البصرة لم يكن بسبب علاقته بالإباضية ، وإنما لكونه عالما حرا لايتردد فى التنديد بمظالم الحكام ، تماما مثل صديقه الحسن البصرى الذى طارده الحجاج حتى اضطره إلى التخفى فى دار أحد مريديه بالبصرة على النحو السابق الإشارة إليه . وفى هذه الحالة يكون من المعقول أن يقبل الحجاج شفاعة كاتبه لجابر فيطلق سراحه من السجن ، وذلك على عكس زعماء الإباضية الذين أبقى عليهم الحجاج فى سجنه ، ولم يخرجوا منه إلا بعد مماته ، ولو أن الحجاج كان قد سجن جابرا بسبب علاقته بالإباضية ، لما كان من المعقول أن يبقى على هؤلاء فى السجن ويطلق سراح جابر الذى كان أكثرهم شهرة ، وبالتالى أشدهم خطرا .

ومن الجدير بالذكر أن كاتب الحجاج المذكور كان شديد الإخلاص لسيده ، ولم يكن يميل إلى مذهب الخوارج على النحو الذى ذكره البعض ، لأنه قتل على يد الخوارج فى أفريقية بعد أن أسندت اليه ولايتها على عهد الخليفة الأموى يزيد بن عبد الملك[2] .

---

(١) نفسه ، ص ٩٢ .

(٢) ابن خلدون : العبر ، ج٤ ، ص ٣٠٤ .

وبذلك لايعقل أن يتشفع هذا الكاتب لجابر بن زيد لدى الحجاج إذا صح أنه كان يعمل على نشر الدعوة الإباضية .

وبالنسبة لنفى جابر إلى عمان بالذات ، فربما لأن الحجاج نجح وقتذاك فى إحكام قبضته عليها . يقول المستشرق ولكنسن[1] : "ويبدو أن ثقته (أى الحجاج) باستحكام قبضته على عمان جعلته يتخذها مكانا للنفى" .

د- لو صح أن الحجاج أدخل جابرالسجن مع زعماء الإباضية المذكورين لعلاقته بدعوتهم ونشاطه فى نشرها بين إخوانه من الأزد وغيرهم ، فلا معنى إذن للعبارة التى نسبت إلى جابر وقيل إنه نطق بها حالة تعذيب أبى سفيان قنبر وهى : "وكنت قريبا منه وما كنت أنتظر إلا أن يقول : هذا هو ، فعصمه الله" .

هـ - إن نفى الحجاج لجابر إلى عمان مع هبيرة جد المؤرخ الإباضى أبى سفيان محبوب بن الرحيل لايدل على أن جابرا كان من الإباضية ، لأن هبيرة هذا لم يعده الإباضية منهم إلا بناء على رواية حفيده أبى سفيان التى تشير إلى نفيه مع جابر . يقول الشماخى[2] : ومنهم (أى من الإباضية) هبيرة جد أبى سفيان محبوب بن الرحيل . وهكذا يتضح أن الدليل على كون هبيرة من الإباضية - فى نظر الشماخى - هو ما ذكر عن نفيه مع جابر إلى عمان . وقد سبقت الإشارة إلى أن الإباضية يعدون كل من رافق جابر بن زيد فى سفر أو اتصل به لأمر من الأمور إباضيا . مع ملاحظة أن نفى الحجاج لهبيره قد لا يعدو السبب الذى من أجله نفى جابر ، ألا وهو استنكار المظالم أيا كان مصدرها ، حتى ولو كانت من الحجاج نفسه . وليس كل من يفعل ذلك يكون بالضرورة إباضيا . كما أنه إذا كان الحفيد إباضيا ، فليس من الضرورى أن يكون الجد كذلك .

رابعا : إن مايقال عن شدة اشتياق أبى بلال مرداس لجابر بن زيد حتى أنه كان

(١) بنو الجلندى فى عمان ، ص ١٨ .

(٢) السير ، ج١ ، ص ٧٦ .

يأتيه كل يوم قبل صلاة الصبح رغم مفارقته له قبل العتمة ، وأنهما سافرا سويا إلى الحجاز حيث قابلا السيدة عائشة - إن ذلك لايفهم منه بالضرورة أن جابرا كان إماما للمحكمة ، وأن أبا بلال تابع له ، لأن الأخير فى الواقع كان هو الذى يتزعمهم بدليل ما سبق أن ذكرناه من أن أصحاب أبى بلال خاطبوه ذات يوم بقولهم : "أنت سيد المسلمين (المحكمة) وبقيتهم"[1] . وأما الصلة الوثيقة بين جابر وأبى بلال فهى – إن صحت لاتعدو أن تكون تقديرا من جانب أبى بلال لعالم كبير مثل جابر الذى كانت له مكانة طيبة بالبصرة و لم يكن يضن بعلمه على أحد . ومن الملفت للنظر حقا أن الشماخى[2] يحاول أن يصور السيدة عائشة بأنها أثمت بخروجها يوم الجمل ، ويجعل توبتها من ذلك الإثم على يدى جابر وأبى بلال بالذات ، فيروى عن أبى سفيان محبوب بن الرحيل قوله : إنهما دخلا عليها وهما بالحجاز وعاتباها على ماكان منها يوم الجمل ، فأعلنت توبتها من ذلك . مع أن خروجها كان من قبيل الاجتهاد ، وبفرض أنها لم تصب ، فلا إثم على المجتهد الذى لم يصب ، بل له الأجر على اجتهاده ، وكونها – رضى الله عنها – من أهل الاجتهاد لاريب فيه[3] . ولذلك لما ظهر عليها على بن أبى طالب رضى الله عنه وأتاها بعد المعركة قائلا : "غفر الله لك" قالت :"ولك" . ما أردت إلا الإصلاح[4] .

ومن الجدير بالذكر أن أبا قحطان[5] ، وهو إباضى توفى قبل الشماخى بسبعة قرون ، يؤكد أن السيدة عائشة أعلنت توبتها على الملأ عقب انتهاء معركة الجمل سنة ٣٦ هـ مباشرة ، وذلك حين جاءها عمار بن ياسر وقال لها :"أخبرينا عن هذا القتال الذى تقاتلينا ، أعهد إليك رسول الله به ، أم رأى رأيتيه؟ فقالت عائشة : بل رأى رأيته .

---

(١) الشماخى : السير ، جـ١ ، ص٦٢ .

(٢) نفسه ، ص٦٥ .

(٣) ابن العربى : العواصم من القواصم ، ص ١٦٤ حاشية ٢٧٥ .

(٤) نفسه ، ص ١٦٣ حاشية ٢٧٥ .

(٥) السير والجوابات لعلماء وأئمة عمان ، ص١٠٨ .

ففرح المسلمون وقالوا : رأى امرأة ، وبصروها بالحق ، فقالت :"إنى استغفر الله وأتـوب إليه . فكبر المسلمون حتى سمعهم من كـان فى عسـكرهم (أى معسـكر على بـن أبـى طالب) ، فكبروا ...فمن هنالك تولى المسلمون عائشة وقبلوا توبتها". ومادامت -رضـى الله عنها- أعلنت عن توبتها بالبصرة سنة ٣٦ هـ ، على نحو ما يقوله أبو قحطان ، فليس من المعقول أن يعاتبها أبو بلال وجابر بن زيد فى الحجاز بعد ذلك ويطلبـان منهـا التوبـة من جديد ، خاصة وأن المسـلمين -كمـا يقـول المؤرخ والفقيـه الإبـاضى القلهـاتى[١]- عليهم واجب أن لا يردوا التوبة على أحد .

يبدو أن حرص المؤرخين الإباضيين علـى القـول بـأن السـيدة عائشـة ندمـت علـى موقفها يوم الجمل يرجع إلى أن الإباضيـة ينسـبون إلى جـابر بـن زيـد تأسـيس دعوتهـم ، وذلك لمكانته العلميـة وحسـن سـيرته مـن جهـه ، ولكونـه مـن أزد عمـان الذيـن اعتنـق الكثيرون منهم هذه الدعوة من جهة أخرى . لكن تردد جـابر علـى السـيدة عائشـة بعـد معركة الجمل ليأخذ عنها العلم ، كـان يعنـى أنـه لم ينكـر عليهـا موقفهـا مـن قتلـة أمـير المؤمنين عثمان بن عفان ووصفها لهم بأنهم استحلوا دمه الحرام بـالبلد الحـرام فـى الشـهر الحرام[٢] . ولما كان هؤلاء القتلة هم أسلاف الإباضية ، لذا حرص مؤرخوهم على الزعم بأن السيدة عائشة ندمت على موقفها المذكور من أسلافهم ، وأنها اسـتغفرت الله تعـالى وأعلنت توبتها أكثر من مرة ، وذلك لتبرير تردد جابر عليها وأخذه العلم منها .

٨- إن التناقض واضح فيما ذهب إليه خليفات من القول بأن جابر بن زيـد تزعـم المحكمة فى البصرة من قبل موت أبى بلال مـرداس بـن أديـه وبعـد موتـه ، لأنـه يقـول : "ويبدو من الروايات أن نجم جابر أخذ يتألق فى سمـاء تلـك الحركـة (الإباضيـة)قبـل عـام ٦١ هـ ، وهو العام الذى قتل فيه أبو بلال مرداس بن أديـه التميمـى ... فـإن القعـدة قـد اتفقوا على أن يتولى جابر بن زيد أمرهم وتنظيم دعوتهم فى المراحل الأولى لتطور الدعوة

---

(١) الكشف والبيان ، جـ٢ ، ص٢٣١

(٢) الطبرى : تاريخ الأمم ، جـ٤ ، ص ٣٦٥ .

فى البصرة ، إيمانا منهم بذكائه واعتمادا منهم على اطلاعه الواسع وتحصيله العميق فى العلوم الدينية ، وخاصة مايتعلق منها بالتفسير وعلم الحديث ، ولعل ذلك هو السبب فى اعتراف أبى بلال له بالزعامة قبل وفاته حتى أنه لم يصدر فى عمله إلا بأمر جابر ومشورته[1] .

على أن القول المذكور يتعارض مع قول لنفس الباحث[2] نصه :"ويبدو أن زعيم القعدة من الخوارج بعد موت مرداس . .. كان الشاعر المعروف عمران بن حطان ، إذ أن المصادر الإباضية تذكر صراحة أنه كان رئيس القعدة بعد وفاة مرداس". ومن الملاحظ أن خليفات[3] لم يشر إلى أية مصادر إباضية فى توثيق القول بأن عمران كان رئيس القعدة بعد وفاة مرداس غير "الدرجينى" ، علما بأن نص عبارة هذا المؤرخ[4] هو :"قال المبرد: كان عمران رأس القعد وخطيبهم وشاعرهم" . ومن الواضح أن الدرجينى لم يقل- لاتلميحا ولا تصريحا - بأن عمران بن حطان ترأس القعدة بعد وفاة مرداس ، وإنما الذى أشار إليه هنا فقط هو ترؤس عمران للقعدة دون تحديد للتاريخ أو الوقت الذى حدث فيه .

(٩) ثمة روايات كثيرة تفيدبأن الإباضية كانوا قد أشاعوا اعتناق جابر بن زيد لمذهبهم ، لكن ذلك تم نفيه ، سواء من قبل جابر نفسه ، أو من قبل بعض المقربين إليه . وفيما يلى نصوص أهم هذه الروايات .

* "أخبرنا سعيد بن عامر وعفان بن مسلم قالا : حدثنا همام بن قتادة عن عزرة قال : قلت لجابر بن زيد إن الإباضية يزعمون أنك منهم . قال : أبرأ إلى الله منهم ، قال سعيد فى حديثه : قلت له ذلك وهو يموت"[5] .

---

(١) عوض خليفات : نشأة الحركة الإباضية ، ص٩٢ .

(٢) نفسه ، ص٧٢ .

(٣) نفسه ، حاشية ٣٧ .

(٤) الدرجينى : طبقات المشايخ بالمغرب ، جـ٢ وص٢٢٦ .

(٥) ابن سعد : الطبقات الكبرى ، جـ٧ ، ص١٨١ .

* "حدثنا أبو هلال ، قال : حدثنا داود بن أبى القصاص عن عزرة الكوفى قال : دخلت على جابر بن زيد فقلت : إن هؤلاء (الإباضية) ينتحلونك . فقال : أبرأ إلى الله من ذلك"(١) .

* "أخبرنا عبد الصمد بن عبد الوارث بن سعيد قال : حدثنا همام بن يحيى عن ثابت البنانى قال : دخلت على جابر بن زيد ، وقد ثقل ، فقلت له : ماتشتهى ؟ قال نظرة من الحسن البصرى . قال : فأتيت الحسن وهو فى منزل أبى خليفة ، فذكرت ذلك له . فقال : اخرج بنا إليه . قال : قلت إنى أخاف عليك . قال : إن الله سيصرف عنى أبصارهم . قال : فانطلقنا حتى دخلنا عليه قال : فقال له الحسن : يا أبا الشعثاء ! قل لا إله إلا الله . قال : فقال : ﴿**يوم يأتى بعض آيات ربك**﴾. قال : فتلا هذه الآية(٢) . قال: (إن الإباضية يزعمون أنك منهم) فقال : أبرأ إلى الله منهم . قال :"ثم خرجنا من عنده"(٣) .

* "حدثنا عبدالله بن محمد ، قال ثنا محمد بن عبد الله بن رسته ، قال ثنا محمد ابن عبيد بن حساب ، قال ثنا حماد بن زيد ، قال ثنا حجاج بن أبى عيينة عن هند بنت المهلب – وذكروا عندها جابر بن زيد – فقالوا إنه كان إباضيا . فقالت : كان جابر ابن زيد أشد الناس انقطاعا إلىّ وإلى أمى ، فما أعلم شيئا كان يقربنى إلى الله إلا أمرنى به ، ولا شيئا يباعدنى عن الله عز وجلّ إلا نهانى عنه ، وما دعانى إلى الإباضية قط ، ولا أمرنى بها ، وإن كان ليأمرنى أن أضع الخمار ، ووضعت يدها على الجبهة"(٤) .

لا يطمئن عوض خليفات(٥) إلى صحة ما جاء فى الروايات المذكورة ، ويذكر

---

(١) نفس المصدر السابق والصفحة .

(٢) نص هذه الأية هو : ﴿**يوم يأتى بعض آيات ربك لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيرا**﴾ (سورة الأعراف آية ١٥٨) .

(٣) ابن سعد : نفسه ، ص ١٨٢ .

(٤) أبو نعيم : حلية الأولياء ، جـ٣ ، ص ٨٩ .

(٥) نشأة الحركة الإباضية ، ص٩٣ – ٩٥ .

ثمانية أسباب لعدم اطمئنانه ، نوردها فيما يلى مصحوبة بمناقشة كل سبب على حدة :

السبب الأول : "إن الحسن البصرى الذى كان صديقا لجابر بن زيد لابد وأنه كان يعرف آراء جابر ومعتقده قبل زيارته له وهو على فراش الموت . وليس ذلك الوقت المناسب لأن يطرح البصرى على جابر مثل هذه التساؤلات" .

* على أنه من المسلم به أن الانسجام فى الآراء هو الذى ألف بين قلبى هذين الصديقين الحميمين ، وبالتالى فليس من المعقول أن يكون معتقد كل منهما على طرفى نقيض ، وهنا يحق لنا أن نتساءل : هل كان الحسن البصرى على علم بأن جابر بن زيد يدين سرا بالإباضية ، بل هو مؤسس فرقتها وإمامها الذى لايصدر رجالها فى رأى إلا عنه كما يدّعون ؟ لو صح هذا لتنافرت آراؤهما فى أمور كثيرة ، منها - على سبيل المثال - الرأى فى عثمان بن عفان رضى الله عنه ، فالإباضية منذ ظهور عبدالله بن إباض على مسرح الأحداث يمجدون قتلته ، ويتبرءون منه وممن يوالونه ، ويصفونه بأوصاف تخرجه كلية من دائرة الإيمان وتجعله من أصحاب الجحيم . ويتضح ذلك مما سجله كل من الطبرى[1] وابن الأثير[2] لما قاله أعيان الخوارج بمكة - ومنهم عبدالله بن إباض - عن الخليفة المذكور أمام عبد الله بن الزبير ، وذلك عندما قدموا إليه من البصرة لمؤازرته فى الدفاع عن البيت ، ثم تخلوا عنه وتبرأوا منه لما أخبرهم بأنه يوالى ابن عفان . كما يتضح موقف الإباضية بجلاء من هذا الخليفة الراشدى مما ورد عنه على لسان عبد الله ابن إباض فى رسالته المشهورة[3] إلى عبد الملك بن مروان ، فمما ، جاء فيها[4] : "وكان من عمل عثمان أنه يحكم بغير ماأنزل الله وقد خالف سبيل الله وسبيل صاحبيه . وقال الله:

---

(١) تاريخ الأمم والملوك ، جـ٥ ، ص٥٦٥ .

(٢) الكامل ، جـ٤ ، ص ١٦٦ .

(٣) يعتز الإباضيون كثيرا بهذه الرسالة ، وترد فى كثير من مصادرهم . ويشير بعضهم إلى أنها - وإن ذيلت بتوقيع عبد الله بن إباض - إلا أنها كانت من إعداد فقهاء الإباضية وقتذاك ، وعلى رأسهم جابر بن زيد [انظر الصوافى : الإمام جابر بن زيد ، ص٢٢٦- ٢٢٨) .

(٤) البرادى : الجواهر المنتقاه ، ص ١٥٦ - ١٦٧ ، والحارثى : العقود الفضية ، ص ١٢٣-١٢٨ وسالم بن حمود السيابى : إزالة الوعثاء ، ص ٨٦ - ١٠١ .

﴿ومن يشاقق الرسول من بعد ماتبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ماتولى ونصله جهنم وساءت مصيرا﴾[1] ... وقال:﴿ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار﴾[2] وقال تعالى :﴿ألا لعنة الله على الظالمين﴾[3] .

وعلى النقيض من هذا الموقف المذكور تجاه عثمان من جانب الإباضية نجد الحسن البصرى يوقره ويلعن قتلته . يقول المبرد[4] : "وكان (الحسن البصرى) إذا جلس فتمكن من مجلسه ذكر عثمان فترحم عليه ثلاثا ولعن قتلته ثلاثا ، ويقول : لو لم نلعنهم للعنا" .

هذا فضلا عن أن الحسن البصرى ، وإن كان لابد يعرف آراء صديقه جابر قبل زيارته له وهو على فراش المرض ، إلا أن من المحتمل أنهما ظلا فترة طويلة لايلتقيان ، نما خلالها إلى علم الحسن أن الإباضية تنتحل جابرا ، ولذلك انتهز الحسن فرصة هذا اللقاء ، فأراد أن يطمئن على مدى صحة هذا الذى نما إلى علمه . واحتمال عدم اللقاء بين الصديقين المذكورين مدة قبل الزيارة المشار إليها ينبنى على أساسين مستمدين من الروايات التى تحدثت عن هذه الزيارة ، وهما :

أ - إن الحسن البصرى كان خائفا من الحجاج وقتذاك ، مما حمله على الاختفاء فى دار أحد المقربين إليه ، واضطره لأن يذهب متخفيا عندما قرر المغامرة بزيارة جابر وهو على فراش الموت .

ب- إن جابر بن زيد كان لايشتهى وقتذاك شيئا إلا إلى إلقاء نظرة على صديقه الحسن .

وهكذا يتضح أن جابر بن زيد لايمكن أن يكون إباضيا ، لأنه لو كان كذلك ، لتبرأ من الحسن البصرى الذى كان يعلن فى مجالسه الموالاة لعثمان بن عفان ويلعن قتلته ،

---

(١) سورة النساء ، آية ١١٥ .

(٢) سورة هود آية ١٨ .

(٣) سورة هود ، آية ١٨ .

(٤) الكامل فى الأدب ، ج ٣ ، ص ١١٨ .

وذلك بدلا من أن يرتبط معه بصداقة متينه على النحو المشار إليه .

السبب الثانى : "إن ثابت البنانى ، صاحب الرواية المشار إليها ، يورد أيضا روايتين إضافيتين عن قصة زيارة الحسن البصرى لجابر وهو مريض ، ولايذكر فى تلك الروايتين أى شيئ عن الإباضية ، و لم يشر إطلاقا إلى أن الحسن البصرى قد سأل جابرا عن علاقته بالإباضية وأهل النهروان"(١) .

على أنه يجب أن نلتفت إلى أنه لايصح القول بأن ثابت البنانى أورد روايتين إضافيتين عن قصة زيارة الحسن البصرى لجابر وهو مريض ، لأنه لم يسجل هذه القصة فى كتاب له وأورد بصددها روايات ثلاث ، وإنما روى القصة عنه أشخاص مختلفون ، اهتم كل واحد بجانب معين منها ، ولانجد أى تضارب بصددها بين رواياتهم . فالرواية الأولى المرفوعة إلى ثابت البنانى وأثبتنا نصها رواها لابن سعد شخص اسمه عبد الصمد ابن عبد الوارث وذكر فيها تفاصيل الحديث الذى دار بين جابر والحسن على النحو المشار إليه . أما الروايتين الإضافيتين فقد روى إحداهما شخص يدعى عارم بن الفضل ، بينما روى الثانية واحد يدعى يزيد بن هارون . يقول ابن سعد(٢) : "أخبرنا عارم ابن الفضل قال : حدثنا حماد بن زيد عن حبيب بن الشهيد عن ثابت (البنانى) قال : قيل لجابر بن زيد وهو يشتكى : ماتشتهى ؟ قال : نظرة من الحسن . قال : فانطلق ثابت إلى الحسن وهو متوار فى منزل أبى خليفة فجاء به إليه ، فقال : أقعدونى" . ويلاحظ أن هذه الرواية توقفت عند قول جابر لمن حوله " : أقعدونى . وهذا لاينفى حدوث نقاش بينه وبين الحسن بعد أن أقعدوه ، خاصة وأن عارم بن الفضل أخبرنا فى رواية أخرى غير مرفوعة إلى ثابت البنانى بأن الإباضية كانوا ينتحلون جابر بن زيد وأنه كان بريئا مما يقولون . يقول ابن سعد(٣) : "أخبرنا عارم بن الفضل قال : حدثنا حماد بن زيد عن

(١) عوض خليفات : نشأة الحركة الإباضية ، ص ٩٤ .

(٢) الطبقات الكبرى ، جـ٧ ، ص١٨٢ .

(٣) نفسه ،ص ١٨١ .

هشام عن محمد قال : كان بريئا مما يقولون ، يعنى جابر بن زيد . قال عارم : وكانت الإباضية ينتحلونه" . أما الرواية الثانية الإضافية فيقول عنها ابن سعد[1] : "أخبرنا يزيد ابن هارون قال أخبرنا نوح بن قيس عن عصمه بن سالم عن ثابت البنانى قال : أتيت الحسن وهو مختف فقلت : إن أخاك جابر بن زيد بالموت . قال : رويدا نمشى ، فلما أمسى أرسل إلى بغلته فركبها وأردفنى خلفه ، وأتى جابر بن زيد فلم يزل عنده حتى أسحر (أقبل الصبح) فلما خاف الصبح و لم يمت (جابر) ، قام فكبر عليه أربعا ودعا له ، ثم أنصرف" . وعلى الرغم من خلو هذه الرواية من ذكر مادار بين جابر والحسن من حديث خلال هذه الزيارة ، إلا أنه يستفاد منها أن الحسن ظل فى بيت جابر من المساء حتى أسفر الصبح ، وقد تم تبادل الحديث بين الصديقين خلال تلك الفترة ، وإن كان يزيد بن هارون الذى نقل إلينا هذه الرواية الإضافية عن ثابت البنانى لم يهتم بإثبات ذلك. علما بأن المصادر الإباضية[2] تؤكد أن حديثا جرى بين الحسن البصرى وجابر خلال هذه الزيارة ، وإن كان مضمون هذا الحديث فى المصادر المذكورة يختلف عما أوردته المصادر السنية .

السبب الثالث : إن المصادر الإباضية تورد أيضا رواية ثابت البنانى والتى تشبه فى محتواها ماورد فى المصادر السنية مع اختلاف طفيف . ولكنها لاتشير إلى سؤال الحسن البصرى لجابر . ومن المفيد أن نورد الرواية كما وصلتنا فى المصادر الإباضية حتى تتضح الصورة للقارئ . قال أبو سفيان : "لما حضرت جابر بن زيد وفاته ، أتاه ثابت البنانى فقال : يا أبا الشعثاء تشتهى شيئا؟ قال : إنى لأشتهى أن ألقى الحسن (البصرى) قبل أن أموت ! قال : فخرج ثابت البنانى ، فدخل على الحسن فأعلمه بقول جابر بن زيد . قال: وكان الحسن إذ ذاك متخفيا (من الحجاج) قال : فقال كيف لى بذلك ؟ قال : إركب بغلى على السرج وأنا أرتدف خلفك وأعطيك طيلسانى . وأرجو ألايعرض لنا . قال : ففعل ودخل على أبى الشعثاء وهو مضطجع ، فانكب عليه الحسن وهو يقول :

---

(١) نفسه ، ص ١٨٢ .

(٢) انظر الشماخى : السير ، ج١ ،ص ٦٩ ، والحارثى : العقود الفضية ، ص ٩٩ - ١٠٠ .

يأبا الشعثاء قل لاإله إلا ا لله ، فيرفع جابر عينيه : فيقول أعوذ با لله من غدو أو رواح إلى النار . ثم قال له : يأبا سعيد (يعنى الحسن) يوم يأتى بعض آيات ربك ... الآية . قال . فقال له الحسن : هذا وا لله الفقيه العالم"[1] .

– وبالمقارنة بين رواية ثابت البنانى عن زيارة الحسن البصرى لجابر بن زيد الواردة فى كل من المصادر السنية والمصادر الإباضية يتضح لنا عدة أمور لها دلالتها فى الترجيح بينهما ، وأهمها ما يأتى :

(أ) إن الاختلاف طفيف حقا بين محتوى رواية ثابت البنانى على النحو الوارد فى كل من المصادر الإباضية والسنية ، ولكن ذلك ينطبق فقط على السبب الذى من أجله زار الحسن البصرى صديقه جابر والطريقة التى تمت بها هذه الزيارة . أما بالنسبة للحديث الذى دار بينهما - وهو الأمر الذى يهمنا - فإن مضمونه فى المصادر السنيه يختلف كثيرا عنه فى المصادر الإباضية . فبينما يرد ضمن الأولى سؤال البصرى لجابر عن حقيقة مايشيعه الإباضية عن إنتمائه إليهم وإنه أعلن البراءة منهم ، نجد المصادر الإباضية لاتتحدث عن ذلك ، وإنما تركز على مايؤكد حسن إيمان جابر ، مع التنويه بشهادة الحسن البصرى له بطول الباع والبراعة فى الفقه .

(ب) المصادر السنية تذكر سند هذه الرواية ، بينما تنقلها المصادر الإباضية عن المؤرخ أبى سفيان محبوب بن الرحيل دون سند ، علما بأن هذا المؤرخ لم يكن معاصرا لكل من جابر بن زيد وثابت البنانى ، فضلا عن أن كتابه الذى تنقل عنه المصادر الإباضية مفقود ، و لم يشر إليه أحد من غير الإباضية على مبلغ علمنا .

(ج) إن خبر انتحال الإباضية لجابر بن زيد وإعلانه البراءة من ذلك فى مرضه الأخير تؤكده روايات أوردها كل من ابن سعد[2] وأبو نعيم[3] وابن حجر

---

(١) الطبقات الكبرى ،ج٧ ،ص ١٨١ .

(٢) نفسه .

(٣) حلية الأولياء ، ج٣ ، ص ٨٩ .

العسقلانى[1]، مما يؤكد صحة مضمون رواية ثابت البنانى التى تشير إلى سؤال الحسن البصرى عن مدى صحة ما يشيعه الإباضية عن إنتمائه إليهم وجوابه على ذلك بالبراءه منهم .

(د) تذكر المصادر الإباضية[2] أن جابر سأل الحسن البصرى قائلا : "ياأبا سعيد أخبرنى عن حديث ترويه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المؤمن إذا حضرته الوفاة . فقال . قال عليه السلام : إن المؤمن إذا حضرته الوفاة وجد على كبده بردا . فقال جابر : الله اكبر ، اللهم إنى أجد بردا على كبدى . ثم قبض رحمه الله" .

ولاشك أن طلب جابر من الحسن البصرى أن يذكر له حديثا نبويا يتعلق بالمؤمن فى حالة الاحتضار يتعارض مع مايردده الكتاب الإباضيون[3] من أن جابرا ألف كتابه الذى شا ع ذكره بين علماء الإسلام مشحونا بالسنة النبوية ، وهو الكتاب الذى يطلقون عليه اسم "ديوان جابر" ومع أنه مفقود فهم يصفونه بأنه كان حمل بعير وقيل عشرة أبعرة . هذا فضلا عما يروونه عن ابن عباس من أنه كان يقول : "اسألوا جابر بن زيد ، فلو سأله أهل المشرق والمغرب لوسعهم علمه" . وعن أنس بن مالك أنه قال لما بلغه موت جابر" مات أعلم من على ظهر الأرض .

السبب الرابع : "بالإضافة إلى ذلك فإن المصادر الإباضية تجمع على أن جابر ابن زيد هو مؤسس المذهب الإباضى وإمام الإباضية بدون مناز ع . وقد سجنه الحجاج ابن يوسف الثقفى ثم نفاه إلى عمان لعلاقته بالإباضية[4] .

ثمة ملاحظات حول هذا السبب الرابع أجملها فيما يأتى :

أ- إن عبد الله بن إباض هو مؤسس المذهب الإباضى وليس جابر بن زيد ، وذلك

---

(١) تهذيب التهذيب ، ج٢ ، ص ٣٨ .

(٢) انظر الشماخى : السير ، جـ١ ، ص٦٩ .

(٣) الشماخى : السير جـ١ ص ٦٧-٦٨ ، والحارثى : العقود الفضية ، ص ٩٣ .

(٤) عوض خليفات : نشأة الحركة الإباضية ، ص ٩٤ .

على النحو الذى سبق توضيحه ومناقشته .

ب- من الطبيعى أن إصرار الإباضيين على القول بأن جابرا هو مؤسس مذهبهم ، دون سند من التاريخ ولاأدلة معقولة ، هو السبب فى أن المصادر الإباضية تورد رواية ثابت البنانى عن قصة زيارة الحسن البصرى لجابر بن زيد دون الإشارة إلى ماجاء بها من نفى جابر لصلته بالإباضية .

ج- حقيقة أن الحجاج سجن جابر بن زيد ونفاه ، ولكن ذلك لم يكن ـ كما ذهب خليفات ـ لعلاقته بالإباضية . إذ لم يشر إلى ذلك أى مصدر على مبلغ علمنا . كما سبقت الإشارة إلى أن حنق الحجاج على فقيه مشهور مثل جابرربما يرجع إلى استنكاره لتجاوزات الحجاج ومظالمه ، وخاصة تنكيله بآل المهلب ، وهم من أزد عمان الذين ينتسب إليهم الفقيه المذكور .

السبب الخامس : "يذكر كل من الأشعرى وابن أبى الحديد أن الإباضية يعتبرون جابر بن زيد أحد أسلافهم ، ولم يحاول أى منهما دحض هذا القول . وهذا دليل من هذين المؤلفين ، غير الإباضيين ، على أن جابرا كان ذا علاقة بالإباضية ، ولو ملكا الدليل والبرهان على خطل هذا الرأى لقاما بتفنيده[1] .

- ويرد على ذلك بما يأتى :

إن القول بأن كلا من الأشعرى وابن أبى الحديد ذكر أن الإباضية يعتبرون جابر ابن زيد من أسلافهم غيرصحيح ، فنص ما يقوله ابن أبى الحديد[2] مثلا هو : من المشهورين برأى الخوارج .... عكرمة مولى ابن عباس ، ومالك بن أنس الأصبحى الفقيه.....ومنهم يزيد بن أبى مسلم مولى الحجاج ... وممن ينسب إلى هذا الرأى من السلف : جابر بن زيد ، وعمرو بن دينار ، ومجاهد ...ونسب أبو العباس محمد بن يزيد المبرد إلى رأى الخوارج ، لإطنابه فى كتابه المعروف بالكامل فى ذكرهم وظهور الميل منه

---

(١) عوض خليفات : نفسه ، ص ٩٤- ٩٥ .

(٢) نهج البلاغة ، ج٥ ، ص ٧٦- ٧٧ .

إليهم" . ومـن الملاحـظ أن ابـن أبـى الحديـد لم يسـق اية أدلـة لنفـى انتسـاب أحـد مـن المذكورين لرأى الخوارج ، ولكن ذلك لايعنى أن أى واحـد منهـم كـان مـن الخـوارج ، فالإمام مالك مثلا لايختلف اثنان على أنـه مـن فقهـاء أهـل السنة وصـاحب أحـد أشـهر المذاهب السنية ، ويزيد بن أبى مسلم مـولى الحجـاج كـان -كمـا سـبق القـول- مخلصـا لسيده ووقع اختيار الخليفة يزيد بن عبد الملك عليه ليكون واليا على أفريقية ، وهناك لقى مصرعه على أيدى الخوارج ، وخليفات[1] نفسه ينفى عـدم كونـه مـن الخـوارج . كمـا ذكر الباحث المذكور[2] أن القلهاتى الإباضى استعان فى تأليف كتابه "الكشف والبيـان" برواة من أهل السنة أشهرهم مجاهد وابن شهاب الزهـرى ومحمـد بـن السـائب الكلبـى . فلماذا لم يعتبر هذا الباحث مولى الحجاج المذكور ومجاهد من أسـلاف الإباضيـة ، مثلمـا فعل بالنسبة إلى جابر بن زيد ، رغم أن ابن أبى الحديد لم يسق الأدلة على نفى علاقة كل منهما بالإباضية ؟ .

ويفهم مما ذكره المبرد[3] أن وصف أحد الأشخاص بـالميل إلى رأى الخـوارج علـى النحو الذى ورد عند أبى الحديد وغيره ، كان يعنى أن هذا الشخص ينكر مبدأ التحكيم، مثله فى ذلك مثل الخوارج ، لكنه مع ذلك يقر لعلىّ بـن أبـى طـالب بـإمرة المؤمنـين ولا يرى صحة الخروج عليه ومحاربته فضلا عن تكفيره والتبرؤ منه . يقـول المـؤرخ والأديـب المذكور : "إن عدة من الفقهاء ينسبون إليه (أى مذهب الخوارج) ، منهـم عكرمـة مـولى ابن عباس ، وكان يقال ذلك فى مالك بن أنس ... فأما أبو سعيد الحسـن البصـرى فإنـه كان ينكر الحكومة ... ثم يذكر عليا فيقول : لم يزل أمير المؤمنين علىّ رحمـه الله يتعرفـه النصر ويساعده الظفر حتى حكم ، فلمَ تحكم والحق معك؟" . وهكذا نلاحظ أن الحسـن البصـرى يقـر لعلـىّ بـإمرة المؤمنـين ويـترحم عليـه رغـم إنكـاره لمبـدأ التحكيـم . ويشـير الشهرستانى[4] إلى أن الأشتر النخعى ، أشهر قادة جيش علىّ فى صفين ، لم يوافـق عليـاً

(١) نشأة الحركة الإباضية ، ص ٩٧ .

(٢)نفسه ، ص٢٢ .

(٣) الكامل فى الأدب ،ج٣ ، ص ١١٨ .

(٤) الملل والنحل ، ص١٠٩- ١١٠ .

فى التحكيم ، لكنه رغم ذلك لم يخرج عليه وظل على ولائه وإخلاصه له .

ومن الجدير بالذكر أن نسبة المبرد إلى الخوارج لإطنابه بذكرهم فى كتابه وظهور الميل منه إليهم ، كما يقول ابن أبى الحديد ، لايعبر عن الحقيقة فى شيئ ، لأن إطناب أى باحث أو كاتب فى ذكر أخبار جماعة ما أو حركة دينية أو سياسية لايعنى بالضرورة إقتناعه بمنهجها أو ميله لمبادئها ، فالإطناب مالم يشوبه تكرار وركاكة ، يكون من قبيل المثابرة والجد والاستقصاء ، وهذا ماينطبق على مافعله المبرد فى جمعه لتاريخ الخوارج على نحو يتسم بالمتعة والتفصيل أكثر ممن سبقوه فى هذا الصدد . كما أن المتتبع لما أورده المبرد عن الخوارج فى كتابه الكامل يتضح له أنه بعيد كل البعد عن إعتناقه لفكر الخوارج ، لأنه وصفهم بالضّلال فى قوله[1] : "فصاروا (أى الخوارج) فى هذا الوقت على ثلاثة أقاويل : قول نافع(بن الأزرق) فى البراءة والاستعراض واستحلال الأمانة وقتل الأطفال ، وقول أبى بيهس الذى ذكرناه ، وقول عبد الله بن إباض وهو أقرب الأقاويل إلى السنة من أقاويل الضّلال" . ويفهم من ذلك أن أقاويل الخوارج جميعهم لاتتفق مع السنة من وجهة نظره ، وإن تفاوتت هذه الأقاويل فى درجه بعدها أو قربها من السنة النبوية الشريفة . كما يصف المبرد[2] الخوارج بقوله : "يقرأون القرآن لايجاوز تراقيهم"[3] . أضف إلى ذلك أن المبرد[4] امتدح زياد بن أبيه حين أرغم قبائل البصرة على أن تسلم إليه كل من يعتنق مبدأ الخوارج من أبنائها ، ويتضح ذلك من قوله : "فكانت القبائل إذا أحست بخارجية فيهم (أى بجماعة من الخوارج فيهم) شدتهم وأتت بهم زيادا ، فكان هذا أحد مايذكر من صحة تدبيره ... وله أخرى فى الخوارج (أى حسن تدبير آخر) إذا خرجوا معهم إمرأة فظفر بها قتلها ثم عرّاها ، فلم تخرج النساء بعدُ على زياد . وكنّ إذا

---

(١) الكامل فى الأدب ، ج٣ ، ص ١٦٣ .

(٢) نفسه ، ص ١٢١ .

(٣) نفسه .

(٤) نفسه ، ص ١٣٦ - ١٣٧ .

دعين إلى الخروج قلن : لولا التعرية لسارعنا" . هذا فضلا عن أن المبرد[1] كثيرا مايقرن اسم عليّ بن أبي طالب بعبارة "صلوات الله عليه" أو "رضوان الله عليه" ، وهذا مالايمكن أن يفعله أحد من الخوارج .

السبب السادس : حتى لو صحت الرواية الوارده فى بعض المصادر السنية من أن جابرا أنكر علاقته بالدعوة الإباضية ، فيجب ألا يؤخذ ذلك على علاته . فربما فعل جابر ذلك على سبيل التقية الدينية التى استعملها جابر فى مناسبات عديدة ، كما استعملها غيره من أئمة الإباضية ، وتعتبر مشروعة فى المذهب الإباضى فى طور الكتمان"[2].

ويرد على ذلك بما يأتى :

أ- سبق أن أوضحنا أن جابرا لم يلجأ إلى إخفاء معتقده ، وذلك اعتمادا على المصادر الإباضية[3] ذاتها ، تلك التى تشير إلى أن جابرا كان يناظر الخوارج حتى يسكتهم، وأنه كان ينادى فى مجالسه بالثورة ضد الحكام الظالمين ويحث على الإطاحة بهم، وأن الحجاج سجنه ونفاه .

ب- لايذكر أى مصدر -على مبلغ علمنا- أن جابرا استعمل التقية الدينية فى أية مناسبة ، وذلك على عكس ما يقوله خليفات من أنه استعملها فى مناسبات عديدة .

ج- لو فرضنا جدلا أن جابر بن زيد كان يكتم عقيدته ويلجأ إلى التقية أحيانا ، فإن ذلك لايعقل أن يفعله مع صديقه الحميم الحسن البصرى الذى يقول خليفات عنه : "لابد وأنه كان يعرف آراء جابر ومعتقده قبل زيارته له وهو على فراش الموت" . هذا فضلا عن أن ثابت البنانى نفسه -فيما يبدو- كان من المقربين إلى جابر ، بدليل ماتجمع

---

(١) نفسه ، ص ٩٨ ،١٠١ ، ١٠٧ ، ١١٣ .

(٢) عوض خليفات : نشأة الحركة الإباضية ، ص ٩٥ .

(٣) انظر الشماخى : السير ، ج١ ، ص٧٢ ، ٧٦ ، وعلى يحى معمر : الإباضية فى موكب التاريخ ، ج١ ، ص١٤٥ ، والحارثى : العقود الفضية ص٩٩ .

عليه المصادر السنية والإباضية من أن البنانى سعى حثيثا إلى تبليغ الحسن البصرى برغبة جابر فى إلقاء نظرة أخيرة عليه ، وأنه تستر على الحسن بإركابه بغلته وإلباسه طيلسانه ، مع علمه بأن الحجاج بن يوسف الثقفى كان يطارد الحسن وقتذاك ، وكان يمكن أن يتعرض البنانى لعقاب الوالى المذكور فيما لو اكتشف أمره .

السبب السابع : "أما الرواية التى تذكر أن هند بنت المهلب المعروفة بولائها للمذهب الإباضى ، قد أكدت بأن جابرا لم يدعها لاعتناق المذهب الإباضى فلا تعتبر دليلا على عدم وجود علاقة بين جابر والإباضية ، لأن أتباع الفرقة آنذاك لايسمون أنفسهم بهذا الإسم ، كما وضحنا ذلك فى صفحات سابقة ، بل يسمون أنفسهم جماعة المسلمين أو أهل الدعوة ، ولهذا فإن هند بنت المهلب كانت صادقة فى قولها بأن جابرا كان يعلمها مبادئ الإسلام وشرائعه ، أى إعتقادات المسلمين ، ولم يدعها للإباضية . أضف إلى ذلك أن هند بنت المهلب كانت معاصرة لجابر بن زيد ولخلفه أبى عبيدة ، أى أنها كانت تعيش والحركة الإباضية لاتزال فى طور السرية والكتمان . ومن غير المعقول أن تقوم بفضح أسرارالدعوة وكشف أسماء أصحابها عندما تسأل عن ذلك . ومن الطبيعى أن تنكر علاقتها وعلاقة أستاذها جابر مع الإباضية إذا استجوبت من قبل مخالفيها حول هذا الموضوع . وجدير بالذكر أن أهل الدعوة كانوا قد أوجبوا اغتيال كل من يقوم بكشف أسرار دعوتهم أو الإساءة إليهم . فهل يمكن إذن لإمرأة مخلصة ومتفانية فى سبيل الدعوة أن تقوم بمهمة الإساءة لأصحابها ؟ وهل يعتبر بالتالى إنكارها لعدم دعوة جابر إليها للانضمام إلى الحركة أساسا يمكن الاعتماد عليه للتدليل على براءة جابر من الإباضية ومن أهل النهروان كما ورد فى رواية البنانى السالفة الذكر ؟"[1] .

ويرد على قول خليفات المذكور بأنه من الطبيعى أن تقوم صلات وثيقة بين جابر ابن زيد وآل المهلب فى البصرة ، سواء قبل تنكيل الحجاج بيزيد بن المهلب أو بعد التنكيل به ، وذلك على أساس صلة القرابة ، حيث أن جابرا وآل المهلب من أزد عمان ، ولذلك فليس غريبا أن يتعاطف جابر معهم ويندد بالحجاج فى جميع محافله ، خاصة وأنه

---

(١) عوض خليفات : نشأة الحركة الإباضية ، ص ٩٥.

كان فقيها لامعا وممن لاتأخذه فى الحق لومة لائم . لكن الغريب حقا هو أن تفسـر هـذه المودة فى القربى ، والحرص على إسداء النصيحة لأسرة المهلب من جانب جابر ، على أنه كان بمثابة الأستاذ الذى يلقن أفراد هذه الأسرة مبـادئ المذهـب الإبـاضى ، وإذا أرسـلت سيدة مثل عاتكة أخت يزيد بن المهلب مثلا بذبيحـة إلى جـابر علـى سـبيل الهديـة ، قـال خلفيات:[1] إنها من أشد الناس حماسا للمذهب الإباضى حتى أنها لاتبخل بمالها لمساعدة المحتاجين من أهل دعوتها . مع أن الشماخى[2] الذى استند عليـه البـاحث المذكـور فيمـا ذهب إليه يقول : "أرسـلت عاتكـة بجـزور إلى جـابر ، فـأمر العنـبر (أحـد تلامذتـه) بـأن ينحرها ويجزئها بين جيرانه ، وأن يرسل إلى أهله . فأطاب وأكثر فـى جـزء أبـى الشـعثاء (جابر) . فقال : واسوأتاه ! لاتفعل . ساوبيننا وبين جيراننا" . وهكذا يتضح لنا من قصـة هذه الهدية أنها لاتشير إلى حماسة عاتكـة لأيـة دعـوة ، ولا إلى أنهـا كـانت تقـدم العـون للمحتاجين من الإباضية ، وأن كل مافى الأمر هو أن سيدة من ذوى اليسار (آل المهلب) أرسلت بهدية إلى واحد من ذوى قرباها (جابر) فأكل منها وفـرق علـى الجـيران (وليـس على المحتاجين من أهل الدعوة) .

وبالنسبة لهند بنت المهلب لم يذكر خليفات سنده فى القول بأنهـا كـانت معروفـة بولائها للمذهب الإباضى ، علما بأن الرواية التى تفيد نفى هنـد لعلاقـة جـابر بالإباضيـة وأوردنا نصها -فيما سبق- نقلا عن أبى نعيم ، يفهم منها أن هندا نفسها لم تكن إباضية المذهب ، لأن الظاهر من هذه الرواية أن بعض أهل العلم تواجدوا بمنزلها "وذكروا عندهـا جابر بن زيد" وماكان يشيعه الإباضية وقتذاك من إعتناقه لمذهبهـم ، فنفـت إعتناقـه لهـذا المذهب ، ودللت على ذلك بأن جابرا لو كان حقا يعتنقـة لدعاهـا إليـه ،لأنـه كـان مـن أقرب المقربين إليها وإلى أمها ومن أحرص الناس على إسداء النصيحة لها فى دينهـا . هـذا فضلا عن أننا لم نقف على أيـة روايـة -سـنية كـانت أم إباضيـة- تشـير إلىأن هنـد بنـت المهلب كانت إباضية . فلو أن الباحث المذكور وقف على رواية تشير إلى إباضيتها ، كان يتعين عليه أن يذكرها مقرونة بالأدلة التى جعلته يرجحها على الرواية المذكورة التى تنفى

---

(١) نفسه ، ص١٠١ .

(٢) السير ، ج١ ، ص ٧١ .

صلتها بالإباضية ، وذلك قبل أن يقرر سيادته أن هندا عرفت بولائها للمذهب الإباضى . وأنها اضطرت إلى أن تنكر علاقتها وعلاقة أستاذها جابر بالإباضية لأنها كانت تستجوب من قبل مخالفيها .

ومن الجدير بالذكر أن جابر بن زيد كان قد توفى قبل أن تدلى هند بحديثها المشار إليه التى نفت فيه علاقة جابر بالإباضية ، بدليل قولها :"كان جابر بن زيد من أشد الناس انقطاعا إلىّ وإلى أمى ، فما أعلم شيئا كان يقربنى إلى الله إلا أمرنى به ... وإن كان ليأمرنى" . ولو أن حديث هند هذا وقع فى حياة جابر لما استخدمت لفظ "كان" على النحو المذكور . وبناء على ذلك يمكن القول بأنه لا معنى لما يشير إليه خليفات من أن هندا إضطرت إلى أن تنكر علاقة جابر بالإباضية مخافة كشف أسرار هذه الفرقة وتعريض أصحابها للأذى ، خاصة وأن الإباضية أنفسهم هم الذين كانوا يشيعون بين الناس -حتى قبل موت جابر- أنه على مذهبهم ، وذلك طبقا للروايات المشار إليها والمرفوعة إلى ثابت البنانى وعزرة الكوفى وغيرهما . ولا يخفى أن إشاعة إعتناق عالم مثل جابر ابن زيد للمذهب الإباضى بين الناس يفيد الدعوة الإباضية ولا يضرها . وإذا قيل بأن ذلك يمكن أن يعرض جابر للأذى فى حياته ، فمما لاشك فيه أنه لا يخشى عليه شىء من هذا القبيل بعد مماته .

هذا ، ويفهم من روايات البنانى وعزرة الكوفى وغيرهما أن لفظ "الإباضية" كان متداولا بين المعاصرين لجابر بن زيد وهند بنت المهلب . ويؤيد ذلك ما ورد فى بعض المصادر الإباضية[1] من إشارة إلى أن الخليفة العباسى أبا جعفر المنصور كان يعرف إمام الإباضية أبا عبيدة مسلم بن أبى كريمة ومعاونه حاجب الطائى ، وأنه ترحم على حاجب لما بلغه نبأ وفاته ، كما تأثر لما علم بوفاة أبى عبيدة حيث رجع[2] وقال :"ذهبت الإباضية" . ولو علم أبو جعفر بأن أبا عبيدة وأصحابه كانوا يستنكفون أن يطلق عليهم وقتذاك إسم "الإباضية" ما نطق به ، خاصة وأنه كان فى معرض التعبير عن تأثره لموت

(١) انظر الشماخى : السير ، جـ١ ص٨٥ .

(٢) أى قال : (إنا لله وإنا إليه راجعون) .

إمام الإباضية المذكور. مع ملاحظة أن أبا عبيدة وحاجب ، وإن توفيا بعد جابر بن زيد، إلا أنهما عاصراه فترة ، وكانا ممن أفادوا من علمه . ولابد أن لفظ "الإباضية" المتعارف عليه وقتذاك كان له مدلول محدد ويشير إلى مذهب بعينه ، هو الذى تبرأ جابر من صلته بالمعتنقين له ، وهو نفسه الذى نفت هند بنت المهلب أن يكون جابر دعاها إليه. حقيقة أن الإباضيين يطيب لهم أن يشيروا إلى أنفسهم باسم "المسلمين" أو "أهل الاستقامة" أو "أهل التحقيق" أو "أهل الدعوة" ... إلى غير ذلك من الأسماء ، لكن ذلك لا يعنى أبدا أنهم ينظرون إلى لفظ "الإباضية" باعتباره مؤشرا على شيء آخر غير مذهبهم . وخلاصة القول هو أن هند بنت المهلب كانت صادقة عندما نفت أن يكون جابر بن زيد دعاها إلى الإباضية ، بمدلولها المتعارف عليه بين الناس وقتذاك ، سواء من جانب الإباضيين أو مخالفيهم .

السبب الثامن : "بعد هذا العرض والتحليل يبدو أن قضية إنكار جابر لعلاقته بالإباضية كما توردها بعض الروايات فى المصادر السنية إنما اخترعت من قبل بعض رواة السنة الذين كانوا يرون فى جابر شيخا جليلا ومحدثا ثقة ، وبالتالى فيجب عدم إلصاق "تهمة" الإباضية به حتى لا يعتبر مجروحا ، وخاصة وأن نقدة الحديث قد رفضوا روايات "أصحاب البدع" واعتبروا أتباع الخوارج والشيعة من هؤلاء . ومن المحتمل أيضا أن نقدة الحديث من السنة لم يعرفوا معتقد جابر الحقيقى لاستعماله التقية الدينية ، ولذلك شكوا فى نسبته إلى الإباضية"[1] .

على أنه لا يمكن الموافقة على هذه المبررات التى سيقت فى السبب الثامن المذكور للتشكيك فى صحة الروايات التى تنفى صلة جابر بن زيد بالإباضية ، لأنه من المعلوم أن نقدة الحديث كانوا يعملون قواعد الجرح والتعديل على رواة السنة ، وأنهم لا يعولون على ما يرويه الوضاعون الذين يختلقون الروايات ، أولئك الذين سلطت عليهم الأضواء وصنفت فيهم التآليف بحيث صاروا معروفين جيدا لنقدة الحديث . فلو صح أن بعض الرواة سولت لهم أنفسهم اختلاق روايات لتصوير مذهب جابر بن زيد على غير حقيقته، لما انطلى ذلك على هؤلاء النقاد ، لأنهم لا يقبلون أية رواية يظهر فى سندها واحد من

---

(١) عوض خليفات : نشأة الحركة الإباضية ، ص ٩٥ .

الوضاعين . ثم إن خليفات يفترض أن بعض رواة السنة اختلقوا مايشكك فى إباضية جابر بن زيد المزعومة بدافع الحرص على عدم تجريحه من قبل نقدة الحديث ، وأن الذى حملهم على ذلك هو أنهم نظروا إلى جابر باعتباره شيخا جليلا ومحدثا ثقة ، فكيف يقدر هؤلاء الرواة الصدق عند غيرهم ثم يكونون هم فى نفس الوقت من الوضاعين المختلقين؟

أما القول بأن نقدة الحديث لم يعرفوا حقيقة مذهب جابر بن زيد لأنه كان يلجأ إلى التقية فهو افتراض لا دليل عليه . وقد سبق القول باستبعاد صحة لجوء جابر إلى التقية فى أى موقف .

حاول المفكر الإباضى المعاصر الدكتور يحى محمد بكوش[1] إثبات صلة جابر ابن زيد بالحركة الإباضية ، فساق الأسباب الثمانية المشار إليها (التى قالها عوض خليفات) بالنص، و لم يزد عليها بكوش غير قوله : إن الشكوك فيما يتعلق بانتساب الإباضية إلى جابر بن زيد ، أو انتساب جابر إليهم ترجع إلى ما رواه محمد بن سعد الواقدى[2] فى كتابه الطبقات الكبرى عن عزرة ، وعن ثابت البنانى ... وقبل أن أتصدى للإجابة عن هاتين الروايتين ، بما كتبه الأستاذ عوض خليفات فى كتابه نشأة الحركة الإباضية ، أود أن أشير إلى ما لم يذكره فى كتابه :

أولا – إن الشهرستانى فى كتابه الملل والنحل ، صنف أبا الشعثاء جابر بن زيد من جملة علماء الخوارج ورجالاتهم الإباضية .

ثانيا – إن ابن حجر العسقلانى أخرج عن يحى بن معين ، إمام الجرح والتعديل وعالم الإسناد ، أن جابر بن زيد كان إباضيا .

ثالثا – إن نفى العلاقة بين الإباضية وجابر بن زيد عملية مقصودة تدخل فى إطار الحصار والتشويه الإعلامى المضروب على هذه الحركة (الإباضية) منذ أقدم العصور ،

---

(١) فقه الإمام جابر بن زيد ، ص٢٦ – ٢٩ .

(٢) توفى الواقدى فى سنة ٢٠٧ هـ أما محمد بن سعد فهو كاتب الواقدى وتوفى سنة ٢٣٠ هـ

بدليل ماقاله الأصيلى عن جابر إنه شيخ مصرى[1] لا يعرف ، على الرغم من شهرة الإمام جابر بن زيد ومعرفته لدى العلماء والمهتمين بعلوم الحديث والفقه" .

وثمة ملاحظات على قول بكوش المشار إليه أجملها فيما يأتى :

أولا – لم ينفرد ابن سعد بذكر الروايات التى تنفى علاقة جابر بن زيد بالإباضية ، وإنما ذكرها أيضا كل من أبى نعيم[2] ، وابن حجر العسقلانى[3] وأبى حاتم الرازى[4] .

ثانيا – لم يذكر الشهرستانى[5] اسم جابر بن زيد ضمن جملة علماء الخوارج ورجالاتهم الإباضية ، وإنما الذى ذكره هو "أبو الشعثاء" ، وهى كنية لم ينفرد بها جابر ابن زيد .، وإنما أطلقت على الكثيرين غيره من المعاصرين له وغير المعاصرين ، ومنهم حويص أبو الشعثاء أحد أصحاب أبى بلال مرداس الذين قتلوا معه سنة ٦١ هـ على أيدى القوات الأموية ، علما بأن الدكتور بكوش[6] نفسه أشار إلى أكثر من عشرة أشخاص من رواة الحديث كنيتهم أبو الشعثاء .

ثالثا – أشاد ابن حجر العسقلانى فى كتابه "تهذيب التهذيب"[7] بمكانة جابر ابن زيد العلمية ، وذكر من روى عنهم من الصحابة ومن رووا عنه من التابعين ، وأشار إلى أن عددا من علماء الجرح والتعديل وثقوه ، منهم يحى بن معين وأبو زرعة والعجلى وغيرهم ، وأخرج عن أبى زرعة أن جابرا تبرأ من الإباضية ، كما أشار إلى ما ذكره فى

---

(١) صحتها "بصرى" .

(٢) حلية الأولياء ، حـ٣ ص٨٩ .

(٣) تهذيب التهذيب ، حـ٢ ، ص٣٨ .

(٤) الجرح والتعديل ، المجلد الأول ، ص ٤٩٤ – ٤٩٥

(٥) الملل والنحل ، ص١٣٧ .

(٦) فقه الإمام جابر بن زيد ، ص ١٨ – ٢٠ .

(٧) حـ٢ ، ص ٣٨ .

كتابه "الضعفاء" من أن الساجى نقل عن يحيى بن معين أن جابرا كان إباضيا . ومادام الثابت أن علماء الجرح والتعديل -ومنهم يحيى بن معين- قد وثقوا جابرا على النحو المذكور ، فإن مانسبه الساجى إلى ابن معين من القول بأن جابرا كان من الإباضية قول غير صحيح ، وذلك طبقا لحقيقة أشار إليها خليفات نفسه[1] فى آخر سبب من الأسباب التى برر بها عدم اطمئنانه للروايات النافية لعلاقة جابر بالإباضية ، ونقلها عنه بكوش[2] دون حذف أو تعديل ، وهذه الحقيقة هى أن "نقدة الحديث (أى علماء الجرح والتعديل) قد رفضوا روايات أصحاب البدع ، واعتبروا أتباع الخوارج والشيعة من هؤلاء ." ومعنى هذا أنه لو صح أن يحيى بن معين اعتبر جابرا من الإباضية لما وثقه ، ولما وثقه غيره من علماء الجرح والتعديل على النحو الذى أثبته ابن حجر العسقلانى وغيره .

ومن الجدير بالذكر أن الدكتور بكوش[3] سلك مسلكا مشابها لما أورده ابن حجر عن جابر بن زيد ، وذلك بالنسبة لأحد الذين رووا عن جابر ، وهو أبو نوح صالح الدهان ، فقال عنه بكوش : قال فيه أحمد بن حنبل : ليس به بأس . وقال يحى بن معين : صالح الدهان ثقة وجاء ذلك فى الجرح والتعديل . ونقل عن يحى بن معين أنه قال فيه : كان قدريا ، ويرضى بقول الخوارج " ولو صح هذا الذى نقل عن ابن معين بالنسبة لصالح الدهان لما وثقه فى الجرح والتعديل على هذا النحو .

رابعا – أما ماذكره الأصيلى عن جابر بن زيد من أنه شيخ بصرى لا يعرف ، فهو أمر لا يصح أن ينظر إليه باعتباره عملية مقصود بها الحصار والتشويه الإعلامى للحركة الإباضية ، لأن جابرا ليس إباضيا إلا فى زعم الإباضيين ، كما أن مكانة جابر العلمية المرموقة وسمعته الطيبة لم نقف عليها من خلال مؤلفات تركها ، وإنما من خلال مانقله السلف عنه ، وإن نظرة إلى المصادر التى اعتمد عليها بكوش[4] نفسه فى إبراز فقه جابر ابن زيد ، سواء فى علوم القرآن أو فى علوم الحديث أو فى التراجم والسير أو فى الفقه

---

(١) نشأة الحركة الإباضية ، ص ٩٥ .

(٢) فقه الإمام جابر ، ص ٢٩ .

(٣) نفسه ، ص٥٢ .

(٤) انظر قائمة المصادر بكتابه : فقه الإمام جابر بن زيد .

وغيره ، لتشير إلى أن الأغلبية الساحقة منها لعلماء من غير الإباضية ، وهذا يعنى أن جابر ابن زيد لم يضرب حوله نطاق من الحصار والتشويه الإعلامى ، كما أن ماوصفه به الأصيلى اعتبر فى نظر الكثيرين أمرا شاذا وغريبا ، فعلى سبيل المثال يقول ابن حجر(١): "وأغرب الأصيلى فقال هو (جابر) رجل من أهل البصرة لايعرف ، انفرد عن ابن عباس بحديث (من لم يجد إزارا فليلبس السراويل) ، ولايعرف هذا الحديث بالمدينة " .

لم يكتف خليفات بالتشكيك فى صحة ماورد بالمصادر السنية من أن جابر بن زيد تبرأ من فرقة الإباضية ، ولكنه راح يحاول تأكيد زعامة جابر للفرقة المذكورة ، وذهب إلى أن سياسته إبان هذه الزعامه تركزت على قواعد أساسية أهمها :

١- كان جابر ينشر آراءه ويبث أفكاره بين الناس من خلال أحاديثه الدينية من داخل البصرة وخارجها . وكان يتفحص تلاميذه فمن وجد فيه استعدادا قويا لآرائه وحماسا لمبادئه دعاه إلى مذهبه ، ولكن ذلك كان يحدث بسرية تامة مستعملا فى سبيل الوصول إلى هذه الغاية التقية الدينة . وإمعانا فى كتمان أمر دعوته فقد كان يأمر أتباعه بقتل كل من يكشف أسرار الجماعة أو يبوح بأسمائهم . فإن حدث أن ترك أحد أتباع الفرقة مذهبه وتخلى عن مبادئه دون أن يطعن فى أصحابه القدامى أو يفشى أسرارهم فكان يتبرأ منه دون أن يتعرض له بأذى . ولكن إذا خرج من الإباضية أحد وعاب عليهم وطعن فى معتقدهم وأفشى أسرارهم ، فقد أوجب جابر قتله وأحل دمه . وقصة خردلة التى ترويها المصادر الإباضية من أوضح الأمثلة على ذلك ، فقد جاء شاب إباضى إلى جابر بن زيد وسأله عن أفضل الجهاد ، فقال : قتل خردلة ، وكان الشاب لا يعرفه فأراه إياه رجل من الإباضية فى المسجد ، ووضع يده على كتفه لئلا يخطئه ، فضربه بخنجر مسموم فمات ، وقبض على هذا الشاب الإباضى ، وعبثا حاول الوالى أن يعرف منه أية معلومات عن قيادة التنظيم الإباضى فأمر بقتله . وكان خردلة هذا من الإباضية ثم خرج عليهم وجعل يطعن فيهم ويدل على عوراتهم ويفضح أسرارهم ، فاستحل جابر دمه وأمر بقتله . وقد اعتبرت سياسة جابر فى هذا الشأن قدوة لمن جاء بعده من الأئمة

(١) تهذيب التهذيب ، جـ٢ ، ص ٣٩ .

واعتبروا الاغتيال لمن يسئ إليه أحد دعامات نشاطهم[1] .

٢- تجنب جابر أى احتكاك معاد مع السلطة الأموية ، و لم يؤثر عنه أنه تعرض لأذى قبل تولى الحجاج للسلطة فى العراق ، على الرغم من أن بعض أصحابه لقى عنتا كبيرا على أيدى الولاة منذ أيام زياد ، وقد أراد الحجاج أن يوليه القضاء فرفض متذرعا بعدم مقدرته على حمل أعباء هذا المنصب وقال : " إنى أضعف من ذلك . فقال الحجاج : وماميلغ ضعفك ؟ قال : يقع بين المرأة وخادمها شر فما أحسن أن أصلح بينهما . قال : إن هذا لهو الضعف " . وفى هذه الرواية دلالة على أن جابرا كان يريد إخفاء مقدرته وإبداء ضعفه للوالى حتى يبعد الشبهات عنه ، وحتى لا يخطر ببال الوالى أن رجلا يبلغ هذه الدرجة من الضعف يمكنه أن يقوم بتأسيس حركة سرية مناوئة للحكم[2] .

٣- لما كان جابر بن زيد ينتمى إلى قبيلة الأزد ، فقد وجه قسما كبيرا من جهوده نحو إقناع بعض أفراد هذه العائلة للانضمام إلى حركته . وقد نجح إلى حد بعيد فى هذا الشأن وتبعه عدد كبير من الأزد وعلى رأسهم بعض أفراد الأسرة المهلبية -زعيمة أزد العراق- وأصبح بعضهم دعاة الفرقة وحماتها البارزين . و لم تقتصر دعوة جابر على من كان موجودا فى البصرة ، بل تعدتها إلى الأمصار ، الإسلامية الأخرى حيث كان يبعث بالدعاة لمختلف المناطق ، وكان عمله هذا إرهاصا لما تم فى عهد خلفة أبى عبيدة من تدريب للدعاة الذين عرفوا باسم حملة العلم إلى الأمصار وكان جابر على صلة وثيقة مع أتباع دعوته فى الولايات المختلفة ومن بينهم أناس من ، الأزد والمهالبة . وتشير المصادر إلى مراسلات متبادلة بينه وبين عبد الملك بن المهلب فى خراسان . وكان جابر يطلب منه أن يكتب له فى أمر الدعوة ، ويسأله أن يرسل خطاباته فى سرية تامة مع أشخاص موثوقين. والواقع أن جابرا كان يكرر الطلب فى وجوب السرية فى جميع مراسلاته مع أعوانه وأتباعه ، ويطلب أحيانا تمزيق رسائله إليهم وحرقها حتى لا تصل إلى أيدى

(١) عوض خلفيات : نشأة الحركة الإباضية ، ص ٩٦ .

(٢) نفسه ، ص ٩٨ .

أعدائهم فتؤدى بالتالى إلى كشف تنظيمهم وإجهاض حركتهم . وقد استطاع جابر بهذه السياسة أن يتجنب تنكيل الولاة به وبأصحابه لفترة طويلة ، واستطاع أيضا أن يكسب عددا من الأتباع ، ممن تولوا فيما بعد مركز المسئولية بالطبع دون علم السلطات بمعتقدهم ، وكانوا يستعينون بآراء إمامهم جابر فى تسيير الإدارة والأعمال فى المناطق الخاضعة لنفوذهم ، ومن هؤلاء النعمان بن مسلمة الذى أرسل إلى جابر يسأل عن كيفية جمع الجزية فى منطقته . ولا تذكر المصادر المتوافرة إن كان النعمان واليا أو عاملا ، ولكن ورود كلمة "دهقان"(١) فى الرسائل المتبادلة بينه وبين الإمام جابر تدل على أنه كان واليا فى المناطق الشرقية وربما فى بعض كور خراسان . ومن الشخصيات الأخرى التى كانت على صلة بجابر بن زيد ، يزيد بن يسار ، الذى كان يقطن عمان ويدين بالمذهب الإباضى ، وقد عين عاملا فى إحدى مناطق عمان فأرسل يستشيره فى ذلك ويطلب نصائحه وإرشاداته . وهناك أشخاص آخرون خارج منطقة البصرة كانوا على علاقات حميمة مع جابر يدينون بمذهبه ويصدرون عن أمره ، وكانوا عيونا له وممثلين عنه فى المناطق التى يسكنونها . ونظرا للدقة فى التنظيم والحذر الشديد فلم يستطع الولاة القبض على هؤلاء الدعاة والأشخاص ، وكان وجود بعضهم فى مركز المسئولية دليلا واضحا على عدم معرفة الولاة بمعتقداتهم ، وكان أيضا دليلا على أن جابرا لم يمانع فى أن يستلم بعض أتباعه عددا من المراكز والمهام الرسمية فى جهاز الدولة - التى يعمل ضدها فى النهاية - حيث كان يرى أن هؤلاء يسهمون فى توفير مناخ مناسب لنشر دعوته فى تلك الأمصار والولايات ويشكلون دعامة لها . ويبدو أن هذه العلاقات الواسعة والاتصالات الدائمة مع أتباع الحركة فى البصرة وخارجها قد وصلت إلى أسماع الحجاج ، فأخذ يرتاب من جابر بن زيد وجعله تحت مراقبته الدائمة ، وانتهى الأمر بوضعه فى السجن مع بعض أصحابه البارزين مثل : ضمام بن السائب ، وأبى عبيدة مسلم بن أبى كريمة التميمى ، وصحار العبدى وغيرهم ، ولم يلبث الحجاج أن أطلق سراح جابر ونفاه إلى عمان ، فقام بالدعوة إلى مذهبه فى موطنه الأصلى عمان ، أى بين أهله وعشيرته الأقربين الذين يعرف كيفية التعامل معهم مستغلا كرههم للحجاج الذى

---

(١) جمعها "دهاقين" وهم كبار الملاك من الفرس الذين كان يعهد إليهم الأمويون بجمع الضرائب فى مناطقهم على نحو ما كان يحدث قبل الفتح الإسلامى .

نكل بالمهالبة زعماء أزد العراق ، مما كان له أبعد الأثر فى نشر الإباضية فى ذلك القطر المذكور[1] .

على أن الواقع التاريخى لا يؤيد صحة ماذهب إليه خليفات من أن جابر بن زيد كان يقود حركة إباضية سرية ، وأنه كان له دعاة وعيون فى مختلف المناطق تجرى بينهم وبينه اتصالات سرية واسعة النطاق ودليلنا على ذلك ما يأتى :

١ - ليس ثمة شك فى أن جابرا كان عالما ذائع الصيت ، وأنه كانت له أحاديث دينية وفتاوى كثيرة ، كما كانت تأتيه استفسارات عديدة من مختلف الجهات عن مسائل فقهية . لكنه ليس ثمة دليل على أن جابرا كان يدعو إلى الإباضية فى هذه الأحاديث والفتاوى والأجوبة ، وقصة "خردلة" التى ساقها خليفات للتدليل على أن جابرا كان يتفحص تلاميذه فمن أنس فيه استعدادا دعاه إلى الإباضية ، وأنه كان يمعن فى كتمان مذهبه الإباضى ويحث على اغتيال من تحدثه نفسه بالإساءة إلى أصحابه حتى اعتبرت سياسة جابر فى هذا الشأن قدوة لمن جاء بعده من أئمة الإباضية - هذه القصة تحمل فى طياتها ما يدل على عدم صحتها ، إذ من الواضح أن الشاب الذى عهد إليه جابر باغتيال خردلة كان من الغرباء ، بدليل أنه لم يكن يعرف الإباضيين فى المنطقة التى كان يقيم فيها جابر ، حتى أن أحدهم هو الذى دله على خردلة ووضع يده عليه لئلا يخطئه ، ولو صح أن جابرا كان إمام الإباضية وقتذاك وأنه يمعن فى كتمان ذلك ، لما كان من المعقول أن يكشف حقيقة دوره لشاب غريب مجهول . هذا فضلا عن أن أبطال قصة خردلة كلهم مجهولون لا يعرف عنهم شىء ، ويفهم ذلك من نص هذه القصة الذى أورده الشماخى[2] فهم : شاب .. خردلة .. رجل من المسلمين ... جماعة من المسلمين ،

---

(١) عوض خليفات : نشأة الحركة الإباضية ،ص ١٠٠ - ١٠١ .

(٢) نص هذه القصة هو : أتى شاب أبا الشعثاء (جابر بن زيد) فقال : أى الجهاد أفضل ؟ قال : قتل خردلة ، والشاب لايعرفه ، فأراه إياه رجل من المسلمين (الإباضية) فى المسجد ووضع يده عليه لئلا يخطئه ، فضربه على كتفيه ضربة بخنجر قد سمه ، فأخذ (قبض عليه) فقال له الوالى : قد علمت أنك لم تفعل هذا من نفسك ، وإنما أمرت ، فدلنى على من أمرك ، ومنّاه . فقال دع=

وكل هؤلاء نكرة ، وحتى الوالى الذى قيل بأنه قبض على قاتل خردلة واقتص منه مجهول الاسم أيضا .

يقول الكاتب الإباضى على يحى معمر[1] فى معرض تدليله على تلفيق بعض الأخبار تعليقا على قصة أوردها الأشعرى[2] منسوبة إلى الإباضية" :"وردت فى هذه القصة أسماء عدد من الأشخاص هم : إبراهيم .، وميمون ، وعبد الجبار ... كما وردت أوصاف لعدة أشخاص هم : العلماء والإماء ... وهذه الشخصيات كلها مجهولة سواء ما ذكر فيها بالاسم أو بالوصف .، ولا يعرف عنها شىء ... وإن البحث عن أسماءمجردة هكذا فى أحداث التاريخ بحث لا طائل منه ، ولا يوصل إلى نتيجة" . وما دام كتاب الإباضية يحكمون بالتلفيق على أية قصة يكون أبطالها مجهولين على النحو المذكور ، فمن المفروض أن يتقبلوا نفس الحكم على أية قصة مشابهة توردها المصادر الإباضية مثل قصة خردلة المشار إليها ، تلك القصة التى لا نشك فى أنها وضعت ليتخذ منها ذريعة للقول بأن جابرا كان إباضيا يكتم إباضيته . وأنه كان يفتى باغتيال من ينشق عن الإباضية ويبوح بأسرار معتنقيها . علما بأن يحيى محمد بكوش[3] ، وهو كاتب إباضى معاصر ، يتحفظ فى قبول رواية قصة خردلة هذه بقوله : "وإذا صحت هذه الرواية ، فإن جابر بن زيد كان يرى وجوب استعمال الاغتيال السياسى كوسيلة لمقاومة القوة الغاشمة" .

يقول خليفات[4] : "وقد اعتبرت سياسة جابر فى هذا الشأن قدوة لمن جاء بعده من الأئمة ، واعتبروا الاغتيال لمن يسىء إليهم أحد دعامات نشاطهم" . مع أن الحقيقة هى أن مبدأ الاغتيال كان قد قرره أسلاف الإباضية قبل ذلك . يقول المبرد[5] :"ومن

=عنك هذا . فقتله . وكان خردله سعى بجماعة من المسلمين (الإباضية) فقتلوا" . (انظر الشماخى : السير ، جـ١ ، ص٧١ .

(١) الإباضية بين الفرق الإسلامية ، جـ١ ،ص٣١ – ٣٥ .

(٢) مقالات الإسلاميين ، ص١٧٥ .

(٣) فقه الإمام جابر بن زيد ، ص ٣٦ .

(٤) نشأة الحركة الإباضية ، ص ٩٦ .

(٥) الكامل فى الأدب ، جـ٣ ، ص ١١٧ – ١١٨ .

طريف أخبارهم (الخوارج) أن غيلان بن خرشة الضبى سمر ليلة عند زياد (ابن أبيه) ومعه جماعة فذكر أمر الخوارج ، فأنحى عليهم غيلان ، ثم انصرف بعد ليل إلى منزله ، فلقيه أبو بلال مرداس بن أدية فقال له : يا غيلان-قد بلغنى ما كان منك الليلة عند هذا الفاسق من ذكر هؤلاء القوم الذين شروا أنفسهم وابتاعوا آخرتهم بدنياهم . ما يؤمنك أن يلقاك رجل منهم أحرص ، والله ، على الموت منك على الحياة ، فينفذ حضنيك (جنبك) رمحه . فقال "غيلان : لن يبلغك أنى ذكرتهم بعد الليلة" . كما أنه لما قتل أبو بلال مرداس سنة ٦١ هـ على يد القائد الأموى عباد بن علقمة المازنى ، استطاع بعض أصحاب أبى بلال اغتيال هذا القائد فى العام المذكور . ومنذ ذلك الوقت - يقول خليفات[١] نفسه :"أصبح الاغتيال السرى وسيلة هامة لدى القعدة والإباضية فيما بعد".

٢- إن رفض جابر تولى وظيفة القضاء حين عرضها الحجاج عليه ليس - كما يذهب خليفات - دليلا على أن جابرا كان يريد إخفاء مقدرته وإخفاء ضعفه لهذا الوالى حتى يدخل فى روعه أن مثله لا يعقل أن يقود حركة سرية لقلب نظام الحكم الأموى . وذلك لأن التاريخ الإسلامى ملىء بأمثلة لفقهاء كثيرين رفضوا تولى القضاء ، إما لخشيتهم من تدخل الحكام فى شئون القضاء مثلما فعل أبو حنيفة النعمان مع الخليفة العباسى المنصور ، وإما لخوفهم من عظم مسئولية القاضى أمام الله تعالى مثلما فعل كل من إياس بن معاوية والقاسم بن ربيع على عهد الخليفة عمر ابن عبد العزيز[٢] . هذا فضلا عن أن جابرا لم يكن يظهر الضعف أمام الحجاج ، بدليل ما يروى من أن الوالى

---

(١) نفسه ، ص٧٠ .

(٢) جمع والى البصرة بين إياس بن معاوية والقاسم بن ربيعة بأمر الخليفة عمر بن عبد العزيز لينظر أصلحهما للقضاء فيقدمه . فقال إياس : سل عنى وعنه فقيهى المصر الحسن البصرى وابن سيرين . فقال القاسم : لا تسأل أحدا واسمع منى ، فقال : قل . فحلف يمينا مستوفاة جامعة لمعانى الحلف أن إياسا لأصلح للحكم منى ، فإن صدقتنى ، فقدمه ، وإن كذبتنى فلا يحل لك أن تقلد الحكم بين المسلمين من يبارز الله تعالى بمثل هذا اليمين الكاذبة . فقال إياس : لا تسمع منه ، أتيت به إلى شفير النار فافتدى منها بيمين يكفرها ويستغفر الله . قال الوالى : أولست فطنت لها ، وقلد إياسا الحكم (القضاء). (انظر الشماخى: السير ، جـ١ ، ص٧٦)

المذكور كان يكتب ذات يوم وجابر حاضر لديه ، فسقط القلم من يد الحجاج فقال لجابر ناولني القلم . فقال له جابر : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لعن الله الظالمين وأعوانهم وأعوان أعوانهم ولو بمدة قلم"(١) .

ولقد علق الدكتور يحي بكوش(٢) على واقعة عرض القضاء على جابر بن زيد من قبل الحجاج بقوله : "لم يكن جابر بن زيد قاضيا ... ولكنه عرض عليه القضاء ، كما عرض على الأئمة (الفقهاء) من قبله ومن بعده ، فاحتال للتنصل منه" . كما أشار بكوش إلى تكرار هذا العرض فيما بعد على يد الحكم بن أيوب الثقفي ، ابن عم الحجاج وواليه على البصرة ، إذ رشح عددا من الأشخاص للقضاء من بينهم جابر بن زيد ، ولكن الله سلمه أيضا . وقال جابر في هذه المناسبة :"فلو ابتليت بشيء منه (القضاء) لركبت راحلتي وهربت في الأرض" . ويفهم مما ذكره هذا الباحث(٣) الإباضي أن جابرا رفض القضاء مخافة أن يبتلى بمسئوليته العظمى أمام الله تعالى ، مثله في ذلك مثل كثير من الفقهاء من قبله ومن بعده .

٣- يعتمد خليفات على مصدر أسماه "كتاب جوابات جابر بن زيد" ، وذلك بالنسبة لما ذهب إليه من القول بأن جابرا كان على صلة بأشخاص إباضيين في مناطق كثيرة خارج البصرة ، وأن هؤلاء الأشخاص كانوا بمثابة عيون للإباضية يأتمرون بأمره ، وأن بعضهم كانوا ولاة أقاليم كعبد الملك بن المهلب والنعمان بن سلمة . مع أن المصدر المذكور عبارة عن نسخة مصورة لمخطوطة لا تحمل تاريخا ، ولا رقم تصنيف ، ولا اسم الدار المحفوظة بها . فيقول خليفات(٤) :"ويبدو أن هناك نسخا متعدده منه موزعة في المناطق التي يعيش فيها الإباضية . وهناك بالتأكيد نسخة محفوظة بالخزانة البارونية في جزيرة جربة التونسية التي ينتمي معظم سكانها للمذهب الإباضي ، أما النسخة التي أفدت منها في بحثي فهي عبارة عن نسخة مصورة تفضل أحد الأصدقاء المغاربة وأعارني

---

(١) الورجلاني : الدليل والبرهان ، حـ٣ ، ص٦٤ .

(٢) فقه الإمام جابر بن زيد ، ص٦٩ .

(٣) نفسه .

(٤) نشأة الحركة الإباضية ، ص٢٤ .

إياها لمدة ساعات قلائل خلال وجودى فى بريطانيا فى صيف سنة ١٩٧٧ ، وأعلمنى أنه حصل على تلك النسخة من جربه . ولا تحمل النسخة تاريخا ولا رقم تصنيف المخطوطة ولا الدار المحفوظة فيها . وقد قرأتها على عجل ، ولكنى استفدت منها أيما إفادة ، وخاصة عن علاقة جابر بن زيد الأزدى - إبان زعامته للحركة (الإباضية) السرية فى البصرة - مع أتباعه فى الأمصار الأخرى" .

ومن الطبيعى أنه لا يعول على أية نسخة مصورة لمخطوطة لا تحمل تاريخا ولا رقم تصنيف ولا اسم الدار التى تحفظ بها هذه المخطوطة . أما بالنسبة لقول خليفات باحتمال وجود نسخ متعددة منها موزعة فى المناطق التى يعيش فيها الإباضية وأن هناك بالتأكيد نسخة محفوظة بالخزانة البارونية بجزيرة جربه ، فإن هذا القول هو من قبيل الافتراض الذى لا دليل عليه ، لأن سلطنة عمان مثلا - وهى من أهم المناطق التى يعيش فيها الإباضية - لا توجد بها نسخة من مخطوطة تحمل اسم "كتاب جوابات جابر بن زيد"، وإنما توجد بها سبع عشرة رسالة مكتوبة على الآلة الكاتبة يطلق عليها "رسائل الإمام جابر بن زيد" محفوظة حاليا بالمكتبة الإسلامية بمسقط ، ويشار إلى أنها منقولة عن مخطوطة بالمملكة المتحدة ، دون ذكر رقم هذه المخطوطة ، ولا اسم المدينة أو الدار المحفوظة بها . علما بأن الصلات وثيقة بين إباضية عمان وإخوانهم فى جزيرة جربة التونسية ، فلو صح وجود نسخة من مخطوطة تحمل اسم "كتاب جوابات جابر بن زيد" بالجزيرة المذكورة ، لأشير إليها فى مكتبة مسقط كمصدر للرسائل المنسوبة لجابر بن زيد المكتوبة على الآلة الكاتبة ، وذلك بدلا من نسبتها إلى مخطوطة بالمملكة المتحدة مجهولة التاريخ والرقم ودار الحفظ على النحو المذكور .

يرى محمد قرقش[1] صحة نسبة الرسائل السبع عشرة الموجودة بمكتبة مسقط إلى جابر بن زيد . وحجته فى ذلك هى أنها تمتاز بالتجانس من حيث الشكل ، فهى جميعا منسوبة إلى جابر بن زيد ، وتبدأ جميعا بالبسملة ثم بعبارة "من جابر بن زيد إلى فلان" وقد تعكس هذه العبارة الأخيرة كما جاء فى صدر الرسالة السادسة عشرة فيقال بعد البسملة : "لعبد الملك بن المهلب من جابر بن زيد" . بالإضافة إلى ذلك فإن البناء الفنى

---

(١) عمان والحركة الإباضية ، ص ٢٥٧ - ٢٥٨ .

للرسائل جميعا يسير على خطة واحدة ، ويسير كذلك أسلوبها على نسيج واحد ، مما يؤكد صدورها جميعا عن كاتب واحد . وفيما يتصل بالبناء الفنى تشكل كل رسالة على النحو التالى :

١- البسملة

٢- تحديد المرسل منه والمرسل إليه

٣- التحية بالسلام

٤- مقدمة وعظية رقيقة قد تطول وقد تقصر

٥- رد على تحية المرسل وشكره على السؤال

٦- إجابة على الأسئلة الفقهية التى طرحها فى رسالته مع تواضع علمى بالغ

٧- توصية المرسل إليه فى بعض الأحيان بأن يكتم أمر الرسالة

٨- تحية الختام

وهذه هى النقاط التى تشكل الهيكل الفنى الذى تشترك فيه جميع الرسائل ، وهو اشتراك يؤكد وحدة المنبع ، فإذا أضيف إليه خصائص الأسلوب الرفيع الذى تتمتع به جميعا ، وتناسق المعلومات الواردة بها عن كاتبها وعن عصره ، أمكن الاطمئنان العلمى إلى صحة نسبة الرسائل إلى جابر .

على أننا - وإن كنا لا نعترض على احتمال كون الرسائل جميعا لشخص واحد - إلا أنه لا يمكن الاطمئنان إلى نسبتها إلى جابر بن زيد بالذات ، استنادا إلى ما وصفه قرقش بالأسلوب الرفيع الذى تتمتع به الرسائل جميعا ، لأن هذه الخاصية ليست حكرا على جابر وحده من جهة ، ولعدم وجود مؤلفات[1] لجابر بين أيدينا حاليا حتى

---

(١) لم يخلف جابر بن زيد من بعده أية أعمال علمية مدونة ، لكن آراءه فى التفسير والفقه ورواياته الخاصة بالأحاديث النبوية الشريفة أشار إليها آخرون من أمثال : ابن كثير فى تفسيره ،=

يمكن مقارنة الأسلوب الوارد فيها بأسلوب هذه الرسائل من جهة أخرى . هذا فضلا عن أن الباحث المذكور نفسه يذكر أن هذه الرسائل مكتوبة على الآلة الكاتبة وأنها منقولة

=وابن تيمية فى فتاويه ، والبخارى فى صحيحه ، والربيع بن حبيب فى مسنده ، وغيرهم . ويزعم الإباضية أن جابر بن زيد خلف كتابا علميا يطلقون عليه اسم "ديوان جابر" أو "المدونة الكبرى" ، وأن الأمويين استحوذوا عليه وحرموا دراسته وتداوله بين الناس . ثم آل هذا الكتاب إلى العباسيين فوضعوه فى دار الحكمة ببغداد وحرموا أيضا تداوله واستنساخه مع علمهم بأنه من مفاخر المسلمين ، ثم أتلف فيما بعد على يد المغول ضمن ما أتلفوه من كتب فى أثناء هجومهم على بغداد وإسقاطهم الخلافة العباسية سنة ٦٥٦ هـ (انظر سالم بن حمود السيابى : إزالة الوعثاء ، ص١٥ -١٦) وعلى مبلغ علمنا ، فإن المؤرخ الإباضى أبا زكريا يحيى بن أبى بكر هو أول من أشار إلى وجود الكتاب المذكور ببغداد ، وإلى كيفية حصول النفاث فرج بن نصر ، أحد الخارجين على الإمام الرستمى فلج بن عبد الوهاب (١٩٠ -٢٤٠ هـ) ومؤسس فرقة النفاثية الإباضية فى جبل نفوسة بالمغرب ، على نسخه كاملة من ديوان جابر وإحضارها إلى طرابلس الغرب حيث دفنها فى مكان لم يكشف عنه حتى اليوم ، وذلك بعد أن نظر إلى ضعف أهل مذهبه وتمغصت نفسه وساء ظنه مخافه أن يصير الديوان إلى أهل دعوة المسلمين (أى إلى مناوئيه من (الإباضية) .

على أن ما حكاه المؤرخ الإباضى المذكور عن كيفية حصول النفاث على نسخه من كتاب "ديوان جابر" هو أقرب إلى الخرافة وأبعد ما يكون عن الواقع ، لأنه يزعم أن النفاث ارتحل إلى بغداد وأقام بها فترة ، وذات يوم استمع مع صديق له إلى أشخاص من قبل سلطان بغداد ينادون فى الناس أن أمير المؤمنين لديه مسألة علمية فمن أمكنه الإجابة عليها حقق له سوله وما يتمناه ، أما من تصدى لذلك وعجز فسيقطع رقبته . فتقدم النفاث إليهم مبديا رغبته فى الإجابة عن هذه المسألة . وبين يدى الخليفة استطاع النفاث أن يجيب عليها ، ثم أمطره علماء بغداد ورجال الدولة المجتمعين وقتذاك بالأسئلة العلمية لكنه أجاب عليها جميعها ، وهنا أمر الخليفة بأن يطلب مايتمناه ، فطلب السماح له بنسخ كتاب ديوان جابر المحبوس فى دار الحكمة ، فتضايق الخليفة ، لكنه سمح له بذلك شريطة أن يتم النسخ فى يوم واحد فقط ، وذلك من باب التعجيز . ولكن النفاث استأجر كتبة كثيرين تمكنوا من نسخ حمولة سبعة جمال من الديوان فى يوم وليلة ،=

من نسخة أخرى أشير إلى أنها موجودة بالمملكة المتحدة دون تحديد اسم المكتبة أو المدينة، كما أنه حين أشار إلى إمكانية الاطمئنان العلمي إلى صحة نسبة الرسائل إلى جابر بن زيد

=وبقي جزء واحد دون نسخ ولكن النفاث حفظه عن ظهر قلب بمجرد قراءته ، ثم خرج بهذه النسخة في طريقه إلى مكة ، لكن الخليفة ورجاله استكثروا على النفاث علمه قبل أن يمتلك نسخه من ديوان جابر ، وخشوا اتساع هذا العلم يعد امتلاكه لهذا الديوان ، وعبثا حاولوا تعجيز النفاث بالأسئلة ، مما أتاح له فرصة المروق بهذا السفر العلمي الكبير إلى مكة التي وصل إليها عن طريق مغايرة لما يسلكه الناس ، ومنها وصل إلى طرابلس الغرب حيث أخفى الكتاب على النحو المذكور. (انظر: أبو زكريا : كتاب سير الأئمة وأخبارهم ، ص١٤١ - ١٤٦) . وهذا الذي حكاه أبو زكريا عما أسماه بديوان جابر غير معقول للأسباب الآتية :-

١- لو كان لهذا السفر الهام وجود لأشار إليه ابن النديم في كتابه الفهرست . ولكن ذلك لم يحدث . علما بأن ابن النديم من علماء القرن الرابع الهجري ، وأن الديوان - على زعم الإباضية - أحرق في أثناء هجوم المغول على بغداد سنة ٦٥٦ هـ .

٢- لا يتصور أن أحد خلفاء بغداد يمكن أن يتسلى بقطع رقبة إنسان لمجرد أنه لا يستطيع الإجابة على مسألة علمية .

٣- إن أي كتاب يحوي بين دفتيه آراء فيها خطورة على ملك بني العباس لا يعقل أن يحتفظ به العباسيون في دار الحكمة ببغداد . وإنما المفروض أن يتخلصوا منه على الفور .

٤- إن السماح للنفاث بالاستعانة بكتبة كثيرين لنسخ كتاب فيه خطورة على بني العباس ليس مما يسوغه أي عقل ، لأن معنى ذلك ذيوع ما في هذا الكتاب على نطاق واسع . ثم إنه مادام اشترط على النفاث أن ينسخ الكتاب في يوم واحد من قبيل التعجيز ، فلماذا لم يشترط عليه أيضا ألا يستعين في نسخه بأشخاص آخرين ؟

٥- ثم من هو هذا النفاث الذي حفظ جزءا من ديوان جابر بمجرد قراءته ، وأفحم علماء بغداد كلهم بحيث لم يستطع أحد منهم تعجيزه في أية مسألة علمية ؟

وعلى الرغم من وضوح السمة الأسطورية فيما حكاه المؤرخ الإباضي أبو زكريا عما أسماه بديوان جابر ، فمن الملفت للنظر حقا أن مفكري الإباضية المعاصرين يأخذون حكاية المؤرخ المذكور مأخذ الجد ، ويقولون : بأن ديوان جابر هو أول كتاب ضخم ألف في الإسلام ، وإن اختلف

أردف قائلا :"وهو اطمئنان يحتاج بالطبع إلى مزيد من التثبت من خلال العثور على نسخة أصلية للمخطوطة أو أكثر ومقابلتها وتحقيقها"

ولو فرضنا جدلا صحة نسبة هذه الرسائل السبع عشرة إلى جابر بن زيد ، فإنها لا تتضمن أية أدلة على كون جابر إباضيا ، ناهيك عن قيادته لتنظيم سرى ، وذلك لما يأتى:

أولا – لو صح أن جابر بن زيد كان إماما للإباضية وقائدا لتنظيمها السرى ، وأنه طلب – بهذه الصفة – من أعضاء هذا التنظيم تمزيق رسائله إليهم أو حرقها حتى لا تقع فى أيدى الأعداء ، فليس من المعقول أن تبقى نصوص هذه الرسائل حتى الآن دون حرق أو تمزيق . وأى تنظيم هذا الذى يضرب أعضاؤه عرض الحائط بأوامر إمامهم على هذا النحو ؟ .

ثانيا– الرسالة رقم ١٦ صدرت بهذه العبارة "لعبد الملك بن المهلب من جابر ابن زيد . ولو أن جابرا حقا كان إماما لعبد الملك لما قدم اسمه على النحو المذكور ، إذ لابد أن يسبق اسم الإمام أسماء متبوعيه ، وذلك طبقا لرسوم التخاطب المتعارف عليها وقتذاك.

ثالثا– لم ترد فى الرسائل السبع عشرة المنسوبة لجابر بن زيد أية إشارة إلى الدعوة الإباضية ، لا تصريحا ولا تلميحا ، فكل رسالة منها تبدأ بالبسملة ، وتحديد اسم الشخص المرسل إليه ، والتحية بالسلام ، ومقدمة وعظية رقيقة قد تطول وقد تقصر ، ورد على

=هؤلاء فى تقدير حجمه ما بين حمل جمل واحد وعشرة جمال (الحارثى : العقود الفضية ، ص٩٣)).

ويقول سالم السيابى (إزالة الوعثاء ص٢٦) : وكان لكتابه الضخم القيم المسمى "ديوان جابر" رنة فى صدر الإسلام . وكان موضع تنافس فى دور الكتب الإسلامية عليه . واستطاعت مكتبة بغداد أن تتحصل عليه ، وأن تبخل به على غيرها من مكتبات الإسلام ، وأن تظلم أهله حقهم فيه ، فتمتاز به عن غيرها من المسلمين ، والحسد داء دفين مضر بالأمة ضررا كبيراً لا مزيد عليه . ولم تنقل منه إلا نسخة واحدة مع عناء شديد ، جاهد فيها أحد عباقرة جبل نفوسة(يقصد به النفاث فرج بن نصر) للحصول عليها ... ولم يوفق أيضا على نشرها فذهبت ... فيما ضاع من التراث الإسلامى العظيم بسبب الجهل والحقد وطلب الرفعة عند الناس" .

تحية المرسل وشكر له على السؤال ، وإجابة على الأسئلة الفقهية التى طرحها فى رسالته، وتوصية المرسل إليه فى بعض الأحيان بأن يمحو الرسالة ، حتى لا يطلع عليها أحد ، وأخيرا تحية الختام . و لم يكن جابر يطلب محو رسالته أحيانا بسبب قيامه على تنظيم سرى للإباضية مخافة أن يكشف الأعداء أسراره على نحو ما ذهب إليه خليفات ، ولكنه كان يفعله من قبيل التواضع والحذر من ألا يكون مصيبا فى فتواه ، والدليل على ذلك هو ماذكره أبو نعيم[1] من أنه لما انتصب جابر للفتيا لقيه عبد الله بن عمر رضى الله عنهما فى الطواف فقال له : ياجابر ، إنك من فقهاء البصرة ، وإنك تستفتى ،، فلا تفتين إلا بقرآن ناطق أو سنة ماضية ، فإنك ان فعلت غير ذلك هلكت وأهلكت . كما أن ابن سعد[2] يذكر أنه قيل لجابر بن زيد : إن الناس يكتبون عنك ما يسمعون – فقال : يكتبون ما عسى أن أرجع عنه غدا ؟ ويؤكد الكاتب الإباضى المعاصر سالم بن حمود السيابى[3] ذلك بقوله: "رأى (جابر) يوما أحد طلابه يكتب أثناء الدرس فنهاه أن يكتب شيئا غير آية محكمة ، أو سنة متبعه . أما رأيه فلا عبرة به ، لأنه قد يجد فى المساء حجة أقوى من التى يستند إليها فى الصباح فيرجع عنها إلى ما يثبت بالدليل الأقوى ، ويذهب الطالب بما كتب ينشر الباطل فى الناس"

رابعا – ذكر خليفات أن عبد الملك بن المهلب كان من الإباضية ، وأن جابرا كان يطلب منه أن يكتب له من خراسان فى أمر الدعوة ، وذلك استنادا على ماورد فى رسالتين إليه تحملان رقمى ١٦ ، ١٧ ضمن مجموعة رسائله المشار إليها . على أنه لم يرد فى هاتين الرسالتين ما يشير إلى إن عبد الملك كان إباضيا ، ولا أن جابرا طلب منه أن يكتب له فى أمر أية دعوة ، لأن الرسالتين مثل غيرهما من الرسائل لا تضمان سوى نصائح دينية وردود على مسائل فقهية . علما بأن جابرا كان يختم رسالته أحيانا" بأن يطلب من المرسل إليه أن يكتب له بحاجته ، لكنه ختم الرسالة رقم ١٧ بقوله : "واما

---

(١) حلية الأولياء ، جـ٣ ، ص٨٦ .

(٢) الطبقات الكبرى ، جـ٧ ، ص ١٣١ .

(٣) إزالة الوعثاء ، ص٢٠ .

ماذكرت من شركة الدهاقين فى أرضهم فلا يحل لمسلم شركة مشرك من أهل الكتاب ولاغيرهم لما يستحلون من الذين يحرم عليهم والسلام عليك ورحمة الله"(٢) . وهكذا يتضح لنا أن جابرا لم يطلب من عبد الملك فى هذه الرسالة أن يكتب إليه ، لافى أمر الدعوة الإباضية ولافى غيرها . أما بالنسبة للرسالة رقم ١٦ ، فقد أوردنا نصها فى قسم الملاحق . ومن الملاحظ أنها ختمت بعبارة "اكتب إلى بما كانت لك من حاجة فى سر وثقة ، فإنك قد علمت الذى نحن فيه ، وما نتخوف من الذى يطلب العلل علينا ، فلا تعرض لذلك لأمر تهلكنا به ، أصلحك الله . نسال الله القريب المجيب أن يريكم وإيانا فى أموركم وأمورنا ماتقربه أعيينا ، ومن نرجو أن يكون الله قسم به الدفاع عنا ، والسلام عليك ورحمه الله"(١) . وتفسير تخوف جابر على هذا النحو هو أن الحجاج ابن يوسف الثقفى -طبقا لما يذكره ابن الأثير-(٢) لم يكن له هم بعد أن فرغ من القضاء على حركة ابن الأشعث المناوئة له إلاّ يزيد بن المهلب وأهل بيته الذين أوجس فى نفسه خيفه منهم ، وقد كان أذل أهل العراق كلهم إلا آل المهلب وأنصارهم بخراسان ، وكان يبعث إلى يزيد ليأتيه بالعراق فيعتل بانشغاله بالتصدى لأعداء المسلمين فى ناحيته . وقد ظل الحجاج يكتب بشأن آل المهلب إلى عبد الملك بن مروان موغرا صدره عليهم حتى وافق -بعد تردد- على عزل يزيد فى سنة ٨٥هـ وتوليه قتيبة بن مسلم محله ، وتمكن الحجاج حينذاك من التنكيل بآل المهلب حيث وضع يزيد وبعض إخوته فى السجن، ولما اعترضت زوجه هند بنت المهلب على تعذيب إخوتها لم يتردد الحجاج فى طلاقها .

ولاشك أن آل المهلب كانوا على علم بأن الحجاج يتربص بهم الدوائر وأنه يتحين الفرصة للتنكيل بهم ، بدليل أن يزيد بن المهلب كان يتحايل فى عدم القدوم عليه بالعراق على النحو المشار إليه . وطبعا كان جابر بن زيد يتعاطف مع آل المهلب لما تربطه بهم من

---

(١) انظر الرسالة رقم ١٧ ص٤٣ .

(٢) انظر الرسالة رقم ١٦ ص٤٠ .

(٣) الكامل فى التاريخ ، جـ٤ ص٥٠٢-٥٠٤ .

صلة القربى من جهة ، ولثقته بأن مكائد الحجاج ضدهم كان مبعثها الحسد وليس المصلحة العامة من جهة أخرى . ونظرا لشدة بطش الحجاج الذى لم يكن يخفى على أحد من معاصريه ، فقد أخذ جابر حذره حين طلب من عبد الملك بن المهلب أن يكتب له بحاجته فى سر وثقة ، حتى لايكتشف الحجاج الأمر فيتخذه ذريعة للتنكيل به . وبالرغم من هذا الحذر ، فإن الحجاج -على مايبدو- لم يغب عنه تعاطف جابر مع آل المهلب واتصالاته بهم ، ولذلك زج به فى السجن ثم أطلق سراحه ونفاه إلى خارج البصرة على النحو السابق الإشارة إليه . وربما شفع لجابر مكانته العلمية البارزة ، خاصة وأن الحجاج لم يكن لديه دليل على أنه يحرض غيره على الثورة ضده ، وأن الأمر لايعدو أن يكون تعاطفا من جابر مع ذوى قرباه واستنكاره لما حلّ بهم من ظلم .

وعلى الرغم من أن الرسائل المنسوبة إلى جابر بن زيد لايمكن القطع بصحة نسبتها إليه ، وأن هذه الرسائل جميعها ليس فيها أدنى إشارة إلى إباضية المرسل أو المرسل إليهم ، وذلك على النحو الذى أوضحناه ، فإن بعض الباحثين يجارون خليفات فيما رتب على هذه الرسائل من نتائج . فيقول رجب عبد الحليم(1) : إن كثيرا من المهالبة ــ رجالا ونساءً اعتنقوا المذهب الإباضى ، وكان جابر نفسه يراسل كبارهم ، ومعروف أن له مراسلات مع عبد الملك بن المهلب الذى كان مع أخيه يزيد فى خراسان عندما كان يزيد واليا عليها بعد وفاة والده المهلب عام ٨٢ هـ . كما يقول محمد قرقش(2) : "ويبدو أن انتشار الأزد ، وخاصة المهالبة ، فى منطقة الشرق الإسلامى فى بداية العصر الأموى رافقه امتداد سرى للدعوة الإباضية أيضا ، فقد ثبت أن هناك مراسلات سرية جرت بين جابر بن زيد من البصرة وبين أفراد من أسرة المهالبة فى خراسان ، حيث كان جابر يطلب من عبد الملك ، أحد أفراد أسرة المهلب فى خراسان ، أن يكتب له سرا فى أمر الدعوة فى منطقته ... وهى طريقة كان يتبعها زعماء الإباضية فى البصرة مع أتباعهم ودعاتهم فى الأقاليم . وبذلك وفر أزد عمان من المهالبة العدد المناسب لانتشار الفكر

(1) الإباضية فى مصر والمغرب ، ص٢٠ .

(2) عمان والحركة الإباضية ، ص١٠٧ .

الإباضى فى مناطقهم . وقد أدى هذا إلى اعتقاد بعض المؤرخين[1] بأن هناك ثورة إباضية وقعت فى خراسان فى نهاية العصر الأموى زمن ولاية نصر بن سيار ، ولكن قضى عليها بسبب قلة أعدادها التى كانت لا تفى باعلان إمامة الظهور" .

خامسا : يقول خليفات : إن جابر بن زيد استطاع أن يكسب عددا من الأتباع ممن تولوا مركز المسئولية ، وأن هؤلاء كانوا يستعنون بآراء إمامهم جابر فى تسيير الإدارة والأعمال فى مناطق نفوذهم من أمثال النعمان بن سلمة فى خراسان الذى أرسل إلى جابر يسأل عن كيفية جمع الجزية فى منطقته ، ويزيد بن يسار الذى عين عاملا فى إحدى مناطق عمان وكان يدين بالمذهب الإباضى ، فارسل إلى جابر يستشيره فى قبول هذه الوظيفة ويطلب نصائحه وإرشاداته .

على أن القول بأن كلا من النعمان بن سلمة ويزيد بن يسار كان يدين بالمذهب الإباضى هو مجرد افتراض لادليل عليه . علما بأننا لانجد لأى منهما ذكرا فى طبقات

---

(١) لم يذكر أحد من المؤرخين الإباضيين أو من مؤرخى أهل السنة أن خراسان شهدت ثورة إباضية فى أثناء ولاية نصر بن سيار . ولكن أحد الباحثين المحدثين ، وهو محمود إسماعيل (الحركات السرية فى الإسلام ص ٣٢-٣٣) يقول : ((وفى حياة أبى عبيدة توجه الدعاة الإباضية إلى خراسان والجزيرة العربية وبلاد المغرب . أما عن دعاته فى خراسان فقد أخفقوا فى مهمتهم لتشيع أهلها ، حقيقة إنهم أفلحوا فى استقطاب بعض الأتباع ، ولكن أعدادهم كانت محدودة لاتفى بإقامة ((إمامة الظهور)) ومناجزة الأعداء . وقد جازفوا بالثورة على نصر بن سيار آخر ولاة بنى أمية فى خراسان ، ولم تسفر مغامرتهم إلا عن افتضاح أمرهم مما جعلهم بعد قليل لقمة سائغة لجيوش أبى مسلم الخراسانى قائد الثورة العباسية)) .

على أن الباحث المذكور لم يشر إلى المصدر الذى استند إليه فى قوله المشار إليه . كما أن المعروف أن الذى فتك به أبو مسلم الخراسانى من زعماء الخوارج هو شيبان بن سلمة الحرورى فى سنة ١٣٠ هـ ولم يكن هذا الحرورى من الإباضية ، وإنما عرف أتباعة بالشيبانية ، وهم ينتمون فى الأصل إلى أحدى فرق الخوارج المعروفة باسم "الثعالبة" .=

[انظر البغدادى : الفرق بين الفرق ، ص٦٠-٦١ ، والكرمانى : الفرق الإسلامية ، ص٧٩] .

الإباضية للدرجيني ولافى سير الشماخى ، وهذا فى حد ذاته دليل على أنهما لم يكونا من الإباضية ، خاصة إذا وضعنا فى اعتبارنا أنهما كانا عاملين على جهتين هامتين ، ومثلهما لم يكونا مغمورين حتى يغفل ذكرهما إذا صح أنهما كانا إباضيين .

كما أن ماورد فى رسالة جابر إلى العاملين المذكورين لايوحى-من قريب أو بعيد- إلى أن أيا من المرسل أو المرسل إليه كان إباضيا ، فرسالة جابر إلى النعمان بن سلمة تحمل رقم ١٣ ، وقد أثبتنا نصها فى قسم الملاحق نظرا لطولها ، مع ملاحظة أن كلمة "المسلمين" ورد ذكرها بهذه الرسالة فى أكثر من موضع ، و لم يعنى بأى منها "الإباضية" ، وذلك على عكس مايرد فى المصادر الإباضية التى تؤرخ للفترة التى عاش فيها جابر بن زيد ومابعدها . أما رسالة جابر إلى يزيد بن يسار فإنها تحمل رقم ١٥ ، ونصها بعد البسملة والمقدمة هو : "وقد أتانى كتابك تذكر الذى ولاك الله من أهل عمان مما ابتلاك به ، وتخبرنى أنك حريص على الاقتصاد (العدل) فيه . لعمرى لئن فعلت ذلك لايسعد به أحد غيرك ، ولئن ضيعت ذلك مايحمل وزره غيرك . فإن استطعت أن تبلغ بالذى أنت فيه الشرف عند الله وملائكته والمؤمنين ، فإنه ليس من عامل يعمل على عمل فيقصد (فيعدل) فيه ويأخذ بالعدل ، إلا أعطاه الله شرف الآخرة على قدر شرف عمله ، ولعمرى لقد استعملت على عمل شريف إن لم يفسدك فيه الشيطان ، فإن فساد الشيطان أن تتخذلك بغيا على عشيرته وغيرهم . فنسأل الله أن يرزقنا أن نعرف له التواضع فيما أعطانا ، والاستكانه فيما عرف الصادقين . اكتب إلىّ بحاجتك وبما كانت لك من حاجة. والسلام عليك ورحمة الله" . ومن الملاحظ أن هذه الرسالة لاتحمل فتوى فى مسالة فقهية ، وإنما هى مجرد نصيحة للعامل المذكور بالتزام جانب العدل فيما ابتلاه الله من مسئولية إدارية ، ولذلك لم يطلب جابرمنه محو رسالته ، وذلك على نحو ماكان يفعله فى بعض رسائله الأخرى .

سادسا : استند جابر بن زيد فى إجابته على أحد استفسارات عبد الملك ابن المهلب على أقوال لعلى بن أبى طالب[1] . علما بأن المحكمة المعاصرين لجابر كانوا يتبرءون من على ويعتبرون اغتياله من أعظم القربات إلى الله تعالى ، بدليل أن أحد

---

(١) الرسالة رقم ١٦ ص ٣٨ .

رءوسهم وقتذاك ، وهو عمران بن حطان المتوفى سنه ٨٤ هـ ، امتدح قاتله عبد الرحمن من ملجم المرادى بقوله[١] :

ياضربة من تقى ماأراد بها	إلا ليبلغ من ذى العرش رضوانا
إنى لأذكره يوما فأحسبه	أو فى البرية عند الله ميزانا

كما أن جابر بن زيد خاطب أحد مراسليه ، وهو طريف بن خليد ، فى الرسالة رقم ١٤ بقوله :"لما أعطاكم الله أهل البيت من الشرف فى الإسلام والرضا فى أهله والثقة عندهم"[٢] . وفى هذا القول دلالة على أن جابرا كان يعتبر أهل البيت كلهم ثقة بما فيهم على بن أبى طالب . كما أنه من المستبعد كثيرا أن يكون طريف بن خليد المخاطب فى الرسالة المذكورة إباضيا . إذ لم نسمع – على مبلغ علمى – بأن أحدا من أهل البيت النبوى اعتنق فكر الخوارج ، لأن أهل البيت جميعا ، علويين وعباسيين ،كانوا يرون أحقيتهم فى تولى الخلافة باعتبارها إرثا عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وهذا مايتعارض كلية مع وجهة نظر الإباضية وكل الخوارج .

سابعا – على الرغم من أن الحجاج أودع جابر بن زيد سجنه لتعاطفه مع آل المهلب الذين نكل بهم الوالى المذكور على النحو الذى سبقت الإشارة إليه ، إلا أنه لم يلبث أن أطلق سراحه ، على عكس زعماء الإباضية الذين بقوا فى سجنه إلى أن توفى سنة ٩٥ هـ . وهم : ضمام بن السائب . وأبو عبيدة بن أبى كريمة ، وصحار العبدى وغيرهم . وفى هذا أبرز دليل على عدم قيادة جابر بن زيد للحركة الإباضية ، لأنه ليس من المعقول أن يبقى الحجاج فى سجنه على بعض الأتباع فى تنظيم يعمل للإطاحة به ثم يطلق سراح رأس هذا التنظيم .

---

(١) القلهاتى : الكشف والبيان ، جـ٢ ص٢٥٣ .

(٢) الرسالة رقم ١٤ ص٣٣ .



الباب الثالث

(علاقة الإباضية بالخوارج)



يعتقد الإباضية[1] أن وضعهم بالنسبة إلى إخوتهم من أهل المذاهب الإسلامية الأخرى وضع غريب ، فبرغم أنهم يعيشون فى بعض البلاد مندمجين مختلطين بإخوتهم من أهل المذاهب الأخرى ، يتعاملون معهم فى جميع شئون الحياة كما يتعامل بعضهم مع بعض ، وتربط الكثير منهم علاقات مودة وصداقة أوثق كثيراً مما تربط أهل المذهب الواحد ، ويتصرف أولئك الإباضيون فى المجتمع تصرف المسلم الطبيعى ، لا يخفى ولا يشذ شىء من سلوكهم الدينى أو المدنى ، ولا ينقم عليهم إخوتهم ، أولئك الذين يعيشون معهم فى السراء والضراء ، بدعة يعرفونها ، أو انحرافا يرونه ، أو خلافا يدعو إلى سوء الظن .رغم كل هذا فإن تلك الكلمة "الخوارج" التى أطلقتها عليهم شفة مغرضة مجهولة ، فى فترة كانت السياسة تلعب فيها أهم الأدوار فى توجيه التهم لمن ينتقد انحرافها عن منهج الله ، منذ ذلك التاريخ فى العصر الأموى - على ما يبدو - والإباضية يقفون فى قفص الاتهام، يقاسون ألم الجفاء من إخوانهم - فيما تزعم تلك التهمة الظالمة - (خوارج) . ومن المؤسف أن كثيرا من الكتاب ، سواء كانوا كتاب مقالات (فى العقائد) ، أو كتاب تاريخ يتتبعون مجرى الأحداث التاريخية ، وقفوا بالنسبة إلى الإباضية موقف المدعى العام الذى يعتقد أن نجاح مرافعته يتوقف على إثبات التهمة ، أو قاضى التحقيق الذى يهمه أن يضع أوزار الجريمة على من ساقته الظروف إليه ، ووضعته التحريات بين يديه ، فيضع هؤلاء "الإباضية" وأتباعها فى قفص الأتهام أولا ، ويحكمون عليهم بأنهم مخطئون لأنهم خوارج، وبعد ذلك قد يبحثون عن الأدلة ، ولكن لإثبات هذه التهمة ، لا لمعرفة الحقيقة. وقد يعرض الإباضية عقيدة أو رأيا لهم بأدلته وبراهينه ، وهو فى نفس الأمر يوافق عقيدة القاضى ، ولكن القاضى يصر مع ذلك على أن القوم مخطئون ، وإن ما يقولونه إنما هو كلام للدفاع ، ثم يحكم برفض الدفاع وإثبات الدعوى ، لا لشىء إلا لأنهم حسبما بلغ إلى علمه (خوارج) ، وحتى عندما يقول الإباضية عن عقيدة ما أو رأى : إنه عندهم كفر وخروج عن الملة ، فإن هذا القول لا يقبل منهم ، وقد يبرءون من رجل ومن أعماله وأقواله ممن لا ينتمى إليهم ، ولكن يقال لهم أيضا : بل هذا الرجل من أئمتكم ، ولو أنكرتم ذلك.

---

(١) انظر : على يحى معمر : الإباضية بين الفرق الإسلامية ، جـ١ ص١٤ - ١٦ .

والمشكلة أن من يتهمون الإباضية بأنهم (خوارج) لا يبحثون أبدا عن الحقيقة ، ولا يرجعون فى تحقيقهم إلى مصادر الإباضية ، وإنما يتناقلون التهمة بنصها جيلا بعد جيل دون إعتبار لصراخ المتهم الموجود فى القفص أو اهتمام به أو سماع لدفاعه .

ويقول الإباضيون[1] : إنه فى عصرنا الحاضر اهتم عدد من الكتاب والباحثين بشئون الفرق الإسلامية ، وعرض بعضهم فيما عرض للإباضية ، وبين يديه كتب قيمة لعلمائها ، ولكنهم لم يرجعوا إلى تلك الكتب ، وراحوا يفتشون عن كتب ليست لهم كتبت عنهم فى ظروف مجهولة ، وهى غالباً لا تسلم من الأخطاء عن حسن النية ، إن سلمت من سوء النية ، بل هى عرضة للأخطاء من جوانب شتى أهمها :

١- عدم توافر النزاهة الكاملة فى الكاتب .

٢- سيطرة آراء معينة على الكاتب تجعله غير مستعد لفهم غيرها أو حتى مجرد مناقشتها .

٣- كفاءة الدراسة والتحقيق لا تكون عنده بالدرجة التى يفرق بها بين الصواب والخطأ .

٤- المصادر التى يستقى منها الكاتب قد تكون مغرضة وقد تكون جاهلة لحقيقة ما حدث .

٥- النفرة بين أتباع المذاهب المختلفة وسوء الظن وشدة التعصب وتمسك كل بما عنده مسبقاً على الآخر بالخطأ والضلال .

على أنه من البديهى أن المصادر الإباضية عرضة للأخطاء بسبب الجوانب المشار إليها نفسها ، إذ ليس من الإنصاف فى شىء أن يصف الإباضيون أعمال مؤرخيهم وكتابهم بالنزاهة على الدوام ، فى الوقت الذى يصفون فيه مخالفيهم بعدم النزاهة ، وبالتأثر بآراء مسبقة تجعلهم غير مستعدين لفهم غيرها ، بالإضافة إلى عدم الكفاءة

---

(١) نفس المصدر السابق والصفحة .

واستقاء المعلومات من مصادر مغرضة أو جاهلة . هذا فضلا عما يشير إليه الإباضية من النفرة بين أتباع المذاهب المختلفة وما ينشأ عنها من سوء الظن والتعصب وتمسك كل بما عنده مسبقا مع الحكم على غيره بالخطأ والضلال .

مما تقدم يتبين لنا مدى الحساسية الشديدة لدى الإباضية ضد كل من يصفهم بأنهم من الخوارج فهو -من وجهة نظرهم- إما ظالم متعصب مغرض ، أو جاهل ضال .

ومهما يكن من أمر ، فسنعرض هنا للعلاقة بين الإباضية والخوارج ، بادئين بوجهة نظر المؤرخين وكتاب الفرق المخالفين للإباضية ، تتبعها وجهة نظر المؤرخين و الكتاب الإباضيين في هذا الصدد ، ثم نستخلص الحقيقة على ضوء ما نطمئن إلى صحته من أقوال الطرفين .

أولاً : موقف المؤرخين وكتاب الفرق من غير الإباضية :

يتفق هؤلاء جميعا[1] على أن الإباضية ، إحدى فرق الخوارج . ولكنهم لايتفقون على المقصود بكلمة "الخوارج"، فيطلقها أغلبهم على أصحاب على بن أبى طالب الذين خرجوا عليه فى صفين سنة ٣٧هـ لقبوله مبدأ التحكيم بينه وبين معاوية بن أبى سفيان ، وأعلنوا تكفيرهم لكل من : عثمان ، وأصحاب الجمل ، وعلى ، ومعاوية ، والحكمين (أبى موسى الأشعرى ، وعمرو بن العاص) ، وكل من رضى بالتحكيم . وقد ظل هؤلاء

---

(١) بالنسبة للمؤرخين أنظر : المبرد : الكامل فى الأدب : ج٣ ص ١٦٣ ، والطبرى : تاريخ الأمم ، ج٥ ص ٥٦٨ ، والمسعودى : مروج الذهب ـ المجلد الثانى ص ١٢٥ ، وابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج٤ ص ١٦٦ ، والمقريزى : الخطط ، ج٢ ص ١٥٥ .

أما بالنسبة لكتاب الفرق ــ أنظر : الملطى : التنبيه والرد على أهل الأهواء ، ص٥١ - ٥٥ ، والأشعرى: مقالات الإسلاميين ،ج١ ص ١٧١ ، والبغدادى : الفرق بين الفرق ،ص ١٠٢ ، وابن حزم : الفصل ، ج٤ ص٧٨، وأبو المظفر الاسفرايينى : التبصير فى الدين ، ص٥٦ والشهرستانى: الملل والنحل ،ص١٣٧ ، والرازى : اعتقادات فرق المسلمين والمشركين :ص ٤٦- ٥١ .

خارجين على عليّ إلى أن حاربهم فى النهروان سنة ٣٨ هـ ، ثم قتله أحدهم ، وهو عبد الرحمن بن ملجم المرادى ، وذلك فى سنة ٤٠ هـ .ويسمى البعض هؤلاء الخوارج باسم "المحكمة الأولى"(١) . ولما انتقلت الخلافة إلى معاوية بن أبى سفيان كان الخوارج من أشد المعارضين لحكمه ، وبقيت المعارضة على أشدها ضد من خلفه من أهل بيته . لكن هؤلاء الخوارج إنقسموا إلى العديد من الفرق(٢) ، وذلك نتيجة للجدل الذى كانوا مولعين به . وقد بدأ هذا الانقسام منذ سنة ٦٥ هـ- ، وهو الانقسام الذى نشأت على أثره أربع فرق منها الإباضية على النحو الذى سبق أن أوضحناه .

على أن البعض يتوسع فى تفسيره لكلمة "خارجى" . فيقول الشهرستانى(٣) : "كل من خرج على الإمام الحق الذى اتفقت الجماعة عليه يسمى خارجيا ، سواء كان الخروج فى أيام الصحابة على الأئمة الراشدين ، أو كان بعدهم على التابعين بإحسان والأئمة فى كل زمان" . ومعنى هذا أن كلمة "خارجى" كانت تطلق أحياناً على أى

---

(١) الناشئ الأكبر : مسائل الإمامة ، ص ٦٩ .

(٢) الظاهرة المميزة فى تاريخ الخوارج هى تفرقهم وكثرة انقساماتهم . وقد ذهب البغدادى إلى أن عدد فرق الخوارج بلغ عشرين فرقة ، وزادها المقريزى (الخطط ج٢ ص ٣٥٤ - ٣٥٥) إلى ثنتين وعشرين فرقة . والراجح أن فرقهم الأصلية بلغت أربعاً فقط هى : الأزارقة ، والنجدات ، والإباضية ، والصفرية ، ثم تفرعت كل منها إلى فروع عدة . فالعجاردة مثلا ، وهم أتباع عبد الكريم عجرد . كانوا فى الأصل من النجدات لكنهم انشقوا عنهم ، ثم لم يلبث العجاردة أن تفرعوا بدورهم إلى فروع شتى بسبب الجدل الذى كان لايتوقف فيما بينهم . (أنظر عامر النجار: الخوارج ، ص١٤٥ ومابعدها) .

وقد ذهب البعض (سهير القلماوى : أدب الخوارج ، ص٣٥) إلى أن هذه الانقسامات بين الخوارج كانت خطة مقصودة من جانبهم لإحكام الهجوم على الدولة الأموية . لكن ذلك من المستبعد،لأن القتال كثيرا ماكان ينشب بين أتباع هذه الفرق ذاتها (ابن خلدون : العبر ، ج٣ ص ٣١٤) .

(٣) الملل والنحل ص ١١٨ .

متمرد أو ثائر ، فضلا عن استعمالها أصلا للدلالة على الخوارج العقائديين[1] . علما بأن بعض القبائل وكثيرا من البدو آزروا الخوارج ضد السلطة المركزية فى صدر الإسلام لأسباب مصلحية بحته ليس للعقيدة فيها أثر ، ولذلك غدت كلمتا "الأعراب" و "الشراة" متلازمتين خلال القرنين الأول والثانى بعد الهجرة ، ويصعب الفصل بين الحركات القبلية المتمردة على السلطة المركزية وبين حركات الخوارج العقائديين، ويتضح ذلك جليا فى كلام البلاذرى[2] عن أهل الفتنة والفساد من الأعراب والشراة .

ويتفق المؤرخون وكتاب الفرق من أهل السنة على أن الخوارج -خاصة بعد تطورمذهبهم وتعدد فرقهم- يمثلون جانبا من الغلو والتطرف فى التاريخ الإسلامى ، إذ كان هؤلاء يتشددون فى معاملة مخالفيهم إلى درجة التنكيل حتى بالمراة والشيخ الفانى والأطفال الرضع ، وعلى الرغم من كثرة تعبدهم وظهورهم بمظهر الزهاد ، فإنهم لم يتورعوا عن سفك دماء مخالفيهم من المسلمين الذين كانوا يعدونهم كفارا ، بل إنهم كانوا يعاملونهم بما هو أقسى من معاملة الكفار ، فيحكى المبرد[3] أن واصل بن عطاء رأس المعتزلة وقع فى أيديهم ، فادعى أنه مشرك مستجير وطلب منهم أن يبلغوه مأمنه ،

---

(١) يقصد بهم أولئك الذين كانوا يخرجون على أولى الأمر فى الدولة الإسلامية انطلاقا من المبادئ السياسية والدينية التى آمنوا بها ودافعوا عنها بحماسة ، معتقدين أن صلاح الأمة مرهون بتطبيقها . فالخلافة -على سبيل المثال- يجب ألا ترتبط بجنس أو لون أو قبيلة أو أسرة ، وإنما يشترط فيمن يتولاها الكفاءة النسبية لأى مسلم ، فكل مؤمن غير متهم فى دينه أو خلقه يستطيع ببيعة الجماعة أن يبلغ الإمامة الكبرى ولو كان عبدا ، أما مرتكب الكبيرة فهو فى نظر أغلب فرق الخوارج مشرك تجب معاملته معاملة المشركين ، سواء كان حاكما أو محكوما ، أما فرقة الإباضية فإنها لاتعتبر مرتكب الكبيرة مشركا إلا إذا أخل بالاعتقاد الإسلامى كإنكار ماعلم من الدين بالضرورة، أو تحريم ما أحله الله ، أو أحلّ ماحرمه الله .

(٢) أنساب الأشراف (مخطوط) بمكتبة الدراسات العليا بكلية الآداب - جامعة بغداد (انظر فاروق عمر فوزى : التاريخ الإسلامى وفكر القرن العشرين ، ص ١٧) .

(٣) الكامل فى الأدب ، ج٣ ص ١٨٠ .

ففعلوا ، فى حين أنهم كانوا يفتكون بالمسلم المخالف الذى لايتبرأ من عثمان وعلى وغيرهما ممن كان يتبرأ منهم الخوارج ، مثلما فعلوا بعبد الله بن خباب بن الأرت . كما يحكى البغدادى[1] أن الأزارقة من الخوارج كانوا يختبرون أى شخص يدعى أنه منهم بأن يدفعوا إليه أحد الأسرى من مخالفيهم ويأمرونه بضرب عنقه ، فإن فعل صدقوه فى دعواه أنه منهم ، وإن لم يفعل اتهموه بالكذب والنفاق والشرك وبادروا بقتله . ويؤكد المبرد[2] أن هؤلاء الأزارقة كانوا يقتلون كل من يكذب عليهم ويتبرءون منه .

وقد اتصف الخوارج أيضاً بالتشدد فى العبادة ، فيروى أن عبد الله بن عباس حينما ذهب لمناقشتهم رأى منهم جباها قرحة لطول السجود ، وأيدى كثفنات الإبل عليها قمص مرحضة[3] (طاهرة) .

ويصف أبو زهرة[4] فرقة الخوارج بأنها من أشد الفرق الإسلامية دفاعا عن مذهبها وحماسة لآرائها ، وأشد الفرق تدينا فى جملتها ، وأشدها تهورا واندفاعا ، وهم فى دفاعهم وتهورهم مستمسكون بألفاظ قد أخذوا بظواهرها وظنوا هذه الظواهر دينا مقدسا ، لايحيد عنه مؤمن ، وقد استرعت ألبابهم كلمة "لاحكم إلا لله" فاتخذوها دينا ينادون به ، فكانوا كلما رأوا عليا يتكلم قذفوه بهذه الكلمة ، كما استهوتهم أيضا فكرة البراءة من سيدنا عثمان والبراءة من الإمام على والحكام الظالمين من بنى أمية . ولقد ناقشهم الخليفة عمر بن عبد العزيز ، وكان من الخلاف بينه وبينهم أنه لم يعلن البراءة من أهل بيته الظالمين ، مع إقرارهم أنه خالف من سبقه من بنى أمية ومنع استمرار ظلمهم بل رد المظالم التى ارتكبوها إلى أهلها ، ولكن استولت عليهم فكرة النطق بالتبرؤ ، فكانت هى الحائل بينهم وبين الدخول فى طاعة هذا الخليفة العادل والسير تحت لواء الجماعة الإسلامية . وإنهم ليشبهون -فى استحواذ الألفاظ البراقة على عقولهم ومداركهم-

---

(١) الفرق بين الفرق ، ص ٨٣ .

(٢) الكامل فى الأدب ، ج٣ ص ٨٩٠ .

(٣) المبرد : نفسه ، ج٢ ص ١٤٣ .

(٤) تاريخ المذاهب الإسلامية ، ص ٦٠- ٦١ .

اليعاقبة الذين ارتكبوا أقسى الفظائع فى الثورة الفرنسية ، منذ استولت على هؤلاء ألفاظ الحرية والإخاء والمساواة ، وباسمها قتلوا الناس ، وأهرقوا الدماء . وأولئك الخوارج استولت عليهم أيضاً ألفاظ الإيمان ولاحكم إلا لله ، والتبرؤ من الظالمين ، وباسمها أباحوا دماء المسلمين وخضبوا الأرض الإسلامية بنجيع الدماء وشنوا الغارة فى كل مكان .

ويحكى المبرد[1] واقعة تشير إلى أن الخوارج كانوا يأخذون بظواهر القرآن الكريم دون أى تمعن ، وخلاصة هذه الواقعة هى أن جماعة من الخوارج رأوا أحد أعيانهم ، واسمه عبيده بن هلال اليشكرى ، يتردد على دار حّداد بدون إذنه ، فاتهموه بامرأته ، وشكوه إلى أميرهم قطرى بن الفجاءة . فقال لهم : إن عبيده من الدين بحيث علمتم ، ومن الجهاد بحيث رأيتم . فقالوا : إنا لانقره على الفاحشه . فقال : انصرفوا. ثم بعث إلى عبيده فأخبره ، فقال : بهتونى ياأمير المؤمنين كما ترى . قال : إنى جامع بينك وبينهم فلا تخضع خضوع المذنب ، ولاتطاول تطاول البرئ . فجمع بينهم فتكلموا فقام عبيدة فتلا قوله تعالى ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم . إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لاتحسبوه شرا لكم ، بل هو خير لكم ، لكل أمرئ منهم مااكتسب من الإثم ، والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم** ...﴾[2] الآيه . فلما سمعوها بكوا وقاموا إليه واعتنقوه ، وقالوا : استغفر لنا الله . وهكذا نرى أنهم وجهوا التهمة فى البداية إلى عبيدة بدون دليل، ثم برأوه فى النهاية لمجرد الاستماع إلى الآية الكريمة المذكورة دون الوقوف على أى دليل يبرئ ساحة الرجل من هذا الاتهام الفظيع .

وقد ذهب فريق من أهل السنة إلى أن الخوارج من الكفار الخارجين عن الإسلام، بينما أدخلهم جمهور أهل السنة فى عداد المسلمين . واستند الفريق الأول فيما ذهب اليه على أن الخوارج استحلوا ماحرمه الله تعالى من دماء المسلمين وأموالهم ، كما أنهم هم المقصودون بحديث المروق من الدين الذى أوردته كتب الصحاح .

---

(١) الكامل فى الأدب ، ج٢ ص ٢٢٥ -٢٢٦ .

(٢) سورة النور آية ١١ .

فقد روى الإمام مسلم[1] فى صحيحه بسنده عن زيد بن خالد الجهنى : أنه كان فى الجيش الذى سار به على بن أبى طالب إلى الخوارج فى النهروان ، فقال على رضى الله عنه : أيها الناس ، إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "يخرج قوم من أمتى يقرءون القرآن ، ليس قراءتكم إلى قراءتهم بشئ ، ولاصلاتكم إلى صلاتهم بشئ ولا صيامكم إلى صيامهم بشئ ، يقرءون القرآن ويحسبون أنه لهم وهو عليهم ، لاتجاوز صلاتهم تراقيهم[2] ، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية . وآية ذلك أن فيهم رجلا له عضد وليس له ذراع ، على رأس عضده مثل حلمة الثدى ، عليه شعيرات بيض[3] . أفتذهبون إلى معاوية وأهل الشام وتتركون هؤلاء يخلفونكم فى ذراريكم وأموالكم . والله إنى لأرجو أن يكونوا هؤلاء القوم ، فإنهم قد سفكوا الدم الحرام ، وأغاروا على سرح الناس[4] فسيروا على اسم الله" .

قال مسلمة بن كهيل : فنزّلنى زيد بن وهب منزلا حتى قال : "مررنا على قنطره، فلما التقينا وعلى الخوارج يومئذ عبد الله بن وهب الراسبى ، فقال لهم : ألقوا الرماح وسلوا سيوفكم من جفونها فإنى أخاف أن يناشدوكم كما ناشدوكم يوم حروراء ، فرجعوا فوحشوا (رموا بها عن بعد) برماحهم ، وسلوا السيوف وشجرهم (طعنهم) الناس برماحهم ... قال : وقتل بعضهم على بعض ، وماأصيب من الناس يومئذ إلا رجلان ... فقال على رضى الله عنه : التمسوا فيهم المخدّج[5] ، فالتمسوه فلم يجدوه ، فقام على بنفسه حتى أتى أناسا قد قتل بعضهم على بعض ، فقال : أخروهم . فوجدوه (أى المخدج) مما يلى الأرض ، فكبر ثم قال : صدق الله وبلّغ رسوله . قال : قام إليه

---

(١) النووى على مسلم ج٧ ص ١٧١ . ورواه أبو داود ، ج٤ رقم ٤٤ ، رقم ٤٧٦٨ ، وفى البخارى بعضه بنحوه ، ج٤ ص ١٦٠ ، ج٩ ص ١٥ .

(٢) التراقى : جمع ترقوه ، وهى العظم الذى بين ثغر النحر والعاتق والمراد عدم انتفاعهم بالعبادة .

(٣) اشتهر هذا الرجل بذى الثدية ، ويقصد به حرقوص بن زهير (الشهرستانى : الملل والنحل ، ص١٢٠) .

(٤) يقصد بذلك الأنعام التى ترعى ومن يرعاها .

(٥) أى الرجل الذى وصف بأن له عضد وليس له ذراع .

عبيده السلماني فقال : ياأمير المؤمنين ، والله الذى لاإله إلاّ هو أسمعت هذا الحديث من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : إى والله الذى لا إله إلا هو ، حتى استحلفه ثلاثا وهو يحلف له .

وعن أبى سعيد الخدرى -رضى الله عنه- قال : بعث على رضى الله عنه ، وهو باليمن بذهبة فى تربتها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقسمها بين أربعة نفر : الأقرع بن حابس الحنظلى ، وعيينة بن حصن الفزارى ، وعلقمة بن علاثه العامرى ، ثم أحد بنى كلاب ، وزيد الخير الطائى ثم أحد بنى نبهان — قال فغضبت قريش فقالوا : أيعطى صناديد نجد ويدعنا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم — أنى فعلت ذلك لأتلفهم[1] . فجاء رجل كث اللحية ، مشرق الوجنتين ، غائر العينين ، ناتئ الجبين ، محلوق الرأس فقال : اتق الله يامحمد . قال : فقال رسول الله : فمن يطع الله إن عصيته، أيأمننى على أهل الأرض ولا تأمونونى ؟ قال : ثم أدبر الرجل ، فاستأذن رجل من القوم فى قتله ... فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن من ضئضئ[2] هذا قوما يقرءون القرآن لايجاوز حناجرهم ، يقتلون أهل الإسلام ، ويدعون أهل الأوثان ، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية ، لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد"[3] .

وفى رواية أبى سعيد الخدرى[4] أيضا بعد أن ذكر قصة الرجل الموصوف بالصفات المشار إليها "فقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : يارسول الله ، ائذن لى فيه أضرب عنقه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : دعه ، فإن له أصحابا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم ، وصيامه مع صيامهم ، يقرءون القرآن لايجاوز تراقيهم ، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية ، ينظر إلى نصيله[5] فلا يوجد فيه شئ ، ثم ينظر

---

(١) أى لأستميلهم إلى الإسلام بما يحبونه من المال حتى يتم تفهمهم له .

(٢) أى من عنصره وذريته .

(٣) النووى على مسلم ج٧ ص ١٦١ ، والبخارى ،ج٩ ص ١٢٩ ، وأبو داود ج٤ ص ٢٤٣ .

(٤) النووى على مسلم ج٧ ص ١٦٥ ، والبخارى ،ج٩ ص١٥ .

(٥) النصل = حديدة السهم .

إلى رصافه[1] فلا يوجد فيه شئ ، ثم ينظر إلى فضيه فلا يوجد فيه شئ ، وهو القدح[2] ، ثم ينظر إلى قذذه[3] فلا يوجد فيه شئ سبق الفرث والدم ، آيتهم رجل أسود إحدى عضديه مثل ثدى المرأة أو مثل البضعة[4] تدردر[5] ، يخرجون على حين فرقة من الناس . قال أبو سعيد : فأشهد أنى سمعت هذا من رسول الله صلى اله عليه وسلم ، وأشهد أن عليا بن أبى طالب رضى الله عنه قاتلهم وأنا معه ، فأمر بذلك الرجل فالتُمس فوُجد فأتى به حتى نظرت إليه على نعت رسول الله الذى نعت .

وفى رأى البعض -ومنهم الملطى[6]- أنه ينطبق على الخوارج ماروى النبى صلى الله عليه وسلم بإجماع الأمة أنهم مارقة ، لأن نص الحديث المشار إليه صريح فى مروقهم من الدين كما يمرق السهم من الرمية . كما أن واقع أحوالهم فيما بعد يشهد بما جاء فى هذا الحديث الشريف ، فقد أهرق الخوارج دماء المسلمين وكفروا الكثيرين من السلف والخلف واستحلوا ماحرمه الله تعالى عليهم ، وكل هذه الأفعال تشهد عليهم بأنهم خرجوا من الدين .

أما علماء أهل السنة الذين يدخلون الخوارج فى عداد المسلمين ولايعتبرونهم كفارا فهم كثيرون . فيذكر الطبرى[7] أن على بن أبى طالب كان يقول للخوارج : "علينا ثلاث ، لا نبدؤكم بقتال ، ولانمنعكم مساجد الله أن تذكروا فيها اسمه ، ولانمنعكم من الفئ مادامت أيديكم مع أيدينا" . ، وهذا يعنى أن عليا رضى الله عنه لم يكن يعتبر هؤلاءالخوارج مشركين . ويؤكد ذلك مارواه ابن كثير[8] من أن عليا حين سئل عن

---

(١) الرصاف : بكسر الراء وهى مدخل النصل من السهم .

(٢) القدح = هو السهم قبل أن يركب نصله .

(٣) القُذذ ، بضم القاف هو ريش السهم .

(٤) البضعة ، بفتح الباء ، هى قطعة اللحم .

(٥) معناها تضطرب .

(٦) التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع ، ص ٥٤ .

(٧) تاريخ الأمم والملوك ، ج٥ ص ٧٣ .

(١) البداية والنهاية ، ج٧ ص ٢٩٠ .

شركهم أجاب بقوله : "من الشرك فروا . فقيل له : أمنافقون ؟ قال : إن المنافقين لايذكرون الله إلا قليلا. فقيل فماهم ياأمير المؤمنين ؟ قال : إخواننا بغوا علينا" . كما أن الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز أمر بالكف عن مطاردة الخوارج مالم يسفكوا دما أو يستحوذوا على مال . وهذا ما حدا بعالم كالشاطبى[1] إلى عدم تكفير الخوارج بالنظر إلى أن الخليفتين المذكورين لم يعاملاهم معاملة المرتدين على النحو المذكور .

هذا فضلا عن أن البغدادى[2] حدد شروطا قال إنه لابد من توافرها لكل من يصح اعتباره داخلا فى جملة المسلمين ، واعتبر الخوارج ممن تنطبق عليهم هذه الشروط باستثناء فئة قليلة منهم . يقول الفقيه المذكور " "والصحيح عندنا أن أمة الإسلام تجمع المقرين بحدوث العالم وتوحيد صانعه وقدمه وصفاته ، وعدله وحكمته ونفى التشبيه عنه، وبنبوة محمد صلى الله عليه وسلم ورسالته إلى الكافة ، وبتأبيد شريعته وبأن كل ماجاء به حق ، وبأن القرآن منبع أحكام الشريعة ، وأن الكعبة هى القبلة التى يجب الصلاة إليها، فكل من أقر بذلك كله و لم يشبه ببدعة تؤدى إلى الكفر فهو السنى الموحد ، وإن ضم إلى هذه الأقوال مما ذكرناه بدعة شنعاء ، نظر ، فإن كان على بدعة الباطنية .. الذين يعتقدون إلهية الأئمة أو إلهية بعض الأئمة ، أو كان على مذهب الحلول[3] ، أو كان على مذاهب أهل التناسخ[4] ، أو على مذهب الميمونية من الخوارج الذين أباحوا نكاح البنات وبنات البنين ، أو على مذهب اليزيدية من الإباضية بقولها بأن شريعة الإسلام تنسخ فى آخر الزمان ، أو أباح مانص القرآن على تحريمه ، أو حرم ماأباحه القرآن نصا لايحتمل التأويل، فليس هو من أمة الإسلام ولاكرامة له .

وإن كانت بدعته من جنس بدعة المعتزلة أو الخوارج ... فهو من الأمة فى بعض أحكامها وهو جواز دفنه فى مقابر المسلمين ، وفىألا يمنع من الفئ والغنيمة إذا غزا مع

---

(١) الاعتصام ، ج٢ ص ١٨٥ .

(٢) الفرق بين الفرق ص ١٣-١٤ .

(٣) الحلول : يقصد به القول بحلول روح الله تعالى فى أجساد البشر .

(٤) التناسخ : يقصد به حلول أرواح البشر فى أجساد الحيوانات .

المسلمين ، وفى ألا يمنع من الصلاة فى المساجد . وليس من الأمة فى أحكام سواها ، وذلك ألاتجوز الصلاة عليه ولاخلفه ولاتحل ذبيحته ولانكاحه لامرأة سنية ، ولايحل للسنى أن يتزوج المرأة منه إذا كانت على اعتقادهم" .

كما يقول ابن حجر العسقلانى[١] : "ذهب أكثر أهل الأصول من أهل السنة والجماعة إلى أن الخوارج فساق ، وأن حكم الإسلام يجرى عليهم لتلفظهم بالشهادتين ومواظبتهم على أركان الإسلام ، وإنما فسقوا بتكفيرهم المسلمين مستندين إلى تأويل فاسد" . وقد أورد الفقيه المذكور ماذكره الخطابى من القول بأن علماء المسلمين أجمعوا على أن الخوارج -على الرغم من ضلالتهم- فرقة من فرق المسلمين ، وأجازوا مناكحتهم وأكل ذبيحتهم ، وأنهم لايكفرون ماداموا متمسكين بأصل الإسلام[٢] .

هذا ، ولاتعتبر المالكية "الخوارج" من المشركين وإنما يعتبرونهم أهل بدعة ، ففى رأى للإمام مالك أنهم يستتابون ، فإن تابوا وإلاّ قتلوا . وقد ذهب بعض الحنابلة إلى تكفير كل أهل البدع ، ومن بينهم الخوارج طبعاً ، إلا أن ابن تيمية لم يوافق على ذلك ، لأنه مادام من أصول أهل السنة والجماعة أنهم لايكفرون أحدا بذنب ، فمن المنطقى أنهم لايكفرون أحداً ببدعة .

وبالنسبة لمن يرون تكفير الخوارج بناءً على حديث المروق السابق الإشارة إليه بقول الدكتور صابر طعيمة[٣] : "وقد استند القاضى أبو بكر بن العربى بهذا الحديث فى حكمه بكفر الخوارج ، وذلك لما فهمه من قوله صلى الله عليه وسلم "يمرقون من الدين". لكن بقية الحديث تشرح هذه العبارة التى ساعدت بعض العلماء على الحكم بعدم تكفير الخوارج ، وهو قوله صلى الله عليه وسلم : "...فينظر الرامى إلى سهمه ، إلى نصله ، إلى رصافه ، فيتمارى فى الفوقة ، هل علق بها من الدم شئ" ؟ ، فالتمارى هذا من الشك ، وإذا وقع الشك فى ذلك ، لم يقطع عليهم بالخروج من الإسلام ، لأن من ثبت له عقد الإسلام بيقين لم يخرج منه إلاّ بيقين .

---

(١) فتح البارى بشرح صحيح البخارى ،ج١٢ ص ٣٠٠.

(٢) نفس المصدر السابق والصفحة .

(٣) الإباضية عقيدة ومذهبا ، ص ٤١ .

أما موقف المؤرخين وكتاب الملل والنحل السنيين من الإباضية خاصة ، فإن قلة نادرة منهم[1] تصف هذه الفرقة بالغلو . أما الأغلبية العظمى منهم فيشيرون صراحة إلى اعتدال أتباعها . فيقول المبرد[2] : "وقول عبد الله بن إباض أقرب إلى السنة من أقاويل الضلاّل . كما أثبت الطبرى[3] أن ابن إباض اعترض على نافع بن الأزرق فى كل ماذهب إليه من تطرف وغلو ، وذلك على النحو الذى سبقت الإشارة إليه . ويؤكد رجال المقالات وكتاب الملل والنحل والأهواء ما أثبته كل من المبرد والطبرى بالنسبة لاعتدال فرقة الإباضية ، فيقول ابن حزم[4] : "أسوأ الخوارج حالا الغلاه ، وأقربهم إلى أهل الحق الإباضية" كما يشير الكثيرون[5] غيره إلى أن الإباضية يعتبرون مخالفيهم من أهل القبلة مسلمين غير مشركين ولامؤمنين ، ويطلقون عليهم كفار نعمة ، لاكفار شرك، وذلك على أساس أن هؤلاء المخالفين موحدون لم يكفروا ، وإنما فقط قصروا فى جانب الله تعالى . ولذا فالإباضية يحلون مناكحة المخالفين من المسلمين وموارثتهم ، ولايحلون من غنائم المسلمين الذين يحاربونهم إلا الخيل والكراع وكل مايعين على القتال، أما ماعدا ذلك من الأموال حرام يتعين رده . هذا فضلا عن أن الإباضية يجوزون شهادة مخالفيهم على أوليائهم ويحرمون قتلهم غيلة أو سرا، ولايجوزون قتل خصومهم إلا إذا أعلنوهم بالقتال وأقاموا عليهم الحجة ، كما يقولون : إن دار مخالفيهم من أهل الإسلام دارتوحيد لادار كفر ، ماعدا معسكر السلطان فإنه دار كفر .

حقيقة يشير الأشعرى[6] وغيره[7] إلى ظهور بعض الغلاة بين الإباضية بمضى

---

(١) الملطى : التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع ص ٥٢ ، والمقريزى : الخطط ، ج٢ ص ٣٣٥ .

(٢) الكامل فى الأدب ، ج٣ ص ١٦٣ .

(٣) تاريخ الأمم ج٥ ص ٥٦٨ .

(٤) الفصل فى الملل والأهواء والنحل ، ج٤ ص ١٨٠ .

(٥) البغدادى : الفرق بين الفرق ، ص ١٠٣ ، والشهرستانى : الملل والنحل ، ص ١٣٧ ، والاسفراييني: التبصير فى الدين ، ص ٥٦ .

(٦) مقالات الإسلاميين ، ص ١٠٢- ١٠٣ .

(٧) الشهرستانى : الملل والنحل ، ص ١٣٨- ١٣٩ .

الزمن ، مثل : الحفصية ، والحارثية ، واليزيدية ، والحفصية هم أتباع حفص بن المقدام الذين زعموا أن بين الشرك والإيمان معرفة الله وحده ، فمن عرفه تعالى ثم كفر بما سواه من رسول أو كتاب أو جنة أو نار ، أو ارتكب الكبائر من الزنا والسرقة والقتل وغير ذلك ، فهو كافر لكنه برئ من الشرك . أما الحارثية ، أصحاب الحارث بن زيد الإباضى فقد خالفوا الإباضية فى قولهم بالقدر على مذهب المعتزلة . وبالنسبة إلى اليزيدية ، أتباع يزيد بن أنيسة ، فقد زعموا أن الله تعالى سيبعث رسولا من العجم وينزل عليه كتابا من السماء دفعة واحدة .

على أنه من الجدير بالذكر أن الغلاة المشار إليهم من الإباضية كانوا قلة نادرة تبرأت منهم الأغلبية ، فيذكر الأشعرى[1] أن جل الإباضية تبرءوا من حفص بن المقدام وأتباعه . كما أن ماأشار إليه الفقيه المذكور من مخالفة الحارثية لسائر الإباضية فى القول بالقدر على مذهب المعتزلة فيه دلالة على تميز الإباضية عنده وسلامتها فى معتقدها عن معتقد المعتزلة . أما بالنسبة ليزيد بن أنيسة المشار إليه فيقول الأشعرى[2] : "وجلهم (الإباضية) تبرأ منه" . علما بأن البغدادى[3] ذكر الفرق التى تفرعت إليها الإباضية و لم يجعل من بينها اليزيدية ، لأنهم خرجوا عن جملة المسلمين .

وبالنسبة لموقف الكتاب المحدثين السنيين من فرقة الإباضية ، نجد أن جلهم يشيرون إلى اعتدال هذه الفرقة وإنصاف أتباعها لمخالفيهم . فيقول عنهم الشيخ محمد أبو زهرة[4]: "وهم أكثر الخوارج اعتدالا وأقربهم إلى الجماعة الإسلامية تفكيرا ، فهم أبعدهم عن الشطط والغلو ، ولذلك بقوا ، ولهم فقه جيد ، وفيهم علماء ممتازون ... وقد اقتبست القوانين المصرية فى المواريث بعض آرائهم" .

---

(١) مقالات الإسلاميين ، ص ١٠٢ .

(٢) نفسه ، ص ١٠٤ .

(٣) الفرق بين الفرق ، ص ٢٧٩ .

(٤) تاريخ المذاهب الإسلامية ، ص ٧٨ .

ويرى على مصطفى الغوابى[1] أن الإباضية ، وإن كانوا خلفاً للخوارج ، إلا أنهم تساهلوا فى كثير من الأحكام التى كان يتشدد فيها سلفهم . ويشير إبراهيم عبد الباقى[2] إلى اعتدال الإباضية بقوله : إنهم لايكفرون أحدا من أهل القبلة إلا إذا أخل بالاعتقاد الإسلامى كإنكار ماعلم من الدين بالضروة . كما أن مرتكب الكبيرة عندهم ليس مشركا ، وذلك على عكس ماتقول به بقية فرق الخوارج . ويؤكد الدكتور عامر النجار[3] اعتدال الإباضية بقوله : وهم أقرب فرقهم (الخوارج) إلى الجماعة الإسلامية ، ومذهبهم أكثر تسامحا من كل فرق الخوارج ، ولهذا كتب لهذه الفرقة البقاء دون سائر الفرق الخارجية ... وذلك بسبب تسامحهم مع مخالفيهم وإنصافهم لهم" . ويقول الدكتور مصطفى الشكعة[4] : "وعقيدة الإباضية تتفق مع أهل السنة فى الكثير وتختلف فى القليل، فهم يعترفون بالقرآن والحديث كمصدر للعلوم الدينية ، ولكنهم يقولون بالرأى بدلا من القياس والإجماع" .

ثانيا : موقف المؤرخين والكتاب الإباضيين :

ينكر الكتاب الإباضيون المحدثون أية صلة للإباضية بالخوارج ، اللهم إلا الاتفاق فيما بينهما حول إنكار التحكيم وعدم ضرورة أن يكون الإمام من قريش . ويسوق هؤلاء الكتاب عددا من الأدلة لإثبات صحة موقفهم المشار إليه وأهمها ما يلى :

(١) إن أسلاف الإباضية من منكرى التحكيم الذين حاربهم على بن أبى طالب فى معركة النهروان سنة ٣٨ هـ لايصح أن يطلق عليهم اسم "الخوارج" ، لأن بعض مشاهير المسلمين -طبقا لما يذكره المبرد[5]- كانوا ينكرون التحكيم ، مثل : الإمام

---

(١) تاريخ الفرق الإسلامية (انظر على يحى معمر : الإباضية بين الفرق الإسلامية ،ج١ ص ٨٠ ، ٨٤).

(٢) الدين والعلم الحديث ، ص٢٥٢ وما بعدها .

(٣) الخوارج ، ص١٦٥ .

(٤) إسلام بلا مذاهب ، ص١٥٠ .

(٥) الكامل فى الأدب ج٣ ص ١١٨ .

مالك ابن أنس ، والحسن البصرى ، وعلى الرغم من ذلـك لم يدخلهمـا أحـد فـى عـداد الخوارج . كما أن الثوار الذين قتلوا أمير المؤمنين عثمان بـن عفـان لم يطلـق عليهـم هـذا الاسم ، ولم يطلق أيضاً على طلحة والزبير ومعاويـة وأتبـاعهم الذيـن حـاربهم علـى فـى معركتى الجمل وصفين.

وقد أشار على يحى معمر[1] إلى ثورات خمس علـى عصـر الراشـدين ، مسـتعرضا ظروف كل منها بقصد بيان الفئة التى يجب أن يطلق عليهـا اسـم "الخـوارج" مـن وجهـة نظره ، فقال : إن أول هذه الثورات هى ما حدث علـى عهـد أبـى بكـر الصديـق حيـث ادعى بعض زعمائها النبوة وأنكر البعض الآخر الزكـاة . والثانيـة هـى تلـك التـى انتهـت بمقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان . والثالثة هى التى تزعمها طلحة والزبير ضـد الإمـام على بن ابى طالب ، أما الرابعة فهى التـى اصطـدم فيهـا جيـش الإمـام ومعاويـة بـن أبـى سفيان فى معركة صفين . وبالنسبة للثورة الخامسة فإنها تتمثل فى موقف أولئك الذين لم يرتضوا التحكيم، وحذروا عليا من قبوله ، وكانوا يرون أن معاوية بـا غ لاحـق لـه ، وأن بيعة على قد انفسخت بموافقته علىالهدنة ورضائه بالتحكيم ، فلم تبق لأحد فـى أعنـاقهم بيعة ، وليس لأحد عليهم ميثاق ، وقد تداعى هؤلاء أن يعتزلوا جيش على ، وركنـوا إلى موقع يسمى حروراء فانعزلوا فيه ، ينتظرون تجدد الحوادث وإتجاه الأمة فى قضية الخلافة، ويمكن أن يسمى هذا الانعزال عن جيش على بالثورة الخامسـة ، تلـك التـى ظـل موقـف أصحابها سلبيا حتى أعلن الحكمان عزل على ومعاوية عن الخلافة وترك الأمر شورى بين المسلمين يختارون مايشاءون ، وقد اختار هؤلاء المنعزلـون إمامـا شـرعيا هـو عبـد الله بـن وهب الراسبى ، ولم يقيموا وزنا لدعوى عـزل معاويـة ، لأنـه لم يتـول الخلافـة إلى ذلـك الحين ، لابالإكراه ولا بالشـورى ، فـلا معنـى لعزلـه مـن منصـب ليـس هـو فيـه ، كمـا لايقيمون أى وزن لتولية عمرو بن العاص له ، لأن عمـرا لم يفوضـه المسـلمون فـى توليـة أمير المؤمنين . أما نظرة المنعزلين إلى على فقد كانوا يتوقعون أن يتفق الحكمان على إقراره فى الحكم ، وحينئذ ترجع إلى على الصبغة الشرعية التى تنازل عنها لإثباتها ، ويجب على المسـلمين حينئـذ أن يوحـدوا صفوفهـم تحـت طاعتـه مـا قـام فيهـم بكتـاب الله . ولكـن

(١) الإباضية فى موكب التاريخ ، الحلقة الأولى ص ٢٠ -٢٥ .

المندوب الذى اختاره ليمثله فى هذه القضية الظالمة أعلن أنه عزل عليا عن إمرة المسلمين، وأن الأمر أصبح للشورى والاختيار . لذلك بايعوا أميراً للمؤمنين وخليفة للمسلمين بعد على ابن أبى طالب ، فهو الخليفة الشرعى الخامس فى نظرهم . وبهذه الخطوة أصبحت الأمة الإسلامية منقسمة إلى ثلاث دول : دولة يرأسها معاوية وإن لم يبايعه عليها أحد إلى ذلك الحين ، ودولة يرأسها على بن أبى طالب الذى لم يعترف بعزل مندوبه له فى قضية التحكيم ، ودولة يراسها عبد الله بن وهب الراسبى بعد أن بايعه جمع كبير من المسلمين. ومع كل فرقة من هذه الفرق الثلاث جمع غير قليل من كبار الصحابة ، وفيهم المشهود له بالجنة .

ثم يقول على يحى معمر[1] : إذا أردنا أن نستخلص طائفة معينة من الطوائف التى قامت بالثورات الخمس المشار إليها لنطلق عليها اسم "الخوارج" بحيث ينطبق عليها هذا الاسم انطباقا كاملا من الناحيتين السياسية والدينية ، فيكونون خوارج على الخلافة ومارقين على الدين طبقا لحديث المروق - فأى هذه الطوائف الثائرة يمكننا أن نطلق هذا الاسم عليها ؟

ويجيب الكاتب المذكور على هذا التساؤل بأن أكثر المؤرخين الأوائل ، وقد كانوا إما تبعا للشيعة أو صنائع للأمويين ، قد أطلقوه على تلك الطائفة التى اعتزلت عليا عند التحكيم وبايعت عبد الله بن وهب الراسبى إماما ، وثارت على الظلم وفساد الحكم فى الدولة الأموية ، وعلى من جاء من بعدها ممن سار فى ذلك الطريق ، وتنكب عن سيرة الخلفاء الراشدين . ولكى يصبغ أولئك المؤرخون هذه التسمية باللون المقبول ، ربطوا المعنى السياسى لكلمة الخروج بالمعنى الدينى وهو المروق عن الإسلام ، وقد عملت السلطة والدعاية فى كلتا الطائفتين (الشيعة والأموية) على تثبيت هذا الإطلاق ونشر هذه الأقاويل ، حتى وضعت الأحاديث المكذوبة فى الطعن على الخوارج والتشنيع عليهم ونسبة المروق والكفر إليهم جميعا أو إلى أفراد من رؤسائهم وزعمائهم .

ولكى يمكن تحديد الطائفة التى ينبغى أن نطلق عليها بحق اسم "الخوارج" يصنف

---

(١) الإباضية فى موكب التاريخ ، الحلقة الأولى ص ٢٦ -٣١ .

على يحى معمر[1] الثورات الخمس المشار إليها إلى فئات ثلاث : الأولى لايستند أصحابها فى ثورتهم إلى أية أسباب غير عدم تمكن الإسلام فى قلوب القائمين عليها ، وعدم إيمانهم الإيمان الصحيح بتكامل الرسالة المحمدية . ويتجلى ذلك فى الثورة الأولى التى ارتد فيها فريق عن الإسلام وامتنع فريق آخر عن أداء الزكاة . والثانية ، ليس لأصحابها أسباب ظاهرة معقولة فى ثورتهم . أما أسبابها الخفية الحقيقية فهى النزاع على مناصب الدولة ، من خلافة أو عمالة ، ويتمثل ذلك فى الثورة الثالثة التى قام بها طلحة والزبير ، وفى الثورة الرابعة التى قام بها معاوية بن أبى سفيان . أما الثالثة ، فقد استند أصحابها إلى أسباب ظاهرة يتراءى للناظر أنها معقولة ، ويتمثل ذلك فى الثورة الثانية التى قتل فيها عثمان ، وفى الثورة الخامسة التى اعتزل فيها جماعة من جيش على عليا بعد التحكيم وعزل أبى موسى الأشعرى له .

فلو كان المقصود من كلمة الخوارج هو الخروج السياسى عن خليفة تمت له البيعة الشرعية ، لكان إطلاق كلمة "الخوارج" على طلحة والزبير ، أو على معاوية وأتباعه ، أو على الثائرين على عثمان أظهر وأوضح . أما إذا لوحظ المعنى السياسى مع المعنى الدينى ، فإنه لايمكن إطلاق هذه الكلمة عليهم ، كما أنه من العسير إطلاقها على المنعزلين لعلى ابن أبى طالب . والسبب فى هذا العسر هو أن هؤلاء الثائرين ، سواء أكانوا من الفئة الثانية أوالثالثة ، إنما ثاروا غير منكرين لأصل من أصول الإسلام ، ولا مكذبين بمعلوم من الدين بالضرورة ، فضلا عن أنه من كل فئة منهما فريق من كبار الصحابة فيهم بعض المشهود لهم بالجنة .

وبناء على ذلك فإن أحاديث المروق - إن صحت - لا يكون المقصود منها إلا أصحاب الثورة الأولى ، وهم أولئك الذين خرجوا على خلافة أبى بكر منكرين للشريعة أو لأصل من أصولها ، فهؤلاء يستطيع المرء أن يطلق عليهم كلمة "الخوارج" وهو يقصد بهذه الكلمة معنييها السياسى والدينى وهو مطمئن ، لخروجهم على خلافة مجمع عليها ، وإنكارهم للإسلام جملة بعدما آمنوا به ، أو تكذيبهم بركن ثابت بالكتاب والسنة

(١) الإباضية فى موكب التاريخ - الحلقة الأولى ، ص٢٦ - ٣١ .

والإجماع ، وهو الزكاة ، إنكاراً استحقوا بسببه أن يحاربهم الخليفة الأول حربا لا هوادة فيها . ونستأنس فى تأكيد هذا الرأى بما ورد فى بعض روايات حديث المروق من كلمة "سيخرج" أو "سيمرق" ، فإن استعمال حرف السين يدل على قرب الخروج ، ولم يكن أقرب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من هذا الخروج الذى قضى عليه الصديق[1] .

ومما تجدر الإشارة إليه هو أن الكاتب الإباضى على يحى معمر[2] يشكك فى صحة حديث المروق السابق الإشارة إليه ، بدعوى أنه لم يكن معروفا عند حدوث الثورات الأربع الأولى فى الدولة الإسلامية الناشئة ، وإلاّ فكيف لايوصف به الخارجون على الخلافة زمن كل من عثمان وعلى ، ولا الخارجون عن الدين زمن الصديق ؟ لماذا تبقى خفية لا يستفيد منها أنصار الخلافة أو خصومها فى أربع ثورات جامحة ذهب ضحيتها عدد غير قليل من المسلمين الأبطال ؟ وإن دل ذلك على شئ فإنما يدل - من وجهة نظر الكاتب المذكور - على أن هذا الحديث لم يكن معروفا عند وقوع هذه الثورات ، وإنه إنما وضع بعد ذلك قصدا للتشنيع على أهل النهروان ، ولحمل علىّ على قتالهم والقضاء عليهم ، خوفا من أن يتحرج على من دمائهم ويتردد فى قتالهم ، فقد كان الشيعة الذين يحيطون به وعلى رأسهم الأشعث بن قيس ، وهم يكافحون لكى يبنوا دولة ، يخشون أن يتصل أهل النهروان بالناس، وأن يقنعوهم بما لديهم من حجة وبرهان بأن قبول التحكيم خطأ فى السياسة ، وأن خلافة على بعد التحكيم والعزل باطلة. ويدلل معمر على رأيه هذا بالإشارة إلى عبارة أوردها المؤرخ الإباضى الشماخى[3] ، ونصها هو "فقال الأشعث (لعلى بن أبى طالب) : ناجز القوم ، فإن كلموا الناس أفسدوهم علينا" .

ويتفق الإباضيون مع على يحى معمر فى أن أهل النهروان الذين حاربهم الإمام على لايصح أن يطلق عليهم اسم "الخوارج" ، ولكن أغلبهم يختلف مع معمر فى تحديد

---

(١) الإباضية فى موكب التاريخ ، الحلقة الأولى ص٢٩-٣٠ .

(٢) نفسه .

(٣) السير ، ج١ ص ٥٢ .

الطائفة التى ينبغى أن يقتصر عليها هذا الاسم . فيقول أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم الورجلانى[1] : "وزلة الخوارج نافع بن الأزرق وذويه حين تأولوا قول الله تعالى : ﴿**وإن أطعتموهم إنكم لمشركون**﴾[2] ، فأثبتوا الشرك لأهل التوحيد حين أتوا من المعاصى ولو أصغرها" . ويوضح الورجلانى[3] هذا الكلام المجمل بقوله : "وأما المارقة -وهم الخوارج- فقد زعموا أن من عصى الله تعالى فى صغير من الذنوب أو كبير ، أشرك بالله العظيم... فقضوا على جميع من عصى الله عز وجل بالإثم ، أنه مشرك ، وعقبوا بالأحكام ، فاستحلوا قتل الرجال ، وأخذ الأموال ، والسبى للعيال . فحسبهم قول رسول الله صلى الله عليه وسلم :(إن أناساً من أمتى يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية ، فتنظر فى النصل فلا ترى شيئا ، وتنظرفى القدح فلا ترى شيئا وتتمارى فى الفوق) فليس فى أمة محمد صلى الله عليه وسلم أشبه شئ بهذه الرواية منهم (أى نافع ابن الأزرق ومن على شاكلته) لأنهم عكسوا الشريعة ، قلبوها ظهرا لبطن ، وبدلوا الأسماءوالأحكام ، لأن المسلمين كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يعصون ولاتجرى عليهم أحكام المشركين ، فليت شعرى فيمن نزلت الحدود ، فى المسلمين أو فى المشركين ؟ فأبطلوا الرجم والقطع (قطع يد السارق) ، كأنهم ليسوا من أمة أحمد عليه السلام ، لقد عميت أعينهم فنظروا فى المعنى الذى أمر الله به المسلمين أن يستعملوه فى المشركين من جهاد العدو والجهد فى محاربتهم ، فاستعملوه فى المسلمين".

أما محمد بن يوسف أطفيش[4] فيعرف "الخوارج" بقوله : "هم طوائف من الناس ، من زمن التابعين، رءوسهم نافع بن الأزرق ، ونجدة بن عامر ، وعبد الله بن الصفار ، ومن شايعهم . وسموا خوارج لأنهم خرجوا عن الحق ، وعن الأئمة ، بالحكم على مرتكبى الذنب بالشرك ، فاستحلوا ماحرم الله من الدماء والأموال بالمعصية ، متأولين

---

(١) الدليل لأهل العقول ، ص١٥ .

(٢) سورة الأنعام آية ١٢١ .

(٣) نفس المصدر السابق، ص٣٠.

(٤) انظر سليمان محمد السالمى وأخيه : عمان تاريخ يتكلم ،ص ١٠٣ وما بعدها .

قوله تعالى : ﴿وإن أطعتموهم إنكم لمشركون﴾[1] ، فزعموا أن معنى الآية هو : وإن أطعتموهم فى أكل الميتة ، فأخطأوا فى تأويلهم ، والحق أن معنى الآية هو : وإن أطعتموهم فى استحلال الميتة . والاستحلال لما حرم الله شرك . وحين أخطأوا فى التأويل لم يقتصروا على مجرد القول ، بل تجاوزوه إلى الفعل ، فحكموا على مرتكب المعصية بالشرك ، واستحلوا دماء المسلمين وأموالهم بالمعصية ، فاستعرضوا النساء والأطفال والشيوخ . وقد كان الإمام (الإباضى) الحجة الربيع بن حبيب بن عمرو البصرى الفراهيدى صاحب المسند الصحيح رحمه الله حين بلغ إليه أمرهم يقول : دعوهم حتى يتجاوزوا القول إلى الفعل ، فإن بقوا على قولهم فخطؤهم محمول عليهم ، وإن تجاوزوه إلى الفعل حكمنا عليهم بحكم الله .

ولما ظهرت بدعتهم طردهم أصحابنا (الإباضية) من مجالسهم ، وطاردوهم كل صوب معلنين البراءة منهم ، فلما تجاوزوا القول إلى الفعل ، أعلنوا الحكم بكفرهم ، لأن الكفر فى استحلال ماحرم الله نص فى كتاب الله قطعى . وقد استشرى فعلهم يومئذ فاشتدوا على أهل التوحيد بفتنتهم ، فسلوا السيوف على الرقاب بغير ما أنزل الله ، فعظمت محنتهم فكانت بلاءً عظيماً" .

ويقول سالم بن حمد الحارثى[2] : "وأما الحديث (أى حديث المروق) فهو عندنا (الإباضية) فى علماء السوء ، وفى كل من خالف عمله كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ... ويمكن أن يحمل على غلاة الخوارج من الأزارقة والصفرية القائلين بشرك أهل الكبائر ، فإنهم يجتهدون فى التحرر والعبادة لئلا يقعوا فى الشرك ، ويؤيده ماروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال-وهو يشير بيده إلى العراق- يخرج منه قوم يقرءون القرآن لايجاوز تراقيهم ، يمرقون من الإسلام مروق السهم من الرمية . وحمله (أى حديث المروق) على كل من خالف الحق فى عبادته تعالى أظهر ، كما يدل عليه ظاهرقوله عليه السلام : يخرج فيكم ... إلى آخره - فإن لفظ "فى" تدل على أن الخروج بمعنى الوجود بعد العدم ، والمعنى هو : يوجد فيكم قوم هذا وصفهم" .

---

(١) سورة الأنعام ، آية ١٢١ .

(٢) العقود الفضية فى تاريخ الإباضية ، ص ٧٠ - ٧١ .

والخوارج عند سالم بن حمود السيابى[1] هم "فى الأصل جمع خارجة ، وهى طوائف تخرج فى الإسلام ضالة ومحقة ، وفى عرف الفقهاء فرق من فرق الإسلام رأسهم نافع بن الأزرق ، ونجدة بن عامر وعبد الله بن الصفار وأتباعهم ، خرجوا على أهل الحق فى زمن التابعين وتابعيهم ، وحكموا على مرتكب الكبيرة من الذنوب بالشرك ، وفرعوا عليه حلّية ماله فيغنم ، ودمه فيسفك ، ورأوا أن ذلك هو الحق ، واشتدوا على الناس .. وتعلقوا بتأويلات خالفوا فيها غيرهم من سائر الأمم الإسلامية .. ولما كان من تأويلهم هذا ، ومشوا به فى الأمة مشية اشمأز منها المسلمون ، وأنكرها عليهم أهل الحق ، فزادوا فى عنادهم وتمردهم فى منهجهم" .

ويقول الدكتور صالح بن أحمد الصوافى[2] : "سمى الخوارج بهذا الاسم بسبب خروجهم من الكوفة إلى النهروان وكان ذلك فى أول أمرهم، ولم يكن خروجهم فى ذلك الوقت خروجا عن الدين أو مروقا عن الجادة أو الأمة ، بل لعل العكس هو الصحيح ، فمن الثابت أن الإمام على بن أبى طالب ، لما سئل عن هؤلاء ووصفوا أمامه بالكفر والمروق ، قال كرم الله وجهه : بل من الكفر فروا ، ونفى عنهم النفاق ، إذ لما سئل : أهم منافقون؟ قال : إن المنافقين لايذكرون الله إلا قليلا، وهؤلاء يذكرون الله بكرة وأصيلا . غير أنه من الثابت بعد ذلك افتراق أمر هؤلاء الخوارج ، لأنه بعد واقعة النهروان عمد البعض منهم إلى سلوك طريق لايتفق مع الأصول الصحيحة للشريعة الغراء، وأحدثوا فى الإسلام حدثا كبيرا بما استحلوا من استعراض المسلمين بالسيف ، وتكفير أهل القبلة الذين لايذهبون مذهبهم ، وتفرق هؤلاء الخارجون إلى فرق عديدة كان منها الأزارقة والصفرية والنجدات ، وهؤلاء هم الذين أصبحوا يعرفون بالخوارج ، ويعنى وصفهم بذلك أنهم خارجون عن الدين ومارقون ، بما استحلوا من المحرمات وماخالفوا فيه الأحكام الصحيحة للإسلام" .

أما الدكتور عمار طالبى[3] فيقول : "فإنهم (أى الإباضية) يتصورون الفرقة التى

---

(١) أصدق المناهج فى تمييز الإباضية من الخوارج ، ص ٢١ -٢٢ .

(٢) الإمام جابر بن زيد ، ص ٢١٢ .

(٣) آراء الخوارج الكلامية ، ص٣٠- ٣١ .

ينطبق عليها مفهوم الخارجية الوارد فى الحديث ، وهو المروق من الدين ، بأنها هى فرقة الأزارقة ، ومن كان على شاكلتها ، لما يقولون به ويعتقدونه من سفك دماء المسلمين وأخذ أموالهم ، وسبى نسائهم وأطفالهم ، مستحلين ذلك كله" .

(٢) إن ما يزعمه محرفو التاريخ ومتعفنة المذهبية ، كما يقول أطفيش[١] ، من أن واقعة النهروان كانت بسبب الخروج على الإمام الشرعى ليس صحيحاً ، لأن الحقيقة التى لامرية فيها هى أن أهل النهروان لم يخرجوا قط على علىّ بن أبى طالب هو إمام ، ولكنهم حين أبوا التحكيم وأصروا عليه . مال علىّ إلى الفريق الذى يطالب به ، وحينئذ رأى منكرو التحكيم أن البيعة لم تكن فى أعناقهم بل هم فى حلّ منها ، حيث أن التحكيم فى شئ معناه أنه ثابت الحكم ، ولذا اعتبروا هذا التحكيم تنازلا من الإمام على عن البيعة وأصبحوا فى حل من أمرهم ، ولهم الحق ان يختاروا من يشاءون إماما لهم ، فاختاروا رجلا من أفضل الناس يومئذ ومن الصحابة الكرام ، وهو عبد الله بن وهب الراسبى الأزدى ، فلما بايعوه بعثوا إلى أصحابهم - ومنهم الإمام على ـــ أن يدخلوا فى البيعة لمن اختاروه إماما . ولكن عليا رأى ان البيعة تمت لأزدى لالقرشى ، ولذا بادر بمحاربتهم قبل أن يتقوى أمرهم فتخرج الإمامة إلىغير قرشى ، وهذا هو السبب الوحيد لواقعة النهروان" .

ويقول سالم بن حمود السيابى[٢] : "والواقع أن أهل النهروان رأوا إمامهم (على بن أبى طالب) ألقى عن كاهله عبء الإمامة حين حكم فيها الرجال ، وقد خرج من عهدتها وتنازل عنها تاركا لها . فانحازوا لينظروا فى الأمر السديد لهم وللمسلمين ، فبايعوا عبد الله بن وهب الراسبى على ما بويع عليه الأئمة من قبله ، ورأوا أنهم الحجة فى ذلك العهد وأن لهم الحق فى ذلك" .

كما يروى الإباضية[٣] أن المسلمين بايعوا على بن أبى طالب بالخلافة على شروط

---

(١) نبذة عن الخوارج (انظر على يحى معمر : الإباضية بين الفرق الإسلامية ، ج٢ ص ٢٧٨- ٢٧٩).

(٢) أصدق المناهج فى تمييز الإباضية عن الخوارج ، ص٢٥ .

(٣) القلهاتى : الكشف والبيان ، ج٢ ص ٢٢٦ ، والحارثى : العقود الفضية ، ص ٥٠ .

منها : قتال الفئة الباغية ، وكل فرقة امتنعت عن الحق طاغية ، وعلى أنه متى خالف من ذلك شيئا أو نقص منه شيئا فلا بيعة له عليهم . هذا فضلا عن أن على بن أبى طالب قد خلع نفسه من الخلافة حين قبل أن يكتب اسمه فى كتاب التحكيم مجرداً من لقب أمير المؤمنين . وحتى لو لم يكن خلع نفسه على هذا النحو ، فإنه استحق الخلع بنقضه لشروط البيعة ، وإصراره على التحكيم ، وملاينته معاوية ، وتوبتة ثم نكثه لها واستمراره على هذا النكث .

أضف الى ذلك أنه فى الوقت الذى بطلت فيه خلافة على بن أبى طالب انتخب عبد الله بن وهب الراسبى خليفة بطريقة شرعية ، ومتى صحت الخلافة للثانى فإنها لاتبطل عنه إلا لموجب بعد ثبوتها ، ولاموجب لهذا البطلان[1] .

٣- إن واقعة النهروان والظروف التى أدت اليها ماهى إلا فتنة بين الصحابة ، شأنها فى ذلك شأن الفتن التى سبقتها مثل : فتنة الدار (مقتل عثمان بن عفان) ، وفتنة الجمل ، وفتنة صفين ، ومن معانى كلمة "الفتنة" اختلاف الناس فى الآراء ومايقع بينهم بسبب ذلك من النزاع والقتال . ووجه الارتباط بين هذه الفتن جميعا أن الخلاف فيها كان ديانةً ، أى أن كل فريق كان يعتقد أن مسلكه هو الحق .

ففى الفتنة الأولى اتهم عثمان بأنه يحابى أهله بالمال والمنصب ، فلما انتقد عليه ذلك وذكر له أن عمر بن الخطاب لم يكن يفعل ذلك ، أجاب بأن عمرمنعهم لله أما هو فقد أعطاهم لله .كما أجيب عنه بأنه أمير المؤمنين وأعرف بمصلحة الأمة وأنه هو المسئول.

وفى الفتنة الثانية تمت البيعة لعلى فلم يبادر إلى قتل قتلة عثمان ، فقال قائلون : لانسمع لك ولانطيع حتى تقتل قتلة عثمان ، فقال على -وهو أمير المؤمنين حينذاك- بل السمع والطاعة أولا ثم إقامة الحدود ، وكيف يتأتى للإمام إقامة الحدود إذا كان فى الأمة من لايسمع ولايطيع ؟

---

(١) الحارثى : نفسه .

وفى الفتنة الثالثة انشغل على عن قتل قتلة عثمان ، أو لم ير قتلهم ، فادعى معاوية أنه ولى دم عثمان والمطالب بالقصاص ، فقال له الإمام : بايع أولا وادخل فيما دخل فيه المسلمون ، ثم طالب بحقك فى ولاية الدم وإيقاع القصاص . فقال معاوية : بل القصاص أولا .

وفى الفتنة الرابعة رفعت المصاحف وطلبت الهدنة ، فاختلف أصحاب على ، لكنه وافق تحت ضغط أصوات الأغلبية على التحكيم ، ففارقة عدد من جيشه . ويقول من هم على رأى على قبلنا الهدنة ونحن نعلم أنها خدعة خوفا على عدم تفرق كلمة الجيش ، واقتداء ببعض مواقف الرسول صلى الله عليه وسلم المشابهة . ويقول المخالفون لهم : إن معاوية وأتباعه فئة باغية يجب أن نحاربها حتى تفئ إلى أمر الله أو يهلك أحد الفريقين .

ويتضح مما تقدم أن جميع المواقف فى الفتن الأربع كانت مواقف ديانة من الأطراف المتخالفة ، وأن استمساك تلك الأطراف بمواقفها إنما يعنى استمساكها بما تدين وتتقرب به إلى الله تعالى ، وليس استمساك عصبية أو رغبة فى الدنيا . ويقول على يحى معمر[1]: "ويبدو لى أن الفتن التى وقعت بين الصحابة تنتهى إلى هذا الحدّ . وأنه يجب على المسلمين أن يقفلوا عليها الباب وألا يتورطوا بالتدخل فيها ، بقطع النظر عن آرائهم أو ميولهم الشخصية ، وأنه لاعلاقة لهذه الفتن بما جاء بعدها . والحقيقة أن هذه الفتن الأربع ينبغى أن توزن بميزان واحد ، باعتبارها أحداثا بين الصحابة ، لأن جميع أطرافها كان بينهم عدد من الصحابة ، والظروف فيها متشابهة ، والقائمون عليها من الجانبين طلاب حق سواء أخطأوا فيه أم أصابوا" . وبناء على ذلك ينبغى أن ننزه الصحابة بما فيهم أهل النهروان عن أى اتهام .

ويعتقد الإباضيون[2] أن حديث المروق صحيح ، ولكنهم يعترضون على السبب الذى ذكره البخارى لهذا الحديث والزيادة التى أوردها -من وجهة نظرهم- فى آخره . فقد ذكر البخارى أن أبا سعيد الخدرى قال : "بينما نحن مع رسول الله صلى الله عليه

---

(١) الإباضية بين الفرق الإسلامية ، ج٢ ص ١٦٥- ١٦٩ .

(٢) انظر الحارثى : العقود الفضية ، ص ٦٦ -٦٧ .

وسلم وهو يقسم قسما . أتاه ذو الخويصرة ، وهو رجل من بنى تميم ، فقال يارسول الله : اعدل . فقال : ويلك ! من يعدل إذا لم أعدل ؟ قد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل . فقال عمر : يارسول الله إئذن لى فيه فأضرب عنقه . فقال : دعه فإن له أصحابا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم ... ثم ساق الحديث مع زيادة فى آخره لم ترد فى رواية الربيع بن حبيب (محدّث الإباضية) لهذا الحديث ، وهى الرواية التى نقلها الربيع عن أبى عبيده مسلم بن أبى كريمة عن جابر بن زيد عن أبى سعيد الخدرى .ونص هذه الزيادة هو : "إن آيتهم رجل أسود إحدى عضديه مثل ثدى المرأة ، ومثل البضَعة تدردر ، ويخرجون على حين فرقة من الناس . قال أبو سعيد : فأشهد أنى سمعت هذا الحدث من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأشهد أن على بن أبى طالب قاتلهم وأنا معه ، فأمر بذلك الرجل ، فالتمس ، فأتى به حتى نظرت إليه على نعت النبى صلى الله عليه وسلم". وهذه الزيادة لم يروها جابر بن زيد مع أنه قد سمع الحديث من أبى سعيد أيضا . ولذا يقول الحارثى[1] : "أتراه (أى جابر) يأخذ من أبى سعيد ويسمع منه ذلك ثم يتولى من كان هذا وصفه[2] ، كلا بل هو أورع من ذلك ، وقد أدرك عصر الصحابة وسمع من كثير منهم ، وإنى لأنزه البخارى عن الكذب ، ولكنه يأخذ عن أهل الأهواء كالشيعة والمرجئة ثقة بهم ، مع أن لهم أهواء لايؤتمنون معها على نقل يخالف ماهم فيه . وكيف يصح ذلك وهذا الحسن بن على تلقى أباه حين دخل الكوفة (عقب معركة النهروان) فقال : ياأبت أقتلت القوم ؟ قال : نعم . قال : لايرى قاتلهم الجنة . قال : ليت أنى أدخلها ولو حبوا. ولما فقد على تلك الأصوات بالليل كأنها دوى النحل ، فقال : أين أسود النهار ورهبان الليل ؟ قالوا له : قتلناهم يوم النهر" .

هذا ، ويدفع بعض كتاب الإباضية[3] تهمة المروق من الدين عن الخوارج ، وذلك بالإشارة إلى مافسر به أبو الأعلى المودودى كلمة "الدين"[4] الواردة فى حديث المروق

---

(١) نفسه ، ص ٦٦- ٦٧ .

(٢) المقصود بالرجل الأسود هنا هو حرقوص بن زهير السعدى المعروف بذى الثدية ، وهو من مشاهير أسلاف الإباضية الذين يتولونهم (انظر الشهرستانى: الملل والنحل ، ص ١١٨) .

(٣) أحمد مهنا صالح وآخرون : هذه مبادئنا ، ص٦٦ .

(٤) وردت هذه الكلمة فى عبارة "يمرقون من الدين ... " .

بأنها تعنى "طاعة الإمام" .

وهكذا يدفع الإباضية تهمة المروق من الدين عن أسلافهم من أهل النهروان ، ويحملون حديث المروق على الأزارقة والصفرية والنجدية ومن على شاكلتهم .

لايكتفى الإباضية بتنزيه أسلافهم أهل النهروان -على النحو المشار إليه- من الصفات الواردة فى حديث المروق ، وإنما يضعونهم فى أعلى مراتب الإيمان . يقول الشماخى[1] : "وقتل فيها (واقعة النهروان) خيار من على وجه الأرض" . كما يذكر هذا المؤرخ روايات كثيرة مفادها سمو مكانة أهل النهروان ، وامتداح السيدة عائشة وابن عباس وعلى بن أبى طالب لهم ، وندم الأخير الشديد على قتلهم ، وذلك نقلا عن كتاب أطلق عليه اسم "كتاب النهر" . ومما جاء فى هذا الكتاب : "حدثنى مسعود بن عبد الله ابن شداد أنه قدم المدينة ، فأرسلت اليه أم المؤمنين عائشة فقالت : ياعبد الله ، أقتل علىّ أصحابه ؟ فحدثها بالقصة كلها ، فقالت : ظلمهم . ثم قالت : هل تسمى أحدا ممن قتل؟ قال : نعم . حرقوص بن زهير . فاسترجعت وقالت : أشهد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان فى منزلى فقال ياعائشة : أول رجل يدخل من هذا الباب من أهل الجنة. فدخل حرقوص ولحيته تقطر ماء ، وقال ذلك فى اليوم التالى ، فدخل (أى حرقوص) ، وكذلك فى اليوم الثالث . فقالت : ومن أيضا ؟ قال : زيد بن حصن الطائى . فبكت وقالت : والله لو اجتمعت الأمة على الرمح الذى طعن به زيد لكان حقا على الله أن يكبهم جميعا فى النار[2] .

ويفهم مما ذكره الشماخى[3] أن على بن ابى طالب ندم أشد الندم على قتله لأهل النهروان ، ففى رواية منسوبة لابن عباس أنه قال : "حدثنى قنبر مولى على قال : تحولت أنا وعلى إلى النهر بعد القتال ، فانكب طويلا يبكى . فقلت : مايبكيك ؟ قال : ويحك ! صرعنا هاهنا خيار هذه الأمة وقراءها . فقلت : إى والله . فابكى ، فبكى طويلا" .

---

(١) السير ، ج١ ص ٥١ .

(٢) الشماخى : السير جـ١ ص ٥٢ - ٥٣ .

(٣) السير جـ١ ص ٥٢ .

وذكر صاحب كتاب بيان الشرع[1] أن على بن أبى طالب لما قتل أهل النهروان أمر بمخلفاتهم فجمعت ، فإذا هى مصاحف وتروس ، ويقال : أنه اصاب فى عسكرهم أربعة آلاف مصحف إلا مصحف . فبكى على حتى كادت نفسه تخرج .

٤- كلمة الخوارج فى رأى بعض الكتاب الإباضيين لم تعرف إلا على عهد الدولة الأموية . فيقول محمد بن يوسف أطفيش[2] : "إن تسمية الخوارج لم تكن معهودة فى أول الأمر ... ولم تعرف هذه التسمية فى أصحاب على المنكرين للتحكيم والراضين به ، ولعل أول مظاهر هذا اللفظ بعد ثبوت الأمر لمعاوية ، والاستقرار فيه ، حين زاره الأحنف بن قيس التميمى ، وهو من أهل النهروان[3] ، فقال له معاوية : لماذا أحبك الناس وأنت من الخوارج ..؟ أترى أن معاوية يصف الأحنف بن قيس بالخارجية لأنه كان مع من حاربهم على يوم النهروان ، أو لأنه لم يكن فى بيعة معاوية ؟ ولو كان وصف معاوية للأحنف بالخارجية لكونه من أهل النهروان ، لكان معاوية ومن معه أولى بهذه التسمية ، لأنه هو الذى جنح عن بيعة الإمام على . والحال قد بايعه أهل الحل والعقد ، فأصبحت بيعته حقا ـ يجب اتباعه والدخول فيه على كل واحد من المسلمين".

ويقول على يحى معمر[4] : "وأعتقد أنه مرت فترة قصيرة فى أواخر أيام معاوية وأيام يزيد كانت كلمة "الخوارج" لم تستعمل بعد . أما منكرو التحكيم فكانت تطلق عليهم كلمة أخرى هى "المحكمة" . وفى رأى الكاتب المذكور أن أساس كلمة "خوارج" تعود إلى الفترة التى حاول فيها معاوية أخذ البيعة بولاية العهد لابنه يزيد ، فقد ازداد عدد الساخطين على الأمويين وقتذاك ، وأصبحت الأمة الإسلامية ـ ماعدا أهل الشام ـ تغلى كالبركان ، ولم يمسكها عن الانفجار العام المدوى إلا وجود معاوية فى الحكم بمزاياه

---

(١) انظر الحارثى: العقود الفضية ، ص ٨٠ .

(٢) انظر ، على يحى معمر : الإباضية بين الفرق الإسلامية ، ج٢ ص ٢٧٩ -٢٨٠ .

(٣) الثابت أن الأحنف كان من رجال على الذين قاتلوا الخوارج فى معركة النهروان . ولذا لايصح القول بأنه من أهل النهروان (الخوارج) .

(٤) الإباضية بين الفرق الإسلامية ، جـ٢ ص١٧٧ .

السياسية التى قل أن توجد فى حاكم . فلما توفى معاوية وتـولى يزيـد انفجـر البركـان ، وقامت فى كل مكان مجموعة من الناس تسل الحسام وتندفع إلى أغراضها بالعنف والقوة، وإن كانت دعاوى ودوافع كل مجموعة قد تختلف عن المجموعة الأخـرى ، وكـانت كـل مجموعة تخرج من هذه المجموعات يطلق عليها اسم "خارجـة" ، ويوجـه اليهـا كتيبـه مـن الجيش لتقضى عليها أو تشـتتها . ولكنـه عندمـا كـثرت هـذه المجموعـات الخارجـة علـى الحكم الأموى فى كل ناحية عول الأمويون فى القضاء عليها على جيـوش كثيفـة مـزودة بالسلاح والعتاد يقودها رجال مهرة ، وكان يقال لكل قائد من هـؤلاء وقتـذاك : توجـه إلى "خوارج" ناحية كذا . وعنـد ذاك شـاع استعمال كلمـة "الخـوارج" بمعنـى الخـروج السياسى على الدولة الأموية كاصطلاح عسكرى خاص يعنى الجماعـات الخارجـة علـى الدولة . ولكن حـدث أن تطـرف بعـض تلـك الجماعـات فقـامت بعقـائد حكمـت بهـا بالشرك على الحكام الظلمـة وعلـى كـل مـن يرضـى بالبقـاء معهـم أو تحـت حكمهـم ، فسخط الناس عليهم لهذه العقيدة ومااتبنى عليها من السلوك ، واعتبروهم خارجين بذلك عن الدين ، فأصبحت كلمة "الخـوارج" تـدل علـى معناهـا الكـامل فـى جانبيهـا الدينـى والسياسى معا . وقد استغل الأمويون وأنصارهم هذا الموقف من جانب تلـك الجماعـات الشاذة فأخذوا يطلقون كلمة "الخوارج" على منكرى التحكيـم فـى محاولـة مـاهرة لجعـل الشيعة والمعتزلة والمعتدلين يتفقون مع الأمويين فى السخط على الخـوارج والحكـم عليهـم بالخروج من الأمة الإسلامية دون معرفة بحقيقة الخـوارج وبـدء ظهورهـم ، لأن الأمويـين أدخلوا فى روع الناس أن مبـدأ ظهورهـم هـو انفصـالهم عـن علـى بـن أبـى طـالب بعـد التحكيم .

وقد أورد الدرجينى[1] ماذكرته إحدى النســاء الإباضيـات ، وتدعـى أم نـافع ابـن خليفة ، من حيث أن زياد بن أبيه (٤٥-٥٣هـ) كان يتســمع علـى النـاس ويسـتخرجهم من بيوتهم لينتقم من المعارضين منهم للحكم الأمـوى ، فخشـى بعـض هـؤلاء أن يقتلـوا على فرشهم ، فخرجوا ودعوا إلى الخروج" . ويرى على يحى معمر[2] أن هذا القول مـن

---

(١) طبقات المشايخ بالمغرب ، ج٢ ص ٢٣٥ .

(٢) الإباضية بين الفرق الإسلامية ، ج٢ ص ١٧٨ .

جانب السيدة المذكورة يشير بوضوح إلى أن كلمة "الخوارج" بمعنيها السياسي والديني إنما بدأ استعمالها منذ أن شرع زياد في التنكيل بمعارضي الحكم الأموي على النحو المذكور ، أو قبل ذلك بقليل .

ومن الملاحظ أن كلمة "الخوارج" الواردة في حديث السيدة الإباضية المذكورة تعني -كما يفهم من السياق- الجهاد في سبيل الله . وبناء على ذلك فإن اسم "الخوارج" -كما يقول الحارثي[1]- كان في الزمان الأول مدحا ، لأنه جمع"خارجة"، وهي الطائفة التي تخرج في سبيل الله . قال تعالى : **﴿ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة﴾**[2] الآيه . ثم صار هذا الاسم ذمّاً لكثرة تأويل المخالفين (المسلمين من غيرالإباضية) أحاديث الذم فيمن اتصف بذلك آخر الزمان . ثم زاد استقباحه حين استبد به الأزارقة والصفرية ، فهو من الأسماء التي اختفى سببها وقبحت لغيرها . فمن ثم ترى أصحابنا (الإباضية) لايتسمون بذلك ، وإنما يتسمون بأهل الاستقامة لاستقامتهم في الديانة" .

ويؤكد الدكتور عمار طالبي[3] فكرة المعنى السامي لمفهوم "الخوارج" في أول الأمر ، ويتضح ذلك من قوله : وللخروج معنى قرآني إسلامي ، فإنه يطلق على الجهاد في سبيل الله ، قال تعالى : **﴿ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله﴾**[4] . وقال عز من قائل : (ولو أرادو الخروج لأعدوا له عدة ، ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين)[5] وفيه آيضا قوله تعالى: **﴿فقل لن تخرجوا معي أبدا ولن تقاتلوا معي عدوا﴾**[6] . ويقابل الخروج التخلف

---

(١) العقود الفضية ، ص ٧٠-٧١ .

(٢) سورة التوبة آية ٤٦ .

(٣) آراء الخوارج الكلامية ، ص ١٥- ١٨ .

(٤) سورة النساء آية ١٠٠ .

(٥) سورة التوبة آية ٤٦ .

(٦) التوبة آية ٨٢ .

والقعود . ويقابل "الخوارج" القاعدون والخوالف والخالفون . قال تعالى **﴿فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله ، وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله﴾**[1]. كما يقول الحق تبارك وتعالى : **﴿رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع على قلوبهم فهم لايفقهون﴾**[2] .

على أن المفهوم السامى للخروج المشار إليه لم يلبث أن شوه على أيدى ابن الأزرق ومن على شاكلته ، إضافة إلى الدعاية الأموية ضد المعارضين للحكم الأموى . ولكن يجب أن نلتف ـ كما يقول على يحى معمر[3] ـ إلى أنه ليس كل من أطلقت عليهم كتب التاريخ اسم الخوارج هم خوارج حقيقيين ، وإنما الخوارج حقيقة هم طوائف محدودة لها مقالات شاذة كانت بمثابة مبادئ وشعارات لهم لايشاركهم فيها غيرهم . أما الأحداث والحروب التى وقعت فى عهد بعض الخلفاء الراشدين فهى فتنة بين الصحابة ، وقد انتهت بالفتنة التى وقعت بين أمير المؤمنين على بن أبى طالب ومنكرى التحكيم قرب النهروان ، وقد سمى هؤلاء بالمحكمة واشتهروا بهذا الاسم ، أما الألقاب الأخرى من الخوارج والمارقة وما إليها فقد جاءت فيما بعد بتوجيه سياسى لاستغلال ظروف معينة ، وواضح أنه لا علاقة بين المحكمة والخوارج ، لأن المحكمة انتهوا بموقعة النهروان . وبالنسبة للحركات الكثيرة المناوئة للدولة الأموية التى كانت دوافعها متعددة فإنها لم تحمل معنى الخارجية حتى جاء نافع بن الأزرق وخرج بحركته سنة ٦٤هـ وحكم على جميع مخالفيه بالشرك وحاول أن يطبق عليهم حكم مشركى العرب[4] ، فانطبقت عليه وعلى من أخذ برأيه كلمة "الخوارج" بمعنيها السياسى والدينى . ثم

---

(١) التوبة آية ٨١ .

(٢) التوبة آية ٨٧ .

(٣) الإباضية بين الفرق الإسلامية ، ج٢ ص ١٨٠ -١٨٤ .

(٤) أهل الأوثان من العرب يعاملون معاملة المرتدين من أهل الإسلام ، والحكم فيهم أن يعرض عليهم الإسلام فإن أسلموا ، وإلا قتل الرجال منهم وسبى النساء والأطفال (أنظر أبو يوسف :الخراج، ص ١٢٨ ، والطبرى : التفسير ، ج٢ ص ٤١) .

توسعت فيها السياسة الأموية واستغلتها ، فأطلقتها على أكثر من ينتقدهـا ، ثـم وجـدت من يربطها بالمحكمة مع أنها فى الواقع حركة أخرى من الحركـات الناقمـة علـى الحكـم الأموى . وبناء على هذه الاعتبارات فإن القول بـأن الخـوارج خلـف للمحكمـة ومحاولـة الربط بينهما بأى رباط هو عملية ملفقة ، وقد استجاب الخوارج لتلك العملية لأنها تجعل لحركتهم أساسا فى أحداث التاريخ . ولكن مهما حاول المحاولون ، فإن هوة زمنية تبقـى فاغرة الفم بين موقعة النهـروان وتحـرك الخـوارج لأول مرةبقيـادة نـافع بـين الأزرق سـنة ٦٤هـ . وإذا أطلقت كلمة "الخوارج" فيجب أن تنصرف إلى حركة ابن الأزرق ، أمـاإذا أطلقت على غيرها من الحركات فيجب أن تفهم بأنها خروج سياسـى فقـط لايحمـل أى معنى من معانى المروق من الدين .

٥- يرى الكتاب الإباضيون المحدثون أن إطلاق لفظ "الخوارج" على الإباضيـة هـو من الدعايات الفاجرة من قبل مخالفيهم الذين لايكلفون أنفسهم مؤنـة البحـث عـن الحـق أويتعامون عنه ، لأن الإبـاضيين والخـوارج ـ وإن اتفقـوا فـى إنكـار التحكيـم بـين على ومعاوية ـ إلا أنهم يختلفون كلية فى العقيدة والسلوك ، والدليل على ذلك ما يلى :

(أ) من الثابت أن الإباضية لم يسلوا السيف على أحد من أهـل التوحيـد قـط ، ولم تقع منهم حرب ضد أحد من المسلمين ، وحتى عنـد اشـتداد الأزمـة زمـن الحجـاج ابـن يوسف الثقفى وزياد بن أبيه اللذين اشتدا فى مطـاردة المسـلمين (الإباضيـة) لمجـرد الظنـة، فإنهم صمدوا وصبروا[١] .

(ب) من الثابت أن نافع بن الأزرق خرج من البصـرة إلى الأهـواز ، فغلـب عليهـا وعلى ماوالاها من بلاد فارس وكرمان ، وتابعه البعض ، وكانت خيله فيما يروى ثلاثين ألفا ـ وقد خاف أهل البصرة على أنفسهم وعجزوا عن حرب الخوارج فاستجاروا بالقائد العظيم المهلب بن أبى صفرة الأزدى ، فخرج إلى حـرب الأزارقـة وانتصـر عليهـم .ومـن

---

(١) محمد بن يوسـف أطفيـش : نبـذة عـن الخـوارج (انظـر : على يحى معمـر :الإباضيـة بـين الفـرق الإسلامية ج٢ ص ٢٨٠) .

الثابت تاريخيا -على زعم أحد كتاب الإباضية[1]- أن أسرة المهلب كانوا إباضية ، وأنهم كانوا على اتصال وثيق بالإمام جابربن زيد ، و لم يبذل المهلب فى قتال الخوارج والقضاء عليهم مابذل إلا لعلمه بعدم العلاقة بينهم وبين الإباضية ، وبالفرق الكبير بين منهج الطائفتين .

(ج) من الثابت أيضا أن الجلندى بن مسعود (١٣٢ -١٣٤هـ) وهو أول إمام للدولة الإباضية الأولى التى قامت فى عمان ، تصدى لأحد الصفرية المعروف بشيبان الخارجى ، عندما قدم مع الكثيرين من أتباعه إلى القطر المذكور هربا من رجال الخليفة العباسى السفاح ، وقد دارت معركة بين الجلندى وشيبان أسفرت عن مقتل الأخير وأصحابه[2] .

(د) إن هلال بن عطية الخراسانى الذى صار القائد الأول للإمام الجلندى ابن مسعود المشار اليه كان على المذهب الصفرى ، ثم اعتنق المذهب الإباضى ، و لم يقبل منه الإباضية الانضمام اليهم إلا بعد أن يرجع إلى أصحابه الأول من الخوارج ويعلمهم ببطلان مبادئهم ، ثم عاد إلى عمان حيث أصبح قائدا ووزيرا للإمام الجلندى[3] .

(هـ) إن وفد الإباضية إلى الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز طلب من الخليفة هذا أن يأمر بتطهير البلاد والمنابر من اللعن الذى اتخذه الأمويون "سنّة" ، فقالوا له : إن المسلمين بلعنون عليا على المنابر فلابد من الشروع فى تغيير المنكر ، فأبدل اللعن بقوله تعالى : ﴿**إن الله يأمر بالعدل والإحسان ، وإيتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون**﴾[4] . ولكن لم تسمح نفوس أولئك المؤرخين ، الذين أعمت بصيرتهم الأهواء ، أن يشيروا إلى ذلك[5] .

---

(١) صالح بن أحمد الصوافى : الإمام جابر بن زيد ، ص ٢١٤ - ٢١٥ .

(٢) نور الدين عبد الله بن حميد السالمى : تحفة الأعيان فى تاريخ أهل عمان ، ص٩٤ .

(٣) صالح بن أحمد الصوافى : الإمام جابر بن زيد ، ص ٢١٥ .

(٤) سورة النحل آية ٩٠ .

(٥) على يحى معمر : الإباضية بين الفرق الإسلامية ، ج٢ ص ٢٨١ - ٢٨٢ .

(و) إن الإباضية يجيزون المناكحة بينهم وبين سائر الموحدين ، والخوارج لايجيزون التناكح مع غيرهم لأنهم يرون سواهم مشركين ، وعلى هذا لايجوزون أيضا التوارث بينهم وبين من يخالفهم بطبيعة الحال ، لأن الشرك الذى منع المناكحة والمصاهرة يمنع الموارثة ، بينما يبيح الإباضية التناكح والتوارث بينهم وبين مخالفيهم من أهل التوحيد . فهل تعامى عن هذه الفروق الذين تعفنت نفوسهم فأصيبت بالعشى[1] ؟ .

(ى) إن الإباضية اتجهوا لخدمة الإسلام علما وعملا منذ ابتدأت الفتنة ، فاشتغلوا بالتدوين، فكانوا أول من دون الحديث ، فإمامهم جابر بن زيد أول من دون الحديث وأقوال الصحابة فى ديوانه الذى وصفوه بأنه وقر بعير ، ثم تلاميذه من بعده ، وهم حملة العلم إلى المشرق والمغرب . أما الخوارج فقد جنحوا إلى إراقةالدماء ، وإخافة السبيل ، وتعطيل الأحكام ، ولم يذكر عن أحد من الخوارج أنه ألف كتابا ، والذين يذكرون مؤلفات للخوارج أنما يقصدون الإباضية ، على أن ثمة تجاهل واضح من جانب المخالفين لنا من حيث تسجيل هذه الجهود العلمية ، حتى "إنك لتقرا طبقات ابن سعد مثلا فلا تجد ذكرا لرجال الإباضية غير جابر بن زيد ، فإنه ذكره رغم أنفه لشهرته التى أطبقت الآفاق"[2] .

(ن) إن الكبائر عند الخوارج كلها كبائر شرك ، أما عند الإباضية فهى قسمان : كبائر شرك ، وهى كل كبيرة أخلت بالاعتقاد ، كاستحلال ماحرم الله ، أو تحريم ما أحل لله ، أو إنكار ماعلم من الدين بالضرورة ، أو جحود حكم قطعى كالرجم وخلافه، وكبائر النفاق ، وهى كبائر الكفر بنعمة الله ، وهى مايطلق عليه عند أهل الحديث "كفر دون الكفر" ويسميها قومنا (المسلمون من غير الإباضية) "كبائر الفسق" ، مثل : ارتكاب فاحشة الزنا ، وأكل الحرام ، وشهادة الزور ، وعقوق الوالدين ، وكترك فريضة من فرائض الله غير مستحل لذلك .. وهذا كله يسمى عند الإباضية بكبائر النفاق وكبائر الكفر بالنعمة . وإذا أطلقوا "الكفر" انصرف بالقرينة إلى الحكم فيه: هل هو مما يخل بالعقيدة أو هو من الفعل أو الترك ، فيدرك نوع الكفر أهو كفر نعمة أم كفر شرك؟

---

(١) على يحى معمر : نفسه .

(٢) على يحى معمر : الإباضية بين الفرق الإسلامية ، ج٢ ص ٢٨٣ .

ويقول على يحى معمر[1] : "على أن أصحابنا (الإباضية) لايكفرون تشبيهاً ، ولايكفرون أهل القبلة مادانوا بكلمة الإخلاص . والحق أنهم انفردوا بذلك ولو ادعاها أرباب المذاهب[2] ....وإذا أدركنا هذا علمنا أن بين الإباضية والخوارج بونا بعيداً لايجمع بينهما جامع إلا إنكار التحكيم" .

ثالثا : خلاصة الرأى فى علاقة الإباضية بالخوارج :

بعد أن استعرضنا كلا من آراء المؤرخين والكتاب الإباضين وآراء مخالفيهم بالنسبة لموضوع العلاقة بين الإباضية والخوارج ، يمكن أن نستخلص الحقائق التى نطمئن إلى صحتها . وفيما يلى أهمها :

(١) الإباضية فرقة من فرق الخوارج ، وهؤلاء خلف لأهل النهروان . ولانوافق الكتاب الإباضيين المحدثين فيما ذهبوا إليه من أن الربط بين الخوارج وأهل النهروان عملية ملفقة ، أو أن إطلاق لفظ "الخوارج" على الإباضية هو من الدعايات الفاجرة من قبل مخالفيهم الذين لايكلفون أنفسهم مؤنة البحث أو يتعامون عن الحقيقة .

والسبب الذى يحملنا على عدم الموافقة المشار إليها هو ما يؤكده المؤرخون والكتاب الإباضيون أنفسهم من أن الإباضية فى الأصل كانوا من أتباع أبى بلال مرداس ابن حدير التميمى . ومن الثابت أن أبا بلال كان من أهل النهروان الذين حاربوا على ابن أبى طالب فى سنة ٣٨ هـ ، وأنه توجه بعد نجاته مع بعض أصحابه إلى البصرة حيث كان يقيم قومه بنو تميم ، ثم صار زعيما للمحكمة فى هذه المدينة إلى أن توفى فى سنة ٦١ هـ. وقد سبقت الإشارة إلى أن نحو خمسمائة من أهلها استجابوا إلى نداء إخوانهم من محكمة الكوفة للحاق بهم فى النهروان قبل نشوب القتال بينهم وبين الإمام على فى

---

(١) نفسه ، ج٢ ص ٢٨٥ .

(٢) يرى الإباضية أن عبارة "كفر دون الكفر" لايمكن أن تفهم إلا بتكلف التأويل ، ولذلك يطلق أهل الحديث من غير الإباضية أحيانا على هذه العبارة "كفر لاتراد حقيقته" .

السنة المذكورة ، مما يدل على أن البصرة كانت من معاقل المحكمة ، وربما كان أبو بلال وأخوه عروة من بين الخمسمائة المشار إليهم .

وتشير كثير من المصادر الموثوق بها، وعلى رأسها "المبرد"(١) ـ إلى أن اتباع أبى بلال مرداس انقسموا فى سنة٦٥هـ إلى أربع فرق هى : الأزارقة ، والنجدات ، والإباضية، والبيهسية ، وأن هؤلاء جميعا كانوا يتولون أهل النهروان(٢) ومرداسا . ومن الثابت أن المبرد أنصف الخوارج كثيرا إلى درجة أن البعض اتهمه باعتناق أفكارهم(٣) ، كما أن المؤرخين الإباضيين(٤) ينقلون عنه الكثير من أخبار الإباضية ، هذا فضلا عن أن على يحى معمر(٥) يصف أسلوبه بالدقة والشمول ، كما ينقل عن نور الدين السالمى قوله: "ومن أعلم أهل السنة بالإباضية وأعظم من كتب عن الخوارج الإمام المبرد فى كتابه الكامل"(٦). ولذلك يعتبر ماذكره المبرد عن تولى الأزارقة والنجدات وغيرهم من فرق الخوارج لأهل النهروان ومرداس أكبر دليل على أن هؤلاء الخوارج كانوا خلفا لأهل النهروان الذين يخصهم الإباضية باسم "المحكمة" . علما بأن الطعن بلا دليل فى المؤرخين والرواة والكتاب السابقين ، وخاصة أولئك الذين عاشوا عصر المدونات والموسوعات الإسلامية فى التاريخ والعقائد والحديث والتفسير وغيرها من العلوم الإسلامية ، عمل شائن لايصح أن يفعله أحد من المسلمين ، فضلا عن أنه يتعارض مع ماحذر منه كتاب ، الإباضية(٧) أنفسهم من أن المستشرقين يعملون على زعزة الثقة بالمصادر الإسلامية .

---

(١) الكامل فى الأدب ، ج٣ ص ١٥٩ .

(٢) رءوس أهل النهروان هم : عبد الله بن وهب الراسبى ، وزيد بن حصين الطائى ، وحرقوص ابن زهير السعدى ، وغيرهم .

(٣) ابن ابى الحديد : نهج البلاغة ، ج٥ ص ٧٦-٧٧ .

(٤) انظر الدرجينى : طبقات المشايخ بالمغرب ، ج٢ ص ٢٢٧ ، والشماخى : السيرة ، ج١ ص ٧٣-٧٤ .

(٥) الإباضية بين الفرق الإسلامية ، ج٢ ص ١٨٢ .

(٦) انظر على يحى معمر : نفسه ، ج١ ص ١٧١ .

(٧) انظر على يحى معمر : نفسه ، ج١ ص ٢١٠ .

وثمة أدلة كثيرة مستقاه من المصادر الإباضية تشهد على صحة ماذكرته المصادر السنية من أن الخوارج كانوا خلفا للمحكمة من أهل النهروان ، أهمها :

(أ) يقول عبد الله بن إباض ، إمام الإباضية ، فى رسالته[1] لعبد الملك ابن مروان:"... وكتبت إلىّ تعرض بالخوارج وتزعم أنهم يغلون فى دين الله ويتبعون غير سبيل المؤمنين ويفارقون أهل الإسلام . وأنا أبين لك سبيلهم : هم أصحاب عثمان الذين أنكروا عليه ماأحدث من بدعة وفارقوه حين ترك حكم الله ، وهم أصحاب الزبير وطلحة حين نكثا ، وأصحاب معاوية حين بغى ، وأصحاب على حين بدل كتاب الله وحكم عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص . فهم فارقوا هؤلاء كلهم وأبوا أن يفرقوا بحكم البشر دون حكم الله . فهم لمن بعدهم أشد عداوة وأشد مفارقة . كانوا يتولون فى دينهم سنة نبى الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، ويدعون إلى سبيلهم ويرضون ، وعلى ذلك كانوا يخرجون وإليه يدعون وعليه يفارقون . وقد علم من عرفهم وعرف حالهم أنهم كانوا أحسن عملا وأشد قتالا فى سبيل الله . هذا خبر الخوارج ، شهد الله والملائكة أنا لمن عاداهم أعداؤنا . ولمن والاهم أولياؤنا ، بألسنتنا وأيدينا وقلوبنا ، نعيش على ذلك ماعشنا ونموت عليه إذا متنا ونبعث عليه عند ربنا . إنا برآء إلى الله من ابن الأزرق وصنيعه وأتباعه ، لقد كان حين خرج على الإسلام فيما ظهر لنا ، ولكنه أحدث وارتد وكفر بعد إسلامه فنبرأ إلى الله منه" .

ومن الواضح أن قول ابن إباض المذكور يشير إلى أن "الخوارج" هم أولئك الذين قاتلوا كلا من عثمان وطلحة والزبير ومعاوية وعليا ، وأن ابن الأزرق وأتباعه كانوا ضمن من خلف هؤلاء الخوارج ، بدليل أنه حين خرج على الأمويين فى سنة ٦٤هـ كان - فى نظر ابن إباض - على الإسلام الصحيح ، ولكنه ارتد وكفر بعد إسلامه .

(ب) وردت عبارة فى سيرة تنسب إلى أبى قحطان خالد بن قحطان[2] نصها : "ثم إن الخوارج أيضا وقع بينهم اختلاف من قبل نافع بن الأزرق ونجدة بن عامر، خالفا

---

(١) انظر نص هذه الرسالة فى قسم الملاحق .

(٢) السير والجوابات لعلماء وأئمة عمان ج١ ص ١٨٩ .

المسلمين[1] فى سيرتهما من بعد أن كانا على دين المسلمين ، واستحلا استعراض أهل القبلة ... وخرج عبد الله بن يحى طالب الحق باليمن فأتبعه المختار بن عوف رحمها الله فسارا بسيرة أهل النهروان والمرداس وأصحابه يطئون آثار النبى صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، ويتولون خوارج المسلمين ويبرءون ممن خالف المسلمين" .

ومن الجدير بالذكر أن أبا قحطان المشار إليه كان أحد علماء الإباضية بعمان فى القرن الثالث الهجرى ، وتدل العبارة المذكورة المنسوبة إليه على أن قدماء الإباضية -على عكس كتابها المحدثين- كانوا يعتبرون أنفسهم من "الخوارج" ولا يستنكفون أن يطلق عليهم هذا الاسم الذى كان يرادف عندهم كلمة "المسلمين" . يؤكد ذلك ماورد فى القصيدة التى امتدح قائلها[2] مرداساً وأصحابة الأربعين حين هزموا جيشا للأمويين قوامه ألفين . فمما جاء فى هذه القصيدة :

أألفا مؤمن منكم زعمتم	ويقتلهم بآسك أربعونا
كذبتم ليس ذاك كما زعمتم	ولكن الخوارج مسلمونا
هى الفئة القليلة قد علمتم	على الفئة الكثيرة ينصرونا[3]

(ج) يصف المؤرخ الدرجينى[4] عبد الله بن إباض بقوله : "... إمام أهل الطريق ... قعد عن اللحاق من غير إنكار ، وقنع بالخمول من غير قصور ولاإقصار ، وقلى ما اعتقده ابن الأزرق فى المحمدية ، وعدل عن طريقى البيهسية والنجدية" .

---

(١) يعنى بها الخوارج (المحكمة) أو الإباضية .

(٢) ينسب ياقوت (معجم البلدان ج١ ص ٦١) هذه الأبيات لواحد من الخوارج اسمه عيسى ابن فاتك. أما أبو قحطان خالد فينسبها إلى الشاعر الشهير عمران بن حطان (انظر السير والجوابات ، ج١ ص ١١٨) .

(٣) الطبرى : تاريخ الأمم ، ج٥ ص ٣١٤ ، والحارثى : العقود الفضية ن ص ١١١ - ١١٢ ، والسير والجوابات ، ج٢ ص ٢١٤ .

(٤) طبقات المشايخ بالمغرب ، ج٢ ص ٢١٤ .

وقلى ما اعتقده ابن الأزرق فى المحمدية ، وعدل عن طريقى البيهسية والنجدية" .
ونستطيع أن نلمس فى قول هذا المؤرخ الإباضى تأكيدا لما ذكره" كل من المبرد والطبرى عن انقسام المحكمة فى سنة ٦٥هـ إلى فرق أربع[١] ، وأن ذلك حدث حين قعد عبد الله ابن إباض عن اللحاق بابن الأزرق دون إنكار لخروجه إلى الأهواز ، وأن ابن إباض قلى (أى أبغض واستنكر) ما اعتقده ابن الأزرق فى المحمدية (أى المسلمين المخالفين لهم) ، وعدل عن طريقى البيهسية والنجدات .

(ى) يقول المؤرخ الشماخى[٢] : "وكان (عبد الله بن إباض) رحمه الله ـ على ماحفظت ـ ممن خرج إلى مكة لمنع حرم الله من مسلم قائد يزيد (بن عبد الملك) الملقب بمسرف" . وقد نقل الحارثى[٣] فى كتابه قول المؤرخ الإباضى المذكور . ومعنى ذلك أن الإباضيةلاينكرون ماأشارت إليه المصادرالسنية من أن جماعة من أتباع أبى بلال مرداس ، على رأسها :ابن الأزرق ، ونجدة بن عامر ، وعبد الله بن إباض ، وعبد الله بن صفار ، وأبو بيهس الضبعى ، خرجت إلى مكة فى سنة ٦٣هـ لمؤازرة عبد الله بن الزبير ضد أعدائه الأمويين ،وكان ابن الزبير يعوذ وقتذاك بالبيت ، ثم عاد هؤلاء إلى البصرة حيث انقسموا إلى أزارقة ونجدات وإباضية وبيهسية . والسؤال الذى يطرح نفسه هو : لماذا يعتبر الإباضية أن أهل النهروان أسلافهم بينما ينكرون أية صلة بين هؤلاء الأسلاف بالنسبة للأزارقة والنجدات وغيرهم من فرق الخوارج ؟

(هـ) يعرف القلهاتى[٤] الخوارج بأنهم "الذين خرجوا عن على بن أبى طالب لما حكم الحكمين عمرو بن العاص وأبا موسى الأشعرى ... ولم يزل أمرهم واحدا ، وسيرتهم واحدة ، ووليهم واحدا ، وعدوهم واحدا ... إلى أن فرق عليهم نافع بن

---

(١) انظر ص ٦٦-٧١ من هذا الكتاب .

(٢) السير ، ج١ ص ٧٢ .

(٣) العقود الفضية فى أصول الإباضية ، ص ١٢١ .

(٤) الكشف والبيان ، ج٢ ص ٢٤١ -٢٤٢ .

أمورا خالف فيها المسلمين وأهل الاستقامة فى الدين ، وتتابعت الخوارج وافترقت على ست عشرة فرقة -بفرقة أهل الاستقامة (أى الإباضية)" . كما يقول المؤرخ الإباضى المذكور[1] : "وجميع أصناف الخوارج -غير أهل الاستقامة- اجتمعوا على تشريك أهل القبلة وسبى ذراريهم وغنيمة أموالهم ، ومنهم من يستحل قتل الناس فى السر والعلانية واعتراض الناس بالسيف على غير دعوة" .

ذهب أحد الإباضيين المحدثين ، وهو الدكتور محمد صالح ناصر[2] ، إلى أن الإباضية فرقة عرفتها الساحة الإسلامية قبل أن تعرف بهذا الإسم ، لأنها نشأت إثر ظهور بعض التطورات السياسية التى عرفها التاريخ الإسلامى فى عهد الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه . وهى نسبة إلى عبدالله بن إباض التميمى أحد السياسيين البارزين الذين انشقوا عن الخوارج عندما رأى منهم ما لا يتماشى مع سماحة الإسلام . وقد ظهرت هذه التسمية لأول مرة فى العصر الأموى .

على أن الثابت أن التطورات السياسية فى عهد الإمام المذكور تمخضت عن ظهور فرقة الخوارج ، ثم انشق هؤلاء فى العصر الأموى إلى فرق عديدة منها "الإباضية" ، وهذا ما سبق أن أوضحناه تفصيلا وتوثيقا فى أكثر من موضع من هذا الكتاب . ولذلك لا يصح القول بأن الإباضية ظهروا فى عهد الإمام على وإن إطلاق اسمهم تأخر إلى العصر الأموى ، لأن الحقيقة أن الإباضية لم تظهر إلى حيز الوجود إلاّ فى العصر الأموى .

(و) كتب الحارثى[3] تنبيهان : الأول بعنوان "فى الخوارج وخلاصة الاحتجاج بينهم وبين ابن عباس" ، وعنوان الثانى هو "الحكم على الخوارج وذكر شئ من آدابهم وأخلاقهم" . ومما جاء تحت هذا العنوان : "إن فيهم (أى الخوارج) صحابة ، وللصحابة مزية ليست لغيرهم" . ويفهم من هذين العنوانين ومما جاء تحتهما ، أن أهل النهروان هم

---

(١) نفسه ، ص ٤٢٣ .

(٢) مكانة الإباضية فى الحضارة الإسلامية - الحلقة الثانية ، ص١٤٦

(٣) العقود الفضية ، ص٤٥ ،٦٣ .

المقصودون باسم "الخوارج" ،لأن نافع بن الأزرق ، ونجدة بن عامر ، وعبد الله بن صفار وغيرهم من غلاة الخوارج ، لم يكونوا من الصحابة ، و لم يحدث بينهم وبين ابن عباس احتجاج أو نقاش .

(ظ) يقول الدكتور صالح بن أحمد الصوافى[1] : " سمى الخوارج" بهذا الاسم بسبب خروجهم من الكوفة إلى النهروان ، وكان ذلك فى أول أمرهم...غير أنه من الثابت بعد ذلك افتراق أمر هؤلاء الخوارج ، لأنه بعد واقعة النهروان عمد البعض منهم إلى سلوك طريق لايتفق مع الأصول الصحيحة للشريعة الغراء ، وأحدثوا فى الإسلام حدثا كبيرا بما استحلوا من استعراض المسلمين بالسيف ، وتكفير أهل القبلة الذين يذهبون مذهبهم ، وتفرق هؤلاء الخارجون إلى فرق عديدة كان منها الأزارقة والصفرية والنجدات" . ويفهم من كلام هذا الباحث الإباضى المعاصر أن الخوارج الأزارقة والصفريةوالنجدات وغيرهم كانوا خلفا للمحكمة من أهل النهروان .

(ع) مايشير إليه الكتاب الإباضيون من أن الإباضية تتميز بخصائص كثيرة فى العقيدة والسلوك تبعدها عن الانضواء تحت فرق الخوارج - لايصح أن يعول عليه ، لأن الإباضية وجميع فرق الخوارج تفرعت عن أصل واحد ، ومنذ ان تمايزت هذه الفرق كان من الطبيعى أن يزداد التفاوت فيما بينها فى السلوك والعقيدة . وقد سجل التاريخ أن الإباضية منذ نشأتها فى سنة ٦٥هـ جنحت إلى الاعتدال فى السلوك والعقيدة ، وذلك بالمقارنة مع غيرها من فرق الخوارج ، وهذه حقيقة لم ينكرها جميع مخالفى الإباضية من المؤرخين وكتاب الفرق والمقالات ، باستثناء فئة منهم شاذة ونادرة . علما بأن الإباضية -على عكس فرق الخوارج الأخرى- لم يسلوا سيوفهم على أحد طوال عهد الحجاج لأسباب تتعلق بضعف إمكاناتهم القتالية ، ولكنهم لم يترددوا فى الاشتباك مع رجال الأمويين والعباسيين من بعدهم كلما واتتهم الفرصةلإقامة الإمامة الإباضية ، مثلما حدث فى اليمن والحجاز بزعامة عبد الله بن يحى المعروف بطالب الحق ومساعده أبى حمزة الشارى فى سنة ١٢٩ هـ ، أو فى عمان بزعامة الجلندى بن مسعود بعد ذلك بسنوات قليلة . وليس صحيحا أن المهلب بن أبى صفرة كان إباضى المذهب ، وأنه لم يكن ليقاتل

---

(١) الإمام جابر بن زيد ، ص ٢١٢ .

الخوارج لو أن الإباضية منهم ، لأن ذلك تعوزه الأدلة التاريخية . وقد سبق أن أشرنا إلى أن المراسلات بين عبد الملك بن المهلب وجابر بن زيد لايستدل منها على اعتناق اسرة المهلب للمذهب الإباضى ، لأن مصدر هذه المراسلات مشكوك فى صحته من ناحية ، ولأنه لم يرد بها أدنى إشارة إلى أن الراسل أو المرسل إليه إباضى المذهب من ناحية ثانية، ولأن جابر بن زيد – على الأرجح – لم يكن إباضيا من ناحية ثالثة .

وبالنسبة لتصدى الإمام الإباضى الجلندى بن مسعود لشيبان الخارجى حين وفد عليه بعمان بصحبة عدد من رفاقه ، فهذا شئ طبيعى لايستدل منه على أن الإباضية لم تكن من الخوارج ، لأن شيبان كان صفرى المذهب ، والصراع بين فرق الخوارج بعضها البعض مشهور ، خاصة بين الإباضية والصفرية الذين كانت تباعد بينهما كراهية عميقة الجذور وذلك على حدّ قول المستشرق جوتييه[1] . كما أنه ليس ثمة دليل على أن وفد الإباضية هو الذى أشار على الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز باستبدال لعن الإمام على ابن أبى طالب على المنابر بالآية الكريمة **﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون﴾**"[2] . ومن حقنا أن نتساءل : إذا كان الإباضية يشكون من أن المؤرخين لم يشيروا إلى دور هذا الوفد فى الاستبدال المشار إليه فماهو المصدر الذى استندوا إليه فى هذا الصدد ؟

(ك) لاينكر بعض المبرزين من علماء الإباضية المعاصرين صلتهم بالخوارج . فيقول نور الدين عبد الله بن حميد السالمى[3] فى كتابه "تحفة الأعيان فى تاريخ أهل عمان" : "فالإباضية اليوم فى عمان والمغرب من بقايا الخوارج المعتدلين، والمتمسكين بالكتاب والسنة" . ويعلق على يحى معمر[4] على ذلك بقوله : "هذا وما كان أهل عمان أقرب فرق الخوارج إلى أهل السنة إلا لأن مذهبهم كما اطلعت عليه مبنى على السنة" . علما

---

(١) انظر على يحى معمر : الإباضية بين الفرق ، ج١ ص ١٤١ .

(٢) سورة النحل آية ٩٠.

(٣) انظر على يحى معمر : نفسه ، ص١٧٢ .

(٤) نفسه ، ص١٣٧.

بأن نور الدين السالمى عالم إباضى ذائع الصيت ، وله مكانة علمية منقطعة النظير فى سلطنة عمان ، حتى ليقال : "مافى عمان اليوم من علماء إلا وهم تلاميذه" .

(ى) تعتبر الإباضية إحدى فرق الخوارج فى نظر المستشرقين[1] . وهذه حقيقة يشير إليها الكتاب الإباضيون أنفسهم[2] : لكن هؤلاء الكتاب يشيرون - فى نفس الوقت -إلى الدوافع الاستعمارية لأغلب المستشرقين فى بلادنا العربية والإسلامية ، وإلى محاولاتهم الدائبة لتشويه التراث الإسلامى . ونحن - وإن كنا نوافق الكتاب الإباضيين فى نظرتهم إلى دوافع الحركة الاستشراقية فى بلادنا- إلا أننا نعتقد أن كون الإباضية من الخوارج أو ليسوا منهم ، مسالة لاتهم المستشرقين فى قليل أو كثير ، ولذا فليس ثمة مايحملهم على تحريف حقائق التاريخ التى استخلصوها فى هذا الصدد .

(ن) يقول إسماعيل العربى ، وهو محقق كتاب سير الأئمة وأخبارهم المعروف بتاريخ أبى زكريا[3] : "أعلن الخوارج مبادئ حزب جديد واتخذوا لأنفسهم زعيما وقائدا هو عبد الله بن وهب الراسبى ، ونادوا بشعارهم المشهور "لاحكم إلالله" . وبعد أن أشار إلى ازدياد شوكتهم وتصدى علىّ لهم فى النهروان سنة ٣٨هـ قال : "وفى العصر الثانى واجهت الدولة الأموية ثورات هنا وهناك قام بها الخوارج ، لاسيما فى الكوفة والبصرة ... وأهم الثورات ، بدون شك ، هى ثورة مرداس بن حدير التميمى أبى بلال ، التى لم يتمكن جيش عباد بن علقمة المازنى من قمعها إلا بالغدر ، حيث أحاط بأبى بلال وأصحابه وهم فى الصلاة وقتلهم عن آخرهم ، وهو حدث سيترك جرحا فى نفوس أصحاب المذهب لايندمل مع مرور القرون . وقد زادت شوكة الخوارج حدة وقويت جموعهم واتسعت حركتهم ، أثناء الاضطرابات التى أعقبت وفاة يزيد بن معاوية ...وفى هذه الأثناء ، تفرقت حركة الخوارج إلى عدة فرق ... وقد اشتهر من هذه الفرق ، الأزارقة أتباع نافع بن الأزرق ، والصفرية الذين لايختلفون كثيراً عن الأزارقة ، من حيث

---

(١) انظر دائرة المعارف الإسلامية ، المجلد الأول ، ص ١١ مادة "الإباضية" .

(٢) انظر على يحى معمر :نفسه ، ص٢٣٧ .

(٣) انظر مقدمة الكتاب المذكور ، ص٥ .

أنهم جميعا يكفرون المسلمين مـاعداهم ، والإباضيـة نسبة إلى عبـد الله بـن إبـاض زعيـم الطائفة الذين تتكون منهم الأغلبية الساحقة من الخوارج بالمغرب . والإباضية طائفة تمتـاز بالاعتدال فى نظرتها إلى مخالفيها ، حيث أنهم لايحكمـون بتكفيـرهم، بـل إنهـم يعتـبرون التزاوج والميراث مع غيرهم من المسلمين حلالا ، وهم لايستبيحون قتل غير الخوارج مـن المسلمين حلالا ، إلا فى حالة إعلان الحرب ،على عكس الأزارقة .

وهكذا يتضح بجلاء من كلام المحقق المذكور أن الإباضية فرقة من فـرق الخـوارج . وعلى الرغم من أنه لم يتيسر لنا التعرف على المذهـب الـذى ينتمـى إليـه ، إلاّ أنـه -فيمـا يبدو- قد اطلع على الكثير مـن كتـب الإباضيـة ، ومنهـا الكتـاب الـذى قـام بتحقيقـه ، ويتضـح ذلـك مـن المقدمـة التى كتبهـا لهذا الكتـاب ، بالإضافـة إلى تعليقاتـه وشـروحه بحواشيه . وهو -على فرض أنه ليس من الإباضية- إلا أنه بالتأكيد لم يكن من المتحـاملين عليهم ، بل يمكن القول : بأنه من المنصفين لهم ، بدليل حرصه على تبيان اعتدال الإباضية من دون فرق الخوارج ،بالإضافة إلى اشادته بالدور الذى قامت به الدولـة الإباضيـة التـى أسسها عبد الرحمن بن رستم بـالمغرب الأوسـط (١٦٠-٢٥٠هـ) . وممـا قالـه فـى هـذا الصدد : "وتحت الأئمة عبد الرحمن ، وابنه عبد الوهاب ، وحفيـده أفلـح ، بلـغ المذهـب الإباضى أوج عظمته العلمية والسياسية حيث كان أساسا لحضـارة لم يشـهد لهـا المغـرب الأوسط مثيلا من قبل . فإن الأسرة الرستمية التـى اسـتطاعت أن تفـرض سـلطانها علـى القبائل المضطربة فى هذه المنطقة دون أن يكون لها سند من العصبية القبليـة ، إنمـا تمكنـت من ذلك بسبب المكانة الأدبية التى كان يتمتع بها هؤلاء الأئمة ، وبفضل عنايتهم بالعلوم والفنون وحرصهم على إقامة العدل والقسطاس ، واعتمادهم فى السياسة منهج الشـورى واحترام رأى الأغلبية ، وباختصار تلك المبادئ التـى نـاضل الإبـاضيون مـن أجلهـا كثـيرا وكلفتهم تضحيات باهظة عبر العصور ، ولم يتمكنوا من تطبيقها فى المشرق .

أما ما انتهى إليه محقق الكتاب المشار إليه من أن الإباضية فرقة من فرق الخـوارج ، فهى حقيقة اطمأن إلى صحتها من خلال المصـادر التـى رجـع إليهـا . ومـن الطبيعـى أنـه لايحق للإباضيين أن يصادروا حرية أحد فى القول بما يطمئن إلى صحته . ولكـن الملاحـظ أنهم يتهمون كل من يتحدث بما لا تهواه أنفسهم بالافتراء عليهم ، أو التعصب ضدهم، أو بالجهل ، أو بالاعتماد على مصادر معادية لهم وغير موثـوق بهـا . أمـا مـن يـرون فـى

كتاباتهم شيئا من التأييد لوجهة النظر الإباضية ، فهو عندهم : العالم الكبير ، والمؤرخ الثقة ، وصاحب الجهود الصادقة فى خدمة الثقافة الإسلامية وجمع الشمل بين المسلمين[1] . وقد يلجأ الإباضيون إلى إسناد نشر وتحقيق بعض مؤلفاتهم لواحد من هؤلاء ، حتى مايكون منها لمؤلفين لايزالون على قيد الحياة ، مثل سالم بن حمود السيابى، الذى حققت الدكتورة سيدة اسماعيل كاشف كتابين له فى سنة ١٩٧٩ ، وهما: "أصدق المناهج فى تمييز الإباضية عن الخوارج" ، و "إزالة الوعثاء عن أتباع أبى الشعثاء" وقامت بنشرهما وزارة التراث القومى والثقافة فى سلطنة عمان . وفى رأى المحققة المذكورة أن الإباضية فى عمان قديمة قدم الإسلام فيها ، وأن عمان هى الوطن الأم للإباضية فى العالم الإسلامى ، كما تذكر أن جلّ المؤرخين وكتاب الفرق والعقائد والنحل والقدماء والحديثين ، فضلا عن سائر الكتاب ، يعتبرون الإباضية إحدى فرق الخوارج . وفى اعتقادها أن إطلاق اسم "الخوارج" على الإباضية يرجع إلى الجهل بالمصادر الإباضية والفقه الإباضى ، وتدلل سيادتها على صحة هذا الاعتقاد بقولها : "وقد استطاع عبد الله بن إباض فى كتابه لعبد الملك بن مروان أن يدحض القول بأن جماعته من الخوارج أو من متطرفى الخوارج"[2] .

على أن القول بأن عمان هى الموطن الأم للإباضية فى العالم الإسلامى غير صحيح ، لأن الثابت أن الإباضية نشأت فى البصرة على النحو الذى سبق أن أوضحناه ، ثم انطلقت خارجها إلى كل من حضرموت والحجاز وعمان والمغرب ، وذلك على أيدى الدعاة الذين سيرهم الإمام أبو عبيدة مسلم بن أبى كريمة (٩٣-١٤٥هـ) . وقد أطلق على هؤلاء اسم "حملة العلم" . ويقول سالم بن حمود السيابى فى أحد كتابيه المشار اليهما[3] : "منير بن النير الجعلانى ، أحد حملة العلم من البصرة إلى عمان" . علما بأن المحققة المذكورة لم تعلق على هذا القول بما يفيد معارضتها له . كما أن ماذكرته من أن

---

(١) انظر على يحى معمر : الإباضية بين الفرق الإسلامية ، ج١ ص ١٥٨ ، ج٢ص ٢٨٨ .

(٢) سيدة اسماعيل كاشف : عمان فى فجر التاريخ ، ص٧٤ ، والمقدمة التى كتبتها لكتاب إزالة الوعثاء ، ص٤ .

(٣) إزالة الوعثاء ، ص٩٧-٩٨ .

عبد الله بن إباض دحض القول بأن جماعته من الخوارج فى رسالته إلى عبد الملك ابن مروان لايتفق مع الحقيقة ، لأن كتاب "إزالة الوعثاء" التى قامت بتحقيقه يحوى نصا لهذه الرسالة[1] . ومن الثابت أن ابن إباض يشيد فيها بالخوارج ويفند القول بغلوهم ، ويصفهم بأنهم كانوا أحسن عملا من غيرهم وأشد قتالا فى سبيل الله ، ثم -وهو المهم- يعلن فى وضوح توليه للخوارج وتبرؤه ممن يعاديهم . ولئن كان ابن إباض قد حرص على إظهار عدم موافقته لابن الأزرق فى تطرفه وغلوه ، فإن هذا يتفق تماما مع ما أشار إليه المؤرخون وكتاب الفرق السنيون من أن الإباضية فرقة من فرق الخوارج ، لكنها تتميز بالاعتدال وعدم الغلو ، لأن مؤسسها عبدالله بن إباض تبرأ من ابن الأزرق لما علم أنه يعامل مخالفيه من المسلمين معاملة أهل الشرك ، رغم أنهما كانا ينضويان سويا تحت لواء جماعة أبى بلال مرداس من قبل أن يحدث بينهما هذا الخلاف .

هذا ، وتنطوى الكثير من كتب الإباضية على ذكر الآراء المؤيدة لهم ، مع الحرص على اختيارها لأشخاص من مختلف البلاد الإسلامية ، ونرى ذلك -على سبيل المثال- فى كتاب "مكانة الإباضية فى الحضارة الإسلامية - الحلقة الثانية ، من إعداد الدكتور محمد صالح ناصر . ومن الملاحظ أن كثيرا ممن سجلت آراؤهم فى هذا الكتاب من الإباضية ، مثل معدّ الكتاب المشار إليه نفسه ، والشيوخ ، : أبى اسحق أطفيش ، وأحمد بن حمد الخليلى ، وعلى يحى معمر وغيرهم . كما أن آراء البعض الآخر لا تستند إلى الواقع التاريخى و تتسم بالتناقض الواضح . فتحت عنوان "هل الإباضية خوارج؟" كتب عمر ابن الحاج صالح[2] يقول :"غير أن المسلمين السنيين فى الحقيقة مازالوا يتقلبون فى خطأين. وأما الأول : فخطأ تاريخى ، والثانى : خطأ منهجى . والخطأ الراجع إلى التاريخ، هو فى رأينا ، ... عدم التمييز بين الإباضية والخوارج ، رغم انفصال زعيم الإباضية (عبدالله بن إباض) عن الخوارج ، ومحاربته إياهم ، ورغم شهادة التاريخ بأن أحد أكبر قادة الجيوش الإسلامية التى حاربت الخوارج حروبا متواصلة ضارية ، كان

---

(١) انظر نص هذه الرسالة فى قسم الملاحق .

(٢) أستاذ حامعى من السنغال ، مهتم بالفكر الإباضى (انظر محمد صالح ناصر: مكانة الإباضية من الحضارة الإسلامية -الحلقة التالية- ص٣٧ ، حاشية (١)) .

إباضيا عمانيا وهو المهلب بن أبى صفرة[١] ... وأما الخطأ المنهجى الذى وقع فيه المسلمون السنيون فهو إصرارهم على اعتبار الكتب التى كتبوها عن "الفرق" هى المصادر والمراجع الصحيحة لكل شيء متعلق بالفرق وشئونها" . ويستشهد الكاتب المذكور على عدم دقة ما يرد فى هذه المصادر (من الربط بين الإباضية من جهة والخوارج والأزارقة والصفرية والنجدية وغيرها من فرق الخوارج من جهة أخرى) يستشهد بقول لآبى إسحق أطفيش ونصه: "على أنه ليست ثمة علاقة تربط الإباضية بالخوارج ...كما أن جعل المحكمة (أهل النهروان) الذين هم سلف الإباضية ، وليسوا سلفا للأزارقة والصفرية والنجدية من الخوارج ، هو من وضع الواضعين ، ومن صنع أرباب الأقلام المغرضة"[٢] .

على أنه من نافل القول أن كتّاب الفرق السنيين قد ميزوا بين الإباضية والخوارج ، إذا وصفوا الأولى بالاعتدال بينما وصفوا الثانية بالغلو . كما أن الثابت أن عبدالله ابن إباض لم يحارب أحدا من الخوارج ولا من غيرهم ، وقد أطلق مخالفوه عليه وعلى أتباعه اسم "القعدة" . هذا فضلا عن أنه من الثابت أيضا أن المهلب بن أبى صفرة لم يكن من الإباضية ، والتاريخ – على مبلغ علمنا – لا يشهد بإباضيته من قريب أو بعيد ، ومما يؤيد ذلك وصف الكاتب الإباضى الشهير له ، وهو على يحى معمر[٣] ، بأنه ضحى بدينه لدنيا بنى أمية .

كما أن القول بأن المحكمة (أهل النهروان) سلف للإباضية دون الأزارقة والنجدات والصفرية وغيرهم من فرق الخوارج ليس صحيحا ، وذلك على النحو الذى أكدناه فى أكثر من موضع من كتابنا هذا ، مع ملاحظة أن عمر بن صالح نفسه[٤] يؤكد هذه الحقيقة بقوله :"ليس من المستقيم جمع قولين متناقضين ، فكون الإباضية يعترفون بأن المحكمة هم سلف لهم معناه أنهم تاريخيا يربطون أنفسهم بأس أساس الخوارج ، فأهل النهروان ، كما هو معلوم ، بذور الخوارج ونواتها ، وأنا لا أعلم كيف يتبرءون من

---

(١) انظر محمد صالح ناصر ، نفسه ص ٤٠ – ٤١ .

(٢) نفسه ، ص٤٢ -٤٣ .

(٣) الإباضية فى موكب التاريخ ، حـ١ ، ص٢٧ .

(٤) انظر محمد صالح ناصر : نفسه ص٤٣ .

الخوارج فى حين أنهم ينسبون أنفسهم إلى أصل أصول الخوارج ، وإذا كانت الأزارقة والصفرية والنجدية "كفروع" لا تنتمى إلى المحكمة "كأصول" فإلى أين ينتسبون؟" .

وعلى الرغم من إثبات عمر الحاج صالح بـا للصلة بين الإباضية والخوارج على النحو المشار إليه ، إلاّ أنه عاد يقول : فالإباضية ليسوا خوارج ، وإن كان هناك قاسم مشترك بينهما فهو ظهورهما إلى حيز الوجود فى وقت واحد[1] .ثم عاد مرة أخرى – حين تحدث عن ظاهرة انشقاق الخوارج – يقول :"فالخوارج انشق عنهم الإباضية فأصبحوا يشكلون فرقة خاصة بهم[2]" . ولا شك أن هذا يتناقض مع قوله السابق بأن الإباضية والخوارج ظهرا فى وقت واحد .

(٢) لانوافق على ماذهب إليه الإباضية من أن عبد الله بن وهب الراسبى بويع إماما شرعيا للدولة الإسلامية ، وذلك للاعتبارات الآتية :

(أ) إن بيعة على بن أبى طالب بالخلافة تمت له بإجماع من أهل الحل والعقد فى الأمة الإسلامية . ومن الطبيعى ألا تزول عنه إلا بإجماع مماثل .

(ب) لايصح الادعاء بأن جماعة الخوارج من أهل النهروان كان لها الحق ــ دون جماعة على ومعاوية –أن تنفرد بالحل والعقد فى الدولة الإسلامية وقتذاك ، خاصة وأن كل جماعة– كما يذكر على يحى معمر[3] –كان معها عدد غير قليل من الصحابة منهم المشهود له بالجنة . هذا فضلا عن أن ماذهب إليه الكاتب المذكور من أن الأمة الإسلامية انقسمت قبل معركة النهروان إلى دول ثلاث ترأس عبد الله بن وهب الراسبى واحدة منها بعد أن بايعه جمع كبير من المسلمين– يفهم منه ضمنا أن الراسبى لم يكن إماما شرعيا للأمة الإسلامية ، علما بأن أهل النهروان الذين بايعوه كانوا حوالى أربعة ألاف ، وهؤلاء بالنسبة لبقية المسلمين أقلية ضئيلة جدا لايصح وصفها بأنها جمع كبير .

---

(١) نفسه ، ص٥٠ .

(٢) نفسه ، ص٥٤ .

(٣) الإباضية فى موكب التاريخ ، الحلقة الأولى ص٢٥ .

(ج) لم تبطل إمامة على بن أبى طالب قبل بيعة الخوارج لعبد الله بن وهب الراسبى أو بعدها ، لأن قبوله للتحكيم كان نزولا على رأى الأغلبية . علما بأن التحكيم -كما سبق أن ذكرنا- لم يكن للنظر فى مشروعية قتال الفئة الباغية ، لأن هذه لها حكم مقرر فى القرآن الكريم ، وإنما كان للنظر فيما إذا كان يصح أن يعتبر معاوية وأتباعة بغاة أم لا ، فلو اتهم إنسان بالسرقة مثلا وعرض أمره على القضاء ، فإن القاضى لايبحث فى صحة الحكم المقرر للسارق فى القرآن الكريم -وهو قطع يده- وإنما ينظر فقط فى مدى صحة التهمة بالسرقة .

كما أن عليا حين وافق على كتابة اسمه مجرداً من لقب أمير المؤمنين فى وثيقة التحكيم كان متأسيا بموقف مشابه من النبى صلى الله عليه وسلم فى صلح الحديبية حين وافق على كتابة اسمه مجردا من عبارة "رسول الله" ، و لم يكن ذلك بالطبع تنازلا منه عليه السلام عن النبوة . هذا فضلا عن أن عليا كان قد اشترط على الحكمين أن يستندا فى حكمهما إلى كتاب الله تعالى ، ولكنهما لما ارتأيا عزل على ومعاوية وترك الأمر شورى للمسلمين لم يذكرا الأساس الذى استندا إليه من كتاب الله فى عزلهما الإمام الشرعى . وهذا مايعطى عليا الحق فى عدم قبول ما انتهيا إليه . أما ما يدعيه الإباضية من أن عليا وعد الخوارج بعدم المضى فى إجراءات التحكيم وقرر التوبة ثم عاد فنكث ، فإن ذلك مجرد إدعاء لادليل عليه .

(د) يقول على يحى معمر[1] : "أما الأحداث والحروب التى وقعت فى عهد الخلفاء الراشدين فهى فتن بين الصحابة ، وقد انتهت بالفتنة التى وقعت بين أمير المؤمنين على بن أبى طالب ومنكرى التحكيم قرب النهروان" . ويفهم من هذا القول أن الكاتب الإباضى المذكور يقرّ بإمرة المؤمنين لعلى بن أبى طالب حال محاربته لأهل النهروان ، وعلى رأسهم عبد الله بن وهب الراسبى . ويبدو أن هذا الكاتب تراجع عن إقراره المشار إليه ، لأنه عاد فنقل -دون أى تعليق أو اعتراض- ماذكره كاتب إباضى آخر . هو أبو

---

(١) الإباضية بين الفرق الإسلامية ج٢ ص ١٨٠ .

إسحق أطفيش ، من حيث أن عليا لم يكن إماماً حين خرج عليه أهل النهروان وحاربوه[1] .

(٣) الحديث الذى أخبر به النبى صلى الله عليه وسلم عن مروق بعض الغلاة من الدين أوردته كتب الصحاح ، ولم يطعن فى صحته أحد من علماء الحديث ، كما ورد أيضاً فى مسند الربيع بن حبيب الذى يعتبره الإباضية من أصح الكتب بعد كتاب الله عز وجل[2] .

وعلى الرغم من ذلك يشكك بعض الإباضية فى صحة الحديث المذكور . فيقول على يحى معمر[3] : "والواقع أن كثيرا من المؤرخين يحرصون أشد الحرص على تسمية أهل النهر بالخوارج ، ثم هم يتكلفون ما يثبتونه به تكلفا يصل إلى حد السخف أحيانا ، ويجهدون أنفسهم فى البحث للتدليل على أن أهل النهر هم المقصودون بحديث المروق المعروف ، إن صح" . وفى رأى الكاتب المذكور أن هذا الحديث لو كان موجودا لوصف به الخارجون على الخلافة زمن كل من عثمان وعلى والخارجون عن الدين من المرتدين زمن الصديق أبى بكر ، لكنه وضع قصدا للتشنيع على أهل النهروان ، وذلك لحمل على بن أبى طالب على التخلص منهم مخافة أن يتصلوا بالناس ويقنعوهم بعدم مشروعية التحكيم . علما بأن حديث المروق لايمكن أن ينطبق على المرتدين فى عهد الصديق ، لأن المازقين وصفوا فى هذا الحديث بكثرة الصلاة والصيام وتلاوتهم للقرآن الكريم ، أما المرتدون فكان أغلبهم من المتنبئين الذين لايفعلون ذلك ، فضلا عن أن بعضهم- مثل مسيلمة الكذاب ادعى أن الله تعالى أنزل عليه كلاما آخر . كما لايفترض انهماك القلة الأخرى من مانعى الزكاة وقتذاك فى الصلاة والصيام وتلاوة القرآن ، لأن المصادر التى تيسر لنا الرجوع إليها لاتشير إلى شئ من هذا ، على عكس الخوارج الذين يشار إليهم كثيرا بأنهم رهبان الليل وفرسان النهار ، وتوصف جباههم بأنها مقرحة ، وتشبه أيديهم بثفنات الإبل .

---

(١) انظر ، على يحى معمر : نفسه ، ص ٢٧٩ .

(٢) انظر ، سالم بن حمود السيابى : الحقيقة والمجاز ، ص ٢٢ .

(٣) الإباضية فى موكب التاريخ ، الحلقة الأولى ، ص٣٠ .

كما لاينطبق حديث المروق على الخارجين على كل من عثمان وعلى ، باستثناء أهل النهروان ، لأن هؤلاء لم يقتصر أمرهم على الانتقاض على الخلافة ، وإنما شرع بعضهم فى استعراض الناس وسفك دمائهم بغير حق ، مثلما فعل خوارج البصرة بزعامة مسعر بن فدكى بعبد الله بن خباب بن الأرت ، وهم فى طريقهم إلى النهروان للانضمام إلى أخوانهم من أهل الكوفة ، وذلك على النحو الذى سبقت الإشارة إليه . ولئن كان الإباضيون ينكرون صحة هذه الواقعة ، إلا أن الدلائل تشير إلى صحة وقوعها ، وسوف نناقش هذا الأمر فيما بعد .

والقول بأن حديث المروق وضع قصدا للتشنيع على أهل النهروان لادليل عليه ، خاصة وأن أساس هذا القول هو ما ذكره الشماخى[1] من أن الاشعث بن قيس قال لعلى ابن أبى طالب : "ناجز القوم (أهل النهروان) فإن كلموا الناس أفسدوهم علينا" . علما بأن المؤرخ المذكور لم يشر إلى المصدر الذى نقل ذلك عنه ، خاصة وأنه من المتأخرين (ت فى القرن العاشر) . كما أنه حريص -بلا شك- على تصوير أسلافه من أهل النهروان فى صورة المجنى عليهم ، بل إنه يقول عنهم : إنهم كانوا خير من على وجه الأرض[2] .

وقد سبق أن أشرنا إلى أن الكثير من الكتاب الإباضيون يرون أن حديث المروق صحيح ، وأنهم يحملونه على علماء السوء وغلاة الخوارج من الأزارقة والنجدات والصفرية ومن على شاكلتهم . ولكن هؤلاء الكتاب يعترضون على السبب الذى ذكره البخارى لهذا الحديث وعلى الزيادة التى أوردها فى آخره عما رواه الربيع بن حبيب ، محدث الإباضية فى مسنده للحديث المذكور ، عن أبى عبيده مسلم بن أبى كريمة عن جابر بن زيد عن أبى سعيد الخدرى . والبخارى ـ وإن كان الإباضية ينزهونه عن الكذب، إلا أنهم يأخذون عليه أنه ينقل عن أصحاب الأهواء كالشيعة والمرجئة ، ويقولون : لوصح ماجاء فى روايته زيادة عما رواه الربيع بن حبيب من أن على ابن أبى طالب وجد بين قتلى النهروان رجلاً أسود عضديه مثل ثدى المرأة ، أى بنفس الصفات

---

(١) السير ، ج١ ص ٥١ .

(٢) الشماخي : السير ، جـ١ص٥١ .

الواردة فى هذا الجزء الزائد- لو صح هذا لكان من غير المعقول أن يتـولى جـابر بـن زيـد هذا الرجل الأسود المعروف بذى الثدية (وهـو حرقـوص بـن زهـير) بعـد أن سمـع ونقـل صفاته المذكورة عن أبى سعيد الخدرى ، ولما قال الحسن بن على لأبيه حين التقيا بالكوفه عقب معركة النهروان "لايرى قاتلهم الجنة" . بل لما ندم على نفسه على قتله إياهم[1] .

على أن الثابت أن البخـارى لم ينفـرد بذكـر مايعتـبره الإباضيـة زائـدا فـى حديـث المروق عما أورده محدثهم الربيع بن حبيب ، فقـد أورد هـذا الحديـث كثـيرون علـى نحـو مأأورده البخارى ، منهم : مسلم[2] ، وأبو داود[3] ، وأحمد بن حنبل[4] . كما أن القول بأن البخارى كان يأخذ عـن أصحـاب الأهـواء يعـد إتهامـا بـلا دليـل ، فسلسـلة السـند لحديث المروق وردت عنده فى كتـاب "استتابة المرتديـن والمعـاندين وقتـالهم" بـاب قتـل الخوارج والملحدين بعد إقامة الحجة عليهـم قـال : حدثنـا محمـد بـن المثنـى حدثنـا عبـد الوهاب قال : سمعت يحى بن سعيد قال : أخبرنى محمد بن إبراهيم وعطاء بن يسار أنهما أتيا أبا سعيد الخدرى ... قال سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول : "يخـرج فـى هـذه الأمة قوم تحقرون صلاتكم مع صلاتهم .. إلى آخر الحديث[5] . و لم أشـهد فـى المصـادر الإباضية التى تيسر لى الإطلاع عليها أى دراسة علمية يثبت من خلالهـا تجريـح أحـد مـن رجال سند حديث المروق المذكورين. ويجـدر الإشـارة إلى أن "الخـوارج" -كمـا يقـول عوض خليفات[6]- يدخلون ضمن اصحاب الأهواءوالبدع الذين لايعـول عليهـم علمـاء الحديث ، ولهذا السبب حاول بعض نقدة الحديث من المعجبين بوقار جابر بن زيد وورعه وعلمه فنسبوا لجابر أنه أكد قبيل وفاته لصديقه الحسن البصرى أنه ليس من الإباضية وتبرأ

---

(١) انظر الحارثى : العقود الفضية فى أصول الإباضية ، ص٦٦ -٦٧ .

(٢) النووى على مسلم ، ج٧ ص ١٧١ .

(٣) السنن ، ج٤ رقم ٤٤ ورقم ٤٧٦٨ .

(٤) مسند ابن حنبل ، ج٣ ص٣٣ .

(٥) انظر صابر طعيمة : الإباضية عقيدة ومذهبا ، ص٤١ .

(٦) نشأة الحركة الإباضية ، ص٩٥ .

منهم . ولو أخذنا بقول خليفات المذكور ، لكان مسند الربيع بن حبيب لايعول عليه ، لأن أحدا من نقدة الحديث لم يدفع عن الربيع ولا عن أبى عبيده تهمة الخارجية ، وبالتالى فإنهما يعدّان من أهل الأهواء والبدع .

كما تجدر الإشارة أيضا إلى أن حديث المروق لم ينفرد ـ من حيث اختلاف متنه ــ فى مسند الربيع بن حبيب عنه فى كتب الصحاح ، لأن هذا المسند وردت به أحاديث كثيرة متنها مخالف -فى غالب رواياته- لما عند كتب الصحاح . ومن الملفت للنظر حقا أن معظم هذه الأحاديث جاءت فى مسند الربيع بغير سند ولاراو.فمثلا جاء فى باب الحجة على من قال إن أهل الكبائر ليسوا بكافرين تحت رقم ٧٤٤" قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إذا قال رجل لرجل أنت عدوى فقد كفر أحدهما" .

وتحت رقم ٧٥٤ قال صلى الله عليه وسلم : "الجنة حرام على من قتل ذميا أو ظلمه أو حمله ما لا يطيق وأنا حجيج الذمى فكيف المؤمن ؟" .

وتحت رقم ٧٦٢ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من مات وعليه دين لم يدخل الجنة ، قيل ولو قتل فى سبيل الله ؟ قال : ولو قتل سبعين مرة ، ثم أحيى ، ثم قتل ، وعليه دين فلا يدخل الجنة[1]".

وغير صحيح ما يستدل به الإباضية من عدم صحة الزيادة التى أوردها البخارى عما ورد فى مسند الربيع بن حبيب بالنسبة لحديث المروق من قولهم : إن جابر بن زيد لا يعقل أن يتولى رجلا من أهل النهروان إذا صح أنه سمع ونقل عن أبى سعيد الخدرى أن عليا وجد بين قتلاهم رجلا تنطبق عليه الصفات التى ذكرها النبى صلى الله عليه وسلم أنها علامة لمن سوف يمرقون من الإسلام ، لأن هذا الاستدلال يقوم على أساس افتراض أن جابرا من الإباضية وأنه لذلك يتولى أهل النهروان ، وخاصة مشاهيرهم مثل حرقوص ابن زهير المعروف بذى الثديّة . لكنه لم يرد فى أى مصدر – على مبلغ علمنا – أن

---

(١) انظر صابر طعيمة : الإباضية عقيدة ومذهبا ، ص ١٢٢ – ١٢٣ .

جابرا كان يتولى أحدا من أهل النهروان ، كما أنه لم يكن إباضيا على النحو الذى سبق أن أكدناه .

وليس صحيحا ما يزعمه الشماخى[1] من أن على بن أبى طالب سير ابنه الحسن على رأس جيش لمحاربة أهل النهروان إلا أنهم خصموه وأقنعوه بصحة موقفهم مما حمله على العودة من حيث أتى ، وأنه عبر عن تعاطفه مع أهل النهروان بقوله لأبيه بعد قتلهم (لا يرى قاتلهم الجنة) ، لأن هذا المؤرخ الإباضى استند فى قوله المذكور على كتاب مفقود أطلق عليه اسم (كتاب النهر) لم يشر إليه أحد غيره ، ولا يعرف اسم مؤلفه ، ولا مكان وجوده . ولذلك فلا نشك فى أن كل ما ذكره منسوبا للكتاب المذكور هو من نسج خيال الشماخى نفسه ، خاصة وأن أحدا من المؤرخين - على مبلغ علمنا - لم يذكر أن على بن أبى طالب وجه جيشا إلى أهل النهروان قبل أن يلتقى هو بهم على رأس الجيش الذى كان قد أعده أصلاً لأهل الشام ، ولكنه قرر أن يتصدى للخوارج أولاً ، لما بلغه أنباء ترويعهم لأمن الأهلين وقتلهم لعبد الله بن خباب بن الأرت وزوجه . هذا فضلاً عن أنه لو صح أن الحسن بن على وصف أباه بأنه من أهل النار على النحو المزعوم، لتبرأ منه شيعة أبية ولما وقع اختيارهم عليه ليكون إماما من بعده .

(٤) على الرغم من أن كلمة الخوارج تعنى فى نظر كثير من الكتاب الإباضيين - على نحو ماسبق ذكره- غلاة الأزارقة والنجدات والصفرية ومن على شاكلتهم ، وأن هؤلاء مشركون مارقون من الإسلام ، لأنهم استحلوا ماحرم الله ، وتجاوزوا القول إلى الفعل بإراقة دماء مخالفيهم ومعاملتهم معاملة المشركين- إلاّ أننا نلمس فى أقوال بعض هؤلاء الكتاب مايمكن أن يعتبر دفاعاً عن الخوارج .

فيذكر على يحى معمر[2] أن الكتاب الذين تناولوا الخوارج فى أبحاثهم ثلاثة أقسام :

(١) السير ، جـ١ ص ٥١ .

(٢) الإباضية بين الفرق الإسلامية ، ج١ ص٨١-٨٢ .

القسم الأول : هم أولئك الكتاب المتشددون الناقمون الذين يخرجونهم من الإسلام أو يكادون ، وهم يرمون عليهم كل أوزار التاريخ الإسلامى .

القسم الثانى : هم أولئك الذين ينقلون مايجدونه فى المصادر دون دراسة أو تفهم أو تحليل ، وآراؤهم تكون حسب الصدفة ، فإذا وقعوا على مصادر تميل إلى الخوارج أو تعطف عليهم كان لهم رأى ، وإذا وقعوا على مصادر مناوئة للخوارج كان لهم رأى آخر مغاير .

القسم الثالث : هم أولئك الذين يقفون منهم موقف الاعتدال ويجعلونهم من جملة المسلمين ، ويتحدثون عنهم بلطف وسماحة ، وقد يلتمسون لهم العذر ، وربما أيدوهم فى بعض آرائهم ومبادئهم .

ومما يؤكد تعاطف معمر مع الخوارج قوله (ولانزاع فيما أعتقد أن عدداً من الأطراف كان يحاول تبغيض الخوارج إلى بقية الأمة ، بتهمتهم بالخروج عن الدين . ولكن السخط الذى انصب عليهم من الأمويين والأكاذيب التى تشاع عنهم ... إنما كان يحدث فى العهد الأموى ، وذلك لكى ينفر الناس منهم[١] . كما يشكك الكاتب الإباضى المذكور فيما روته كتب التاريخ من اتهام لنافع بن الأزرق بالغلو ، وذلك يتضح من قوله: "شعار التكفير والاستحلال هو الذى رفعه ابن الأزرق ومن سار بسيرته وحارب من أجله ، كما تقول عنه كتب التاريخ إن صدقت"[٢] .

ومشكلة كتاب المقالات -فى نظر على يحى معمر[٣]- هى أن الواحد منهم حين يتصدى للكتابة يعطى نفسه حقين ثابتين ينطلق من خلالهما : الحق الأول : أن الفرقة التى ينتسب إليها هى التى تمثل الإسلام حقيقة ، ولذلك فهى غير خاضعة لاللتقويم ولاللنقد

---

(١) على يحى معمر : الإباضية بين الفرق الإسلامية ، ج٢ ص ٢١٢ .

(٢) نفسه ص ٢١٧ .

(٣) نفسه ، ج١ ص٨٢ .

ولاللمقارنة ، وحكمها على غيرها هو حكم الإسلام نفسه ، وآراؤها وعقائدها هي الميزان الذى توزن به آراء وعقائد الآخرين . أما الحق الثانى ، أنه ما دام ينتسب لفرقة محقة تمثل الإسلام ، فمن صلاحيته أن يحكم على الفرق الأخرى وأن يقرر بعدها أو قربها من الإسلام بمدى الخلاف الذى بين تلك الفرق وفرقته، ولايجد حرجاً فى أن يصدر أحكاما عامة أو خاصة على الآخرين على هذا الأساس .

وهكذا نرى أن الكاتب الإباضى المذكور يشفق على الخوارج ويصف الذين يخرجونهم من الإسلام بأنهم من المتشددين الناقمين . أما الذين يصفونهم بالاعتدال ويتحدثون عنهم بلطف ويلتمسون لهم العذر ، فهؤلاء فى نظره معتدلون . كما يشير إلى أن الأمويين هم الذين أشاعوا الأكاذيب عن الخوارج واتهموهم بالخروج من الدين لتنفير الناس منهم . وقد نسى أن إخوانه هم الذين يصفون غلاة الخوارج بأنهم مارقون من الإسلام ومشركون ، فى الوقت الذى يدخلهم أغلب كتاب أهل السنة فى عداد المسلمين ، باستثناء فرقتى المأمونية واليزيدية ، وذلك على النحو الذى أوضحناه . ومن المستبعد أن يقال إن الكاتب المذكور عنى بكلمة "الخوارج" هنا الإباضية ، لأنه يشكو مر الشكوى من أن مخالفى الإباضية ، هم الذين اتهموهم بأنهم خوارج ، وأخذو يتناقلون هذه التهمة جيلاً بعد جيل ، دون اعتبار لصراخ المتهم أو اهتمام به أو سماع لدفاعه(١) .

ومن العجيب أن على يحى معمر على الرغم من أنه يتعاطف مع الخوارج ويذهب إلى أن الدولة الأموية هى التى أشاعت الأكاذيب واتهمتهم بالخروج من الدين على النحو المذكور ، إلا أنه هو نفسه يصفهم بالخروج من الدين ، ويفهم ذلك من قوله : "إن حركات كثيرة مناوئة قامت على الدولة الأموية اتخذت أساليب مختلفة وأسباباً متعددة ، ولكنها كلها لم تحمل معنى الخارجية ، حتى جاء نافع بن الأزرق وخرج بحركته سنة٦٤هـ وحكم على جميع مخالفيه بالشرك ، وحاول أن يطبق عليهم حكم مشركى العرب، -فانطبقت عليه وعلى من أخذ برأيه- كلمة الخارجية بمعنيها السياسى

---

(١) الإباضية بين الفرق الإسلامية ، جـ١ ص١٤.

والدينى[1]. والمقصود بالمعنى السياسى هو الخروج على الإمام الشرعى ، أما المعنى الدينى فالمقصود منه الخروج من الدين . وإن دل ذلك على شيئ فإنما يدل على التناقض والارتباك فى أقوال الكاتب المذكور فيما نحن بصدده .

ثم إنه من الملاحظ أن على يحيى معمر يصور الشيعة والأمويين على أنهما تعاونا سوياً فى التصدى للخوارج ، وهذا مالم يقل به أحد على مبلغ علمنا ، وخاصة أن الثقة كانت مفقودة بين هذين العدوين اللدودين . هذا فضلاً عن أن الشيعة لم ينجحوا فى إقامة أية دولة لهم فى العصر الأموى ، لذلك فلم تكن لهم سلطة وذلك عكس مايشير إليه الكاتب المذكور . كما أنه من الملفت للنظر حقاً أن يظهر هذا الكاتب البغض نحو المهلب ابن أبى صفرة ، وأن يتهمه بأنه باع دينه بدنيا بنى أمية ، مع أن الثابت أن هذا القائد العظيم قام بدور خالد فى القضاء على غلاة الخوارج من الأزارقة ، مما يجعل له فى قلب كل مسلم مكانة سامية ، لأن هؤلاء عاثوا فى الأرض فساداً واستباحوا دماء المسلمين ، حتى أن هذا الكاتب نفسه يصفهم بقوله : "فالأزارقة خوارج لأنهم أخطأوا تأويل آيات الكتاب ، وأدى عملهم بهذا الخطأ إلى ردّ آيات ، وإبطال أحكام ... وكلمة الخوارج لاتطلق إلا على الذين خرجوا من الدين"[2] . علما بأن كاتباً إباضياً آخر ، وهو صالح ابن أحمد الصوافى[3] ، يشيد بما فعله المهلب ويصفه بأنه أزدى عظيم ، ويدخله فى عداد الإباضية هو وأسرته[4] .

ومن الجدير بالذكر أن النقد الذى وجهه على يحى معمر إلى كتاب المقالات

---

(١) نفسه ، ج٢ ص١٨٣ .

(٢) الإباضة فى موكب التاريخ ، الحلقة الأولى كالتالى ص٣٤ .

(٣) الإمام جابر بن زيد ، ص ٢١٤-٢١٥ .

(٤) ذكر الصوافى لمؤلف هذا الكتاب (فى حديث دار بينهما مشافهة) أن الأسرة الحاكمة فى سلطنة عمان ، وهى أسرة آل سعيد ، ترجع نسب مؤسسها إلى المهلب بن أبى صفرة . علما بأنه تم مؤخرا إنشاء مسجد كبير بمسقط أطلق عليه اسم القائد المذكور .

المخالفين له فى المذهب على النحو المشار إليه ينطبق تماما على كتّاب الإباضيـة ، والأدلـة على ذلك كثيرة منها عبارات واردة فى مؤلفاتهم كالتالى :

*- "وعلى هذا فإن الإباضية قد انفردوا بالتمسك بمبادئ الإسلام"(١) .

*- "ولم يقل بهذا غير الإباضية ، لأنهم أدركوا من الشريعة مافاقوا سواهم"(٢) .

*- "ولاشك أن الإسلام والإيمان بمعناهما لم يبقيا فى مذهب ماعلى أصولهما الصحيحة الاّ فى مذهب الإباضية"(٣) .

*- "وهذا مسند الربيع بن حبيب أصح الكتب بعد القرآن والذى عليه المعتمد عند الإباضية"(٤) .

*- "ولقد أتى أصحابنا فى العلوم العجب العجاب ، وعرفوا بالصدق والأمانة والورع مالم يبلغ شأوه غيرهم"(٥) .

*- "وبهذا الاعتبار يكون المذهب الإباضى أول المذاهب المعتدلة الصحيحة"(٦) .

*- "فالإباضية فرقة من فرق الإسلام التى عرفت فى حديث الافتراق(٧) الذى رواه

---

(١) صالح بن أحمد الصوافى: نفسه ، ص٢١٩ .

(٢) محمد بن يوسف إطفيش : نبذه عن الخوارج [انظر على يحى معمر : الإباضية بين الفرق ج٢ ص٢٨٢] .

(٣) سالم بن حمود السيابى : إزالة الوعثاء ، ص٧٧ .

(٤) سالم بن حمود السيابى : الحقيقة والمجاز ، ص٢٢ .

(٥) على يحى معمر : الإباضية بين الفرق ، ج٢ ص ٢٨٤ .

(٦) سالم بن حمود السيابى : إزالة الوعثاء ، ص٦٣ .

(٧) جاء فى هذا الحديث ما معناه : ... وافترقت أمتى إلى ثلاث وسبعين فرقة كلها فى النار إلاّ فرقة . وعلى الرغم من أن ذكر "الإباضية" لم يرد به ، إلاّ أن الإباضيين يقولون بأنهم هم الفرقة الناجية . ومن الجدير بالذكر أن مؤلف كتاب "الإباضية مذهب وسلوك" واسمه السيد عبد الحافظ عبد=

أئمة الحديث . هم الفرقة المحقة ، وهى الصادقة فى الأقوال والأفعال"[1] .

*- إن الشيخ محمد عبده كان يرسل من مصر إلى محمد بن يوسف أطفيش مستفسرا فى بعض المسائل العلمية ، وأحيانا كان يذهب إليه بنفسه فى تونس لنفس الغرض[2] .

- لم يكن على يحى معمر هو الذى يتعاطف وحده من كتاب الإباضية مع الخوارج ، وإنما نلمس هذا التعاطف أيضاً لدى كاتب آخر هو سالم بن حمد الحارثى[3] ، إذ يلتمس لهم العذر لأسباب كثيرة منها :

أولاً- إن إمامة على لم تثبت بإجماع الصحابة حيث لم يدخل فى بيعته كل من طلحة والزبير وعبد الله بن عمر وسعد بن أبى وقاص .

ثانياً- إن خروج طلحة والزبير ومعاوية ومن معهم على الإمام أسوة لما فعله الخوارج ، إذ كيف يحل لهؤلاء الخروج ويحرم ذلك على الخوارج ؟

ثالثاً- ذكر الطبرى أن الإمام على قبل التحكيم مكرهاً خوفاً على نفسه ، وبناء على ذلك فقد سقطت إمامته لضعفه .

رابعاً- على رأى بعض المسلمين ــ ومنهم الإمام على نفسه ــ إن كل مجتهد مصيب ، وهؤلاء الخوارج اجتهدوا .

=ربه، يشيد بالإباضية كثيرا ويرى أنها الفرقة الناجية التى أشير إليها فى الحديث المذكور . علما بأنه يصف نفسه بأنه من علماء الأزهر ، ويذكر عنوان سكنه بحىّ المهندسين بالقاهرة ورقم تليفونه، ويعد كل من يتصل به على هذا العنوان بإهدائه نسخة مجانية من كتابه المذكور . مع ملاحظة أنه - فيما يبدو - غير إباضى .

(١) نفس المرجع السابق ، ص٦٧ .

(٢) انظر محمد بن يوسف أطفيش : رسالة "إن لم تعرف الإباضية ياعقبى ياجزائرى" ص ١٣ .

(٣) العقود الفضية فى أصول الإباضية ، ص٦٤ .

خامساً- لهم حرمة لا إله إلا الله .

سادساً- إن كثيرين من علماء المسلمين كانوا يرون رأى الخوارج ، مثل الحسن البصرى والإمام مالك وغيرهم .

على أنه إذا كانت قلة نادرة قد تخلفت عن بيعة على إلاّ أنها قد آثرت الابتعاد عن معترك السياسة نتيجة الفتنة التى انتهت بمقتل عثمان ، فإن ذلك لايطعن فى صحة إمامة على ، لأن الأغلبية الساحقة من أهل الحل والعقد قد بايعته . ومن الثابت أن الخوارج -بالذات- لم يتشكك أحد منهم فى إمامته قبل مشكلة التحكيم ، ومن المعروف أنهم حاربوا تحت لوائه طلحة والزبير وعائشة ومعاوية وأتباعهم ، ولو أن هؤلاء الخوارج كانوا يشكون فى إمامة على قيد أنملة مافعلوا ذلك .

ثم إن طلحة والزبير بايعا عليا على الأرجح ، حتى أن الإباضية وكل الخوارج يتهموهما بأنهما نكثا بيعتهما لعلى . يقول الشماخى[1] : "فلما بلغا (أى طلحة والزبير) مكة نكثا وخالفا ونسيا أعظم العهود التى أعطياها" .

ويقول القلهاتى[2] : "ولما استقام الناس على علىّ بن أبى طالب خرج طلحة والزبير مخالفين مشاقين مفارقين للمسلمين حتى بعد أن بايعاه وأعطياه صفق أيديهما" .

كما أن وجه الاختلاف بالنسبة للخروج على علىٍّ بن ابى طالب من جانب الخوارج وبين الخروج عليه من جانب غيرهم ، هو أن الخوارج شرعوا -كما سبق أن نوهنا- فى ترويع أمن الأهلين وسفك دمائهم ، وهو الأمر الذى سوف يتوسع فيه خلفهم من الأزارقة وغيرهم باستثناء الإباضية الذين تورعوا عن ذلك واستنكروه بشدة .

هذا ومن الثابت أن على بن أبى طالب كان من أشجع الشجعان ، وهذه صفة فيه

---

(١) السير ، ج١ ص ٤٢ .

(٢) الكشف والبيان ، ج٢ ص ٢٢٩ .

لاسبيل إلى التشكيك فيها ، علماً بأن الطبرى[1] لم يذكر أنه قبل التحكيم خوفاً على نفسه ، وإنما أشار إلى أنه أكره فقط على قبوله من جانب الأغلبية فى جيشه مخافة الفتنة ، وخاصة من أولئك الذين صاروا خوارج فيما بعد ، مثل مسعر بن فدكى التميمى وزيد ابن حصين الطائى فى عصبة معهما من القراء ، ولما أعطى على العهد لمعاوية بقبوله التحكيم ، عاد هؤلاء فطالبوه بنقض العهد والاستمرار فى الحرب ، فأبى عليهم ذلك .

وليس صحيحاً أن كل مجتهد مصيب ، وإنما الصحيح هو أن لكل مجتهد نصيب ، على أساس أن المصيب له أجران وغير المصيب له أجر ، ثم ألم يكن أمير المؤمنين عثمان ابن عفان مجتهدا فيما ارتآه ، وأن له حرمة لاإله إلا الله ؟فلماذا إذن استباح أسلاف الإباضية دمه الحرام وقتلوه في شهر حرام ببلد حرام ؟ مع أنه كان أميراً للمؤمنين وله حق الاجتهاد أكثر من سواه فضلاً عن حقه فى أن يصان بحرمة لاإله إلا الله .

ويرى البعض[2] أن الخوارج لم يكونوا فى مستوى من اجتهد فأخطأ أو تأول فضل فلما عرف الحق تاب إليه ، ولكنهم ـ تحت الشعار الذى رفعوه من البداية المبكرة لخروجهم ضد على – لم يكونوا قد أتوا بجديد ، ذلك لأن هذا الشعار "لاحكم إلا لله" لم يكن مستحدثا على فكر الحياة الإسلامية ، وكان الرجل الذى اختصموه– رضى الله عنهم ـ يأبى هو الآخر أن يكون الحكم لغير الله ، ولكنه الغلو الذى حذر منه النبى صلى الله عليه وسلم يوم قال : ".... ومن خرج على أمتى يضرب برها وفاجرها ولايتحاشى من مؤمنها ، ولا يفى لذى عهد ، فليس منى ولست منه"[3] .

أما ما يشير إليه الحارثى من حيث إنكار بعض علماء المسلمين للتحكيم مثل : الحسن البصرى والإمام مالك وغيرهما ، فإنه لايدل على أن هؤلاء العلماء كانوا من الخوارج أو أنهم كانوا يلتمسون لهم العذر ، خاصة وأن أحدا من هؤلاء العلماء لم ينكر

---

(١) تاريخ الأمم ، ج٥ ص ٤٩ –٥٠ .

(٢) صابر طعيمة : الإباضية عقيدة ومذهبا ، ص٣٧ .

(٣) أخرجه مسلم (كتاب الإمارة) باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين وتحريم الخروج على الجماعة (انظر صابر طعيمة :الإباضية :ص ٣٧ حاشية رقم١) .

إمامة على بن أبى طالب أو تبرأ منه ، والأهم من ذلك عدم اتهام على بالكفر سواء كان كفر شرك على نحو مايقول به الأزارقة ومن على شاكلتهم ، أو كفرنعمة على نحو مايقول به الإباضية ، فالعاقبة واحدة وهى الخلود فى النار، لأن من يرتكب إحدى الكبائر و لم يتب منها يكون عند الإباضية خالدا فى النار ، ـ وعليّ من وجهة نظرهم ـ مات دون توبة من كبيرة التحكيم التى ارتكبها .

ومن الجدير بالذكر أن بعض من أنكروا التحكيم ، مثل الأشتر النخعى كان من أشد الناس ولاء لعلى بن أبى طالب ، حتى أن عليا خاطب أتباعه الذين خوفوه من الأشتر بقوله : "ياليت فيكم مثله اثنين ! ياليت فيكم مثله واحدا يرى فى عدوى ماأرى[1] .

ومن الكتاب الإباضيين الذين نلمس فى قولهم تعاطفا مع الخوارج أصحاب كتاب "هذه مبادئنا" ، وهم أحمد مهنى مصلح وزملاؤه[2] ، فهؤلاء يأخذون على مؤلف كتاب الإباضية عقيدة ومذهبا أنه أورد حكم الحافظ ابن كثير على "الخوارج" بالتضليل ، دون أن يعلق عليه تمشيا مع مادعا إليه من تطهير القلوب ليلتقى جميع المسلمين تحت لواء العقيدة الواحدة ، ويتساءل هؤلاء :ألم يكن الأولى أن يتريث فى إقرار الحكم بضلال مجموعة من الصحابة وجلة التابعين ؟

على أنه من الملاحظ أن أحمد مهنى مصلح وزملاؤه من بين الكتاب الإباضيين المحدثين الذين يستنكرون بشدة أن تكون فرقة الإباضية من الخوارج ، وفى رأى هؤلاء الكتاب أن كلمة "الخوارج" يقصد بها غلاة الأزارقة ومن على شاكلتهم ، وإذا كان الأمر كذلك ، فلماذا يعترض هؤلاء الكتاب على وصف الخوارج بالضلال من قبل ابن كثير أو غيره ، وهل يعتبر وصف الخوارج بالضلال مفسدة للوحدة الإسلامية ؟ . علماً بأن أسلاف الإباضية كفروا الكثير من الصحابة ، ومهما يقال من وصف هذا الكفر بأنه كفر نعمة وليس كفر شرك ، فإن النتيجة واحدة وهى الخلود فى النار ، على أساس أن ،

(١) الطبرى : تاريخ الأمم ، ج٥ ص ٥٩ .

(٢) ص٥٧-٥٨ .

هؤلاء الصحابة لم يتوبوا عما ارتكبوه في نظر الإباضية من كبائر ، بل إن بعض الإباضية لم يتورعوا عن اختلاق أحاديث يصفون فيها بعض الصحابة بالضلال ، وينسبونها إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، مثلما يفعل القلهاتي[1] حين يقول : "وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : سيكون في أمتي حكمان ضالان مضلان ويضل من اتبعهما" وقد جاء في سيرة أبي قحطان خالد بن قحطان[2] مثل ذلك ، بل أضاف إليه كلاما يصل إلى حد السخف ، ونصه : "فلما بلغ الكتاب أجله وأراد الله أن يظهر عورة علي بن أبي طالب ماأظهر من عورة عثمان ، للذي قد سبق في علمه من الفتنة التي تكون ، وقد حذرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم الفتنة ، وقال فيما سمعنا والله أعلم: يبعث في أمتي حكمان ضالان مضلان يضلان من اتبعهما . وكان أبو موسى الأشعري ممن يروي هذا الحديث ، فلم ينتفع بروايته للسابق في علم الله ، وكان أبو موسى أحد الحكمين . فنعوذ بالله من الضلال بعد الهدى" .

ومن الواضح أن هذا الحديث المزعوم لا سند له . وفي اعتقادنا أنه لا يمكن أن يكون واردا في مسند الربيع بن حبيب المعتمد لدى الإباضية ، وإذا صح هذا الاعتقاد ، فلنا أن نتساءل : من أين جاء به كل من أبي قحطان والقلهاتي ؟ . ومهما يكن من أمر ، فإنه لا يسعنا إلا أن نعوذ بالله من الضلال بعد الهدى .

٥- كلمة "الخوارج" عرفت قبل العصر الأموي على الأرجح ، بدليل مايروى عن الإمام علي بن أبي طالب من أنه قال : "لاتقاتلوا الخوارج ، فليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فأصابه"[3] . كما أن الخليفة المذكور حين سئل عن شركهم أجاب بقوله : "من الشرك فروا . فقيل له : أمنافقون هم ؟ قال : إن المنافقين لايذكرون الله إلا قليلا . قيل : فما هم ياأمير المؤمنين ؟ قال : إخواننا بغوا علينا[4] . وهذا يدل على أن

---

(١) الكشف والبيان ، ج٢ ص ٢٣٧ .

(٢) السير والجوابات لعلماء وأئمة عمان ، ج١ ص١١٠-١١١ .

(٣) الحارثي : العقود الفضية ص٤١ .

(٤) ابن كثير : البداية والنهاية ،ج٧ ص ٢٩٠ .

التهمة بالخروج من الدين كانت توجه إليهم منذ ذلك الحين ، ولكن الإمام على نفاها عنهم . وكان موقفه هذا هو الذى استند إليه كثير من فقهاء أهل السنة فى عدم تكفير الأزارقة ومن على شاكلتهم ، وذلك على النحو الذى سبق أن أوضحناه . علماً بأن الإباضية يعتبرونهم مشركين ، على أساس أنهم استحلوا دماء مخالفيهم من المسلمين ، ومارسوا الاستعراض بين الأهلين ، إلى غير ذلك مما يعد خروجاً من الدين .

٦- أشارت المصادر السنية إلى مناظرات جرت بين الخوارج من ناحية ، وبين الإمام على بن أبى طالب أو مبعوثه إليهم ، وهو عبد الله بن عباس ، من ناحية أخرى . ويفهم مما أوردته هذه المصادر أن كثيراً من الخوارج كانوا يقتنعون فى نهاية هذه المناظرات بصحة موقف على من التحكيم . فيشير المبرد(١) إلى أن ابن عباس ناظر الخوارج ذات يوم بالكوفة ، فاتبعه ألفان ، وظل أربعة آلاف منهم معارضين لعلى ، وبعد يومين أجمعوا على البيعة لعبد الله بن وهب ، ثم مضوا إلى النهروان . كما يشير الذهبى(٢) إلى مناظرة تمكن ابن عباس خلالها من تفنيد ماأخذه الخوارج على على بن أبى طالب ، الأمر الذى حدا بثلث الحاضرين من الخوارج إلى التراجع فى نهايتها .

ويشك الكاتب الإباضى على يحى معمر(٣) فى صحة هذه المناظرات ، ويعبر عن ذلك بقوله : "الواقع أنى أشك فى كثير من الأقاويل والمناقشات والمناظرات ... التى قيل إنها جرت بين الإمام أو ابن عباس والخوارج ، فإن الصنعة والتكلف - فيما يبدو لى - تقرأ واضحة فى كثير من الاحتجاجات والبراهين التى تظهر عليها صنعة عصر غير ذلك العصر" .

كما أن بعض المصادر الإباضية(٤) ذكرت أن أهل النهروان تمكنوا من إقناع عبد الله بن عباس بصحة موقفهم من قضية التحكيم ، وذلك بعد مناظرة جرت بينهم وبين

---

(١) الكامل فى الأدب ، ج٣ ص ١٥٧ .

(٢) تاريخ الإسلام ، ج٣ ص ٣٥٧ .

(٣) الإباضية بين الفرق الإسلامية ، ج٢ ص ٢١١ .

(٤) القلهاتى : الكشف والبيان ، ج٢ ص ٢٤٣-٢٥٠، والحارثى : العقود الفضية ، ص٥٠-٥٩ .

ابن عباس حاول الأخير فى بدايتها إقناعهم بسلامة موقف على بن أبى طالب، لكنهم خصموه فى النهاية بحيث لم ينصرف عنهم إلا هو مقتنع بوجهة نظرهم ، مما حمله على التخلى عن مؤازرة ابن عمه فى محاربته لأهل النهروان ، وأدى ذلك إلى الاصطدام فيما بينهما . يقول القلهاتى[1] : "وانصرف عنهم وهو مقر لهم أنهم خصموه (أفعموه بالحجة القوية) ونقضوا عليه ماجاء به مما احتج به عليهم . فرجع ابن عباس إلى علـى ، فلما رآه قام إليه وناجاه وكره أن يسمع أصحابه قولهم وحجتهم التى احتجوا بها ، فقال له على : ألا تعيننى على قتالهم ؟ فقال ابن عباس : لا . والله لأقاتل قوما قد خصمونى فى الدنيا ، وأنهم يوم القيامة لى أخصم وعلىّ أقوى . إن لم أكن معهم لم أكن عليهم ! واعتزل عنه ابن عباس رضى الله عنه ، ثم فارقه وكتب اليه علىّ يؤنبه بمال أخذه من البصرة من بيت المال ، فقال : قد عرفت وجه أخذى المال من أنه كان هناك بقية دون حقى ، من بعد ماأعطيت كل ذى حق حقه - وقد علمت أخذى المال من قبل قولى فى أهل النهروان ، ولو كان أخذى المال باطلا ، كان أهون من أن أشترك فى دم مؤمن . فاكفف عن القوم. فأبى" .

على أنه من الصعب أن نصدق أن أهل النهروان أفحموا ابن عباس بما احتجوا عليه من آيات القرآن الكريم حتى خصموه على النحو المذكور ، لأن المشهور عن ابن عباس أنه كان حبر الأمة وترجمان القرآن ، فكيف غاب عنه قبل هذه المناظره ما احتج به هؤلاء الخوارج عليه ؟ خاصة وأنه لم يكن بينهم أحد من الفقهاء المشهود لهم وقتذاك بسعة العلم وطول البا ع على النحو الذى سبق أن أشرنا إليه .

كما لايعقل أن يكون ابن عباس قد وافق الخوارج فيما ذهبوا اليه من أن كلا من معاوية وأبى موسى الأشعرى وعمرو بن العاص أحل ماحرم الله وحرم ما أحله ، وذلك على نحو مايرد فى المناظرة المشار اليها . فمما جاء فيها : ".... ثم قالوا : نذكرك الله ياابن عباس ، هل تعلم أن أبا موسى كان شاكا فى قتال الفئة الباغية يحرم ماأحل الله من قتال الفئة الباغية ويخذل الناس عن القتال ؟ قال : اللهم نعم ... فنذكرك الله ياابن عباس، هل تعلم أن عمرو بن العاص استحل ماحرم الله من دماء المسلمين ، وحرم ماأحل الله من

---

(١) نفسه ، ص ٢٥٠ .

قتل من بغى عليهم ، وتولى من عادى الله وعادى المسلمين ، ومن دان بدينهم ، وماهم عليه من الحق من قتال أهل البغى . فقال : اللهم نعم ، قد خصمتم عليا بهذا ، وقولكم الحق ... ذلك أن عليا حرم القتال الذى أحله الله من معاوية وجنده حتى يأذن فيه عمرو بن العاص وأبو موسى الأشعرى" .

والمعروف أن كل من أحل ماحرمه الله ، أو حرم ماأحله ، يكون مشركا . ولذلك لايعقل أن يكون عبد الله بن عباس اقتنع بأن الصحابة المشارإليهم أشركوا بالله تعالى ، خاصة وأن الثابت أن ابن عباس قد أعان عليا فى إعداد الجيش الذى قاتل أهل النهروان وقضى على الأغلبية الساحقة منهم . يقول الطبرى[1] : إن عليا لما نزل بالنخيلة وآيس من الخوارج كتب إلى عماله -ومنهم ابن عباس بالبصرة- يطلب منهم أن يمدوه بالرجال والعتاد لمواجهة أعدائه . فلما قدم كتابه على ابن عباس قرأه على الناس ، وأمرهم بالشخوص مع الأحنف بن قيس ، فشخص منهم ألف وخمسمائة رجل ، فاستقلهم عبد الله بن عباس ، "فقام فى الناس ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد ياأهل البصرة ، فإنه جاءنى أمر أمير المؤمنين يأمرنى بإشخاصكم ، فأمرتكم بالنفير إليه مع الأحنف بن قيس ، ولم يشخص معه منكم إلا ألف وخمسمائة .... ألا انفروا مع جارية ابن قدامة السعدى ، ولايجعلن رجل على نفسه سبيلا ، فإنى موقع بكل من وجدته متخلفا مكتبه ، عاصيا إمامه .. فلا يلم رجلاً جعل السبيل على نفسه إلا نفسه .. فاجتمع إلى جاريه ألف وسبعمائه ، ثم أقبل حتى وفاه علىّ بالنخيلة ، فلم يزل بالنخيلة ، حتى وافاه هذان الجيشان من البصرة ثلاثة آلاف ومائتا رجل" . والمعروف أنه بعد أن اجتمع جند على من كل الجهات سار بهم نحو بلاد الشام ، إلا أنه عرج -وهو فى طريقه اليها - على النهروانه لما سمع بحادثة عبد الله بن خباب بن الأرت حيث التقى هناك بالخوارج . وهكذا يتضح لنا أنه بعد انتهاء المناظرات مع الخوارج ويأس علىبن أبى طالب من استمالتهم إلى صفه ، ظل ابن عباس على ولائه وإخلاصه التام نحو الخليفة المذكور ، بدليل أنه أنذر كل من يتخلف من أهل البصرة عن اللحاق بمعسكر على فى النخيلة بالعقاب الشديد ، لما لاحظ شيئا من التقاعس على النحو المذكور .

---

(١) تاريخ الأمم ، ج٥ ص ٧٨-٧٩ .

أما بالنسبة للخلاف الذى وقع بين ابن عباس والإمام على فى سنة ٤٠ هـ فلا علاقة له البتة بالخوارج ، لأن السبب فى هذا الخلاف -على نحو مارواه الطبرى[١]- يرجع إلى أن ابن عباس فى أثناء ولايته للبصرة عنف أبا الأسود الدؤلى ذات يوم ووجه إليه عبارات تقلل من شأنه ، فأسرها أبو الأسود فى نفسه - على مايبدو - وكتب إلى الإمام على يقول : "أما بعد ، فإن الله جل وعلا جعلك واليا مؤتمنا ، وراعيا مستوليا ، وقد بلوناك فوجدناك عظيم الأمانة ، ناصحا للرعية ، توفر لهم فيئهم ، وتظلف (تمنع) نفسك عن دنياهم ، فلا تأكل أموالهم ، ولا ترتشى فى أحكامهم ، وابن عمك قد أكل ماتحت يده بغير علمك ، فلم يسعنى كتمانك ذلك ، فانظر رحمك الله فيما هناك ، واكتب إلىّ برأيك فيما أحببت أنته إليك . والسلام" .

فكتب إليه على : أما بعد فمثلك نصح الإمام والأمه ، وأدى الأمانة ، ودل على الحق .. وكتب إلى ابن عباس فى ذلك ، فكتب إليه ابن عباس : أما بعد ، فإن الذى بلغك باطل ، وإنى لما تحت يدى ضابط قائم وله حافظ ، فلا تصدق الظنون ، والسلام .

فكتب إليه على : "أما بعد ، فأعلمنى ما أخذت من الجزية ، ومن أين أخذت ؟ وفيم وضعت ؟ قال : فكتب إليه ابن عباس : أما بعد ، فقد فهمت تعظيمك مرزأة ما بلغنى أنى رزأته (أصبته) من مال أهل هذا البلد ، فابعث إلى عملك من أحببت، فإنى ظاعن عنه ، والسلام" .

ويفهم مما ذكره البعض أن ابن عباس حين قرأ كتاب الإمام المشار إليه خرج عن هدوئه ، فكتب إلى الإمام كتابا فيه شيء من خطل الرأى وفساد الطوية ، ويقول فيه:"إنه يؤثر أن يلقى الله ، وفى ذمته شيء من أموال المسلمين ، على أن يلقاه وفى ذمته تلك الدماء التى سفكها على يوم الجمل ، ويوم صفين ، ويوم النهروان ، وإن تلك الدماء إنما سفكت فى سبيل الملك[٢] .

---

(١) تاريخ الأمم ، حـ٥ ص ١٤١ - ١٤٢ .

(٢) انظر محمد أسعد طلس : الخلفاء الراشدون ، ص٢٥٠ .

على أن الاتهامات المشار إليها للإمام على من قبل ابن عباس لم يشر إليها الطبرى مع أنه أثبت الكتب المتبادلة بينهما على النحو المذكور . كما أنه ليس من المعقول أن يتهم الإمام بسفك دماء مخالفيه فى المعارك المشار إليها ، لأن ابن عباس شاركه هذه الدماء ، إذ كان ممن أعانه فى تلك المعارك ، سواء بقيادته لبعض جند على ، أو بإسهامه فى حشد الكثير من الجند تحت لوائه .

وغير صحيح ما يزعمه القلهاتى من القول بأن ابن عباس كتب إلى على يقول له : "قد علمت أخذى المال من قبل قولى فى أهل النهروان ، ولو كان أخذى المال باطلا كان أهون من أن أشرك فى دم مؤمن ، فأكفف عن القوم ، فأبى" لأنه يفهم من ذلك أن عليا تغاضى عن محاسبته لابن عباس رغم علمه بما كان يأخذه من بيت مال المسلمين بالبصرة، وأنه لم يشرع فى ذلك إلا بعد أن أظهر ابن عباس تعاطفه مع الخوارج، وهذا ما يتعارض مع ما أورده صاحب كتاب بيان الشرع ، وهو من المؤلفات الإباضية القديمة ، من أن عليا لم يتوان فى الكتابة إلى ابن عباس موبخا إياه ومنذرا له ، وأنه أنهى هذه المكاتبة بقوله:"فاتق الله وأدّ إلى القوم أموالهم التى أفاء الله عليهم ، فإنك إن لم تفعل وأمكننى الله منك لأعذرن إلى الله فيك ، والله لو كان الحسن والحسين فعلا الذى فعلت ما كان لهما عندى هوادة ، ولا طرق عندى فى رخصة ، والله لا يحب الظالمين" . فكتب إليه ابن عباس : أما بعد ، فقد جاء كتابك وفهمت ما ذكرت فيه من مال البصرة، ولعمرى إن نصيبى فيه لأكثر مما أخذت ، ولعمرى لئن ألقى الله بما فى الأرض من ذهب وفضة أحب إلى من أن ألقاه بدم رجل مسلم(١) ".

ومن الملاحظ أن ماجاء فى كتاب بيان الشرع - على النحو المشار اليه - يتفق مع ماذكرناه عن الطبرى من أن واقعة الخلاف بين على وابن عباس حول المال المذكور لا علاقة لها البتة بأى تغير فى موقف ابن عباس من أهل النهروان .

يقول مؤلفو كتاب هذه مبادئنا(٢) : ولو كان عبدالله بن عباس مخالفا لهم لما اعتمد

---

(١) انظر الحارثى: العقود الفضية ، ص ٣٨ - ٣٩ .

(٢) أحمد مهنى مصلح وآخرون ، ٥٧ .

عليه الإباضية ، فإن أهل هذا المذهب أكثر نقلهم عن ابن عباس كما يعرف ذلك من تتبع أقوالهم ودرس محرراتهم ، فهو الإمام لهم فى نقل السنة النبوية وعليه معول أكثرهم ومعتمد رواتهم".

على أن نقل الإباضية عن ابن عباس ليس دليلا على أنه كان يوافق الخوارج فى آرائهم ، لأن الثابت أن الإباضة ينقلون عن مخالفيهم . يقول سالم بن حميد السيابى[1]: "وهذا مسند الربيع بن حيب أصح الكتب بعد القرآن ، والذى عليه المعتمد عند الإباضية ، فيه المروى من طريق عثمان (بن عفان) ، وعلى (بن أبى طالب)، وهذه آثار الإباضية ومشاهير كتبهم مشحونة بالنقل عن الصحابة عامة ، وعن بقية المذاهب الأخرى التى تباين مذهب الإباضية".

بل إن من رجال مسند الربيع بن حبيب المشار إليه نافع بن الأزرق [2] ، مع أن الإباضية يتبرءون منه ويضعونه على رأس الغلاة والمارقين . ومن الجدير بالذكر أن الأزارقة لم يكتفوا بتكفير على فحسب ، بل كفروا أيضا عثمان وطلحة والزبير وعائشة وعبد الله ابن عباس[3] . ولو صح أن ابن عباس وافق أهل النهروان ، على نحو ما يذهب إليه الإباضيون ، لما كفره الأزارقة الذين يتفقون مع الإباضية فى تولى أهل النهروان باعتبارهم أسلاف الخوارج على اختلاف فرقهم .

هذا فضلا عن أن جميع المصادر السنية التى أشارت إلى أن بعض مشاهير المسلمين وافقوا الخوارج فى إنكار التحكيم ، لم يشر أحد منها - على مبلغ علمنا - إلى أن ابن عباس كان من بينهم .

وفى اعتقادنا أن السبب الذى حمل الإباضية على القول بأن الخوارج خصموا ابن عباس وأنه أبى لذلك أن يشارك عليا فى دمائهم ، يرجع إلى ما اشتهر عن صلته الوثيقة

(١) الحقيقة والمجاز ، ص٢٢ .

(٢) انظر صابر طعيمة : الإباضية عقيدة ومذهبا ، ص٨٦ .

(٣) الشهرستانى : الملل والنحل ، ص ١٠٩ - ١١٠ .

بجابر بن زيد الذى يحرص هؤلاء على القول بأنه مؤسس مذهبهم ، إذ من الثابت أن جابر تتلمذ على يد هذا الحبر وتغذى بفيض علمه ، كما نقل عنه الكثير من الأحاديث النبوية الشريفة . لذا فمن الطبيعى أن يصوروا أشهر من تتلمذ على يديه جابر فى صورة الرجل الذى لم يخالف أسلافهم أهل النهروان . بل يذكر الشماخى(١) - نقلا عما أسماه بكتاب النهر - أن عبد الله بن عباس أثنى على أهل النهر كثيرا بعد قتال على لهم ، وأنه هاجم الحسن بن على بقوله : إنكم لأحق بيت فى العرب أن تتيهوا كما تاهت بنو إسرائيل ، إذ قمتم بكتاب الله وسنة نبيه عليه السلام ، فجاهدتم بها ، ثم جعلتم حكما على كتاب ربكم ، ثم قتلتم خيار المسلمين وفقهاءهم ، وقد أفنوا المخ واللحم وأجهدوا الجلد والعظم والعبادة وبذلوا أموالهم وأنفسهم فى سبيل الله " . كما أورد المؤرخ المذكور رواية منسوبة لابن عباس يقول فيها : "أصاب أهل النهر السبيل ، أصاب أبو بلال السبيل".

وقد سبق أن كررنا القول بأن كتاب النهر المشار إليه مفقود ، ولا يعرف اسم مؤلفه، كما لم يشر إليه أحد - على مبلغ علمنا - غير الشماخى - هذا فضلا عن أن الوضع ظاهر فيما جاء بهذا الكتاب منسوباً لابن عباس ، لأننا لو سلمنا جدلا بأنه امتدح أهل النهروان على النحو المزعوم ، فلا يعقل أن يخص أبا بلال مرداس بن حدير بالذكر من دونهم ، لأنه لم يكن إمام القوم مثل عبد الله بن وهب الراسبى ، ولا من الذين عرضت عليهم الإمامة ورفضوها مثل : زيد بن حصين الطائى وحرقوص بن زهير السعدى وغيرهما .

(٧) إن تطرف الأزارقة ومن على شاكلتهم من فرق الخوارج كان امتدادا لما بدأه أسلافهم من أهل النهروان ، والدليل على ذلك يكمن فيما أكدته مصادرنا الموثوقة(٢) من

---

(١) السير ، جـ١ ص ٥٢ .

(٢) البلاذرى : أنساب الأشراف ، جـ١ ص ١٧٥ ، وابن قتيبة : الإمامة والسياسة ، جـ١ ص ١٤٧، والطبرى : تاريخ الأمم ، جـ٥ ص ٨١ - ٨٢ ، والمسعودى : مروج الذهب : جـ٢ ص٦٠١ والبغدادى : الفرق بين الفرق ، ص٤٦ .

أن عبد الله بن خباب بن الأرت وزوجه قتلا على أيدى مجموعة من خوارج البصرة على رأسها مسعر بن فدكى التميمى ، كانوا يستعرضون الناس وهم فى طريقهم إلى النهروان للانضمام هناك إلى إلى إخوانهم من خوارج الكوفة . وقد سبق أن أشرنا إلى أن على بن أبى طالب لما بلغه ذلك قرر أن يتوجه إلى النهروان على رأس الجيش الذى كان قد أعده لقتال معاوية ، وهناك طلب من الخوارج أن يدفعوا إليه قتلة عبد الله للقصاص منهم ، لكنهم امتنعوا عن ذلك وصاحوا قائلين : "كلنا قتلته" مما حمله على الاشتباك معهم ، وانجلى هذا الإشتباك عن موت الكثيرين منهم .

ثم حدث أن ترصد واحد من الخوارج ، وهو عبد الرحمن بن ملجم المرادى ، للإمام على بن أبى طالب فيما بعد ، وتمكن من اغتياله .

على أن بعض الكتاب الإباضيين ينفون أية صلة لأهل النهروان بمقتل عبدالله ابن جبٰب وزوجه . فيقول الشماخى[1] :"وخرج مسعر بن فدكى من البصرة فى عصابة ، فجاز على قرية فيها عبدالله بن خباب فأخبره بالتحكيم ، فقال : إن أبى أوصانى أن ألزم بيتى إذا وقعت الفتنة ، فقال (مسعر) : إن الله أوصانا بغير ماأوصاك به أبوك فقال ﴿**قاتلوهم حتى لاتكون فتنة**﴾[2] . فقتله مسعر . فأتى أصحاب النهر فأنكروا ذلك عليه وهموا بقتله وفر منهم وبرئوا منه ، فخرج يستعرض الناس . وفى كتاب النهروان حدثنى عتاب بن ابراهيم أن مسعرا حين هرب لقى أناسا من أهل خراسان حجاجا فضرب أعناقهم ، ثم أتى المدائن ، فما شعر علىّ (بن أبى طالب) إلا وهو واقف على رأسه ، فأمنه ، والله أعلم فى صحة ذلك" .

ومن الملاحظ أن الشماخى ، وهو مؤرخ إباضى توفى فى القرن العاشر الهجرى ، لم يذكر المصدر الذى نقل عنه أن أهل النهروان تبرءوا من مسعر بن فدكى . أما ما نقله عما أسماه بكتاب النهروان فهو هراء لا يقبله أى عقل ، علما بأن الكتاب المذكور – كما سبق أن قلنا – مفقود ولا يعلم مؤلفه ولم يشر إليه أحد غير الشماخى .

---

(١) السير ، جـ١ ص٥٠ .

(٢) سورة البقرة آية ١٩٣ .

أما الحارثى[1] فلا يعترض على القول بأن مقتل عبد الله بن خباب وزوجه تم على يد بعض أهل النهروان ، وإن كان يشير إلى أن ذلك لم يتم باتفاقهم جميعا ، كما أن عليا لم يلم أهل النهروان على قبولهم انضمام قتلة عبدالله إليهم ، لأن ذلك يشبه انضمام قتلة عثمان إلى جيشه ، هذا فضلا عن أن حوادث مشابهة وقعت من قِبل جيوش الأئمة و لم يعب عليها ذلك ، مثلما حدث من جانب عمرو بن العاص ومعاوية بن خديج حين حرقا محمد بن أبى بكر فى جوف حمار .

على أن جميع المصادر غير الإباضية التى تيسر لنا الاطلاع عليها تشير إلى أن عليا طالب أهل النهروان - قبيل نشوب القتال معهم - بأن يسلموه قتلة عبدالله ، لكنهم أبوا عليه ذلك . فالطبرى[2] مثلا يذكر أنه قيل لأهل النهروان على لسان قيس بن عبادة ، أحد قادة جند على : "أخرجوا إلينا طلبتنا منكم ...فإنكم ركبتم عظيما من الأمر ، تشهدون علينا بالشرك ، والشرك ظلم عظيم ، وتسفكون دماء المسلمين ، وتعدونهم مشركين" . ولا يصح أن يطعن الكتاب الإباضيون فى هذا القول دون بيان المصادر أو الأدلة التى يستندون إليها فى هذا الصدد ، فالحارثى مثلا لم يذكر المصدر الذى اعتمد عليه فى القول بأن مقتل عبدالله بن خباب وزوجه لم يتم باتفاق أهل النهروان جميعا . كما أن الفرق شاسع بين حادثة مقتل عبدالله بن خباب وحادثة مقتل محمد بن أبى بكر وأمثالها ، لأن ابن أبى بكر كان منحازا لعلىّ بن أبى طالب فى حربه المعلنة مع معاوية ورجاله ، كما أنه سبق أن غمس يده فى الفتنة التى انتهت بمقتل الخليفة عثمان بن عفان. أما عبدالله بن خباب وزوجه فلم يكونا طرفا فى أى نزاع ، بل كانا من الأهلين الذين يتعين على الجميع عدم ترويع أمنهم ، ناهيك عن اتهامهم بالشرك وسفك دمائهم .

كما أنه تحت عنوان "أحاديث تعلق بها أهل الخلاف والرد عليها" يقول القلهاتى[3]: "ومما أضلهم وأعمى أبصارهم (أى مخالفو الإباضية) أن زعموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : (ستكون فتن كالليل المظلم ، يكون القاعد فيها خيرا

(١) العقود الفضية ، ص٦٣ - ٦٤ .

(٢) تاريخ الأمم ، جـ٥ ص٨٣ .

(٣) الكشف والبيان جـ٢ ص٣٩٩ .

من القائم والقائم خيرا من الماشى ، والماشى خيراً من الراكب)" . ومن الملاحـظ أن هـذا الحديث النبوى الذى يطعن القلهاتى فى صحته هو الذى ذكره عبدالله بن خباب لما طلب منه قتلته أن يروى لهم حديثا سمعه أبوه من النبى صلى الله عليه وسـلم[١] . وهكـذا يتبـين لنا أن هذا المؤرخ والفقيه الإباضى المذكور يتفق مع هؤلاء القتلة فى النظرة إلى ما نطق به عبدالله باعتباره عمى وضلالا ، ولاشك أن هذه النظرة هى التى حملتهم على سفك دمه .

أما بالنسبة لعبد الرحمن بن ملجم المرادى الذى اغتال الإمام على بن أبـى طـالب ، فإن محقق كتاب السير للشماخي يقول عنـه : إنـه شـخص أقحـم فـى المحكمـة (أى أهـل النهروان) إقحاما وزج به فى أوساطهم زجا ، مع أنه مجهـول فـى صفوفهـم ، ويشـير إلى ماقاله المؤرخ الإباضى محبوب بن الرحيل من أنه لم يجد بين الإباضيـة مـن يمدحـه ولا مـن يذمه[٢] .

ويقول على يحى معمر[٣] :"إن الإباضية قد يبرءون من رجل ومـن أعمالـه وأقوالـه ممن لا ينتمى إليهم ، ولكن يقال لهم : بل هذا الرجل من أئمتكم ولو أنكرتم ذلك" .

ونحن نقول : إن الثابت أن ابـن ملجـم كـان مـن الخـوارج ، وأن قتلـه لعلـى لقـى ارتياحا كبيرا من قبل أسلاف الإباضية . ودليلنا على ذلك ما يأتى :-

(أ) أكد القلهاتى[٤] ما ورد فى كثـير مـن المصـادر غـير الإباضيـة مـن أن الشـاعر عمران بن حطان مدح قتل ابن ملجم لعلى بن أبى طالب بقوله :

يا ضربة من تقى ما أراد بها   ألا ليبلغ من ذى العرش رضوانـا

إنى لأذكره حينا فأحسبه   أو فـى البريـة عنـد الله ميزانـــا

---

(١) ابن الجوزى : تلبيس إبليس ، ص٩١ .

(٢) انظر الشماخى : السير ، جـ١ ص٥٤ حاشية رقم ١ .

(٣) الإباضية بين الفرق الإسلامية ، جـ١ ص١٦ .

(٤) الكشف والبيان ، جـ٢ ص٢٥٣ .

ومن الثابت أن عمران بن حطان كان من أشد المخلصين لأبى بلال مرداس ، وأن الإباضية والصفرية كانوا يتولونه ، وذلك على النحو السابق ذكره ، كما أن كلا من الدرجينى[1] والشماخى[2] يذكره ضمن مشاهير الإباضية . وقد نظم بكر بن حماد التاهرتى شعرا عارض به عمران بن حطان جاء فيه :

ذكرت قاتله والدمع منحدر   فقلت سبحان رب الناس سبحانا
أشقى مراد إذا عدت قبائلها   وأخسر الناس عند الله ميزاناً
فلا عفا الله عنه ماتحمله   ولا سقى قبر عمران بن حطانا[3]

(ب) تحدث أبو قحطان خالد بن قحطان[4] ، وهو من علماء الإباضية فى القرن الثالث الهجرى ، عن الإمام على بقوله : "فانسلخ من رحمة الله ، ومن الملك، وبقى مخذولا حتى بعث الله عليه عبد الرحمن بن ملجم ، رحمه الله ، فقتله غضبا لله ثائرا بدم المسلمين" . ويفهم من هذا القول أن ابن ملجم قتل عليا من قبيل الثأر لإخوانه المسلمين (الخوارج) . ولذا استحق الترحم عليه من هذا الإباضى القديم . وقد ردد القلهاتى[5] قول سلفه المذكور بنصه تقريبا .

(ج)يقول الحارثى[6] :"والحاصل أن أهل النهروان قوم قاتلوا مع على يوم الجمل وقاتلوا معه يوم صفين .. فلما حكم أخذهم الغيظ فاعتزلوه ، وقتلهم وقتلوه" . ويفهم من هذا القول أن قتل علىّ كان على يد الخوارج من خلال ابن ملجم . كما لا يخفى الكاتب الإباضى تعاطفه مع ابن ملجم إذ يدافع عنه بقوله : "وكان قتله (الإمام على)

---

(١) طبقات المشايخ ، جـ٢ ص٢٢٦ .

(٢) السير ، جـ١ ص ٧٣ .

(٣) الذهبى : تاريخ الإسلام ، جـ٣ ص٤٠٠ .

(٤) السير والجوابات لعلماء وأئمة عمان ، جـ١ ص١١٥ .

(٥) الكشف والبيان ، جـ٢ ص٢٥٣ .

(٦) العقود الفضية ، ص٨١ .

على يد عبد الرحمن المرادى ، وعدّ ابن حجر العسقلانى هذا من الصحابة . وذكر الإمام الشافعى أنه لا يرى أن ابن ملجم مخطئا فى قتله . لأنه مجتهد ، وكل مجتهد مصيب"(١).

(د) يقول الباحث الإباضى الدكتور صالح بن أحمد الصوافى(٢) : "وقد قتل على ابن طالب – بعد ذلك – قتله عبد الرحمن بن ملجم ، وهو أحد المحكمة".

لم يقتصر ما ارتكبه أهل النهروان على استعراضهم الأهلين وسفك دماء بعضهم على النحو المشار إليه ، وإنما اتهموا الكثير من مخالفيهم بالشرك ، وكان هذا الاتهام هو الأساسى الذى جعلهم يستحلون دماء عبدا لله بن خباب وزوجه . ويذكر الطبرى(٣) أن حكيم بن عبد الرحمن بن سعيد البكائى كان يرى رأى الخوارج ، فأتى عليا ذات يوم وهو يخطب ، فقال : ﴿**ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين**﴾(٤) ، فقال على : ﴿**فاصبر إن وعد ا لله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون**﴾(٥) . وقد أشرنا من قبل إلى ماذكره المؤرخ المذكور من قول قيس بن سعد لأهل النهروان: " ... فإنكم ركبتم عظيما من الأمر ، تشهدون علينا بالشرك ، والشرك ظلم عظيم ، وتسفكون دماء المسلمين ، وتعدونهم مشركين".

وعليّ – من وجهة نظر القلهاتى –(٦) حرم القتال الذى أحله ا لله من معاوية وجنده . ولا شك أن هذا الفعل المنسوب لعلى يدخل ضمن كفر الشرك .

ويشير الدكتور صالح بن أحمد الصوافى(٧) إلى اعتدال أبى بلال مرداس ، لأنه كان ويرى أن ماوقع من خلاف بشأن التحكيم ماكان ينبغى أن يصل بالمسلمين إلى ما وصل

---

(١) الحارثى :نفسه ، ص٤١ .

(٢) الإمام جابر بن زيد ، ص١٠٤ .

(٣) تاريخ الأمم، جـ٥ ص٧٣ .

(٤) سورة الزمر آية ٦٥ .

(٥) سورة الروم آية ٦٠ .

(٦) الكشف والبيان ،جـ٢ ص٢٥٠ .

(٧) نفسه ، ص١٣٦ .

إليه ، وأنه لم ير عليا وحده كان هو المخطىء ، بل أن الكثيرين من الخوارج الذين غلوا واشتدوا قد شاركوا بغلوهم وتشددهم فى الوصول إلى تلك الحالة السيئة والتقاتل الذى أودى بحياة خيارهم .

ومن الملاحظ أن الغلو المشار إليه والذى بدأت تظهر بوادره بين الخوارج على النحو المذكور ، أخذ يتفاقم شيئا فشيئا إلى أن بلغ ذروته على أيدى الأزارقة والنجدات والصفرية ومن على شاكلتهم من فرق الخوارج . ففى أثناء إمارة زياد بن أبيه على العراق (٤٥ -٥٣هـ) خرج قريب وزحاف على رأس سبعين رجلا ، فأخذوا يعيثون فى الأرض فسادا ، ويمرون على المساجد ويقتلون من يصادفونه فيها . يقول خليفة ابن خياط[١] : "فأتوا بنى ضبيعة وهم فى مسجدهم ، فقتلوا رجلا منهم يقال له : رؤبة بن المخبل فقتلوه ... ثم أتوا مسجد بنى قطيعة .. ومالوا على أهل المسجد يقتلونهم ، فوثب القوم الجدر وسعوا إلى الأبواب ، وصعد رجل المنارة فجعل ينادى يا خيل الله اركبى ، فصعدوا إليه فقتلوه حتى لم يبق فى المسجد إلا قتيل ، وهرب من هرب ، وخرجوا يحكمون فى السكة[٢] .. ومضوا ، وأقبل رجل من الحى فى يده السيف نحوهم ، فناداه بعض من أشرف عليه من ظهر البيوت : يا فلان اتق الحرورية ، فقال رجل منهم : لسنا الحرورية ولكنا الحرس ، فأمن الرجل فقاموا حتى انتهوا إليه فقتلوه ، ومضوا حتى دخلوا مسجد المعاول (بطن من الأزد) فقتلوا من فيه ، ثم مضوا حتى خرجوا إلى رحبة بنى على، فخرج عليهم بنو على ، وكانوا رماة بالنبل حتى صرعوهم أجمعين" .

وكان زياد فى أثناء هذه الحوادث غائبا بالكوفة ، فلما عاد إلى البصرة وعلم بما فعله الخوارج غضب أشد الغضب ، وقال مخاطبا من حضره من أهلها : لولا أنكم قد أصبتم فى القوم لبعثت بكم إلى السجن[٣] .

هذا وكان خروج قريب وزحاف بالبصرة فى حياة أبى بلال مرداس . وقد أورد

---

(١) تاريخ خليفة بن خياط ، ص٢١٩ - ٢٢٠ .

(٢) أى خرجوا إلى الشارع يرددون شعار الخوارج "لاحكم إلا لله"

(٣) تاريخ خليفة بن خياط ، ص٢٢١ .

كل من خليفة بن خياط[1] والطبرى[2] رواية مفادها أن أبا بلال كان يقول :"قريب لاقربه الله ، وأيم الله لأن أقع من السماء أحب إلىّ من أن أصنع ماصنع - يعنى الاستعراض".

وهكذا نجد أن قريبا وزحافا وأصحابهما من الخوارج استحلوا دماء المصلين فى المساجد ، واستعرضوا الناس فى الشوارع ، وعلى الرغم من ذلك فإن المصادر الإباضية تشيد بهما وتترحم عليهما وتعتبر ما قاما به جهادا فى سبيل الله . يقول الدرجينى[3] : "وأما قريب وزحاف فإنهما ... خرجا فى سبيل الله ، فقاتلا ، حتى قتلا". كما يصفهما بأنهما كانا من الفضل بمكان". ويلتمس لهما العذر بقوله :"وكانت منهما هفوة كفرتها الشهادة". ويقول أبو قحطان خالد بن قحطان[4] : "خرج قريب والزحاف رحمهما الله ، فلم يدعهما أهل البصرة يخرجان من القرية حتى قتلوهما ومن شاء الله معهما ، قبل أن يخرجا من البصرة".

أما الشماخى[5] فيقول : "ثم خرج قريب الأزدى وزحاف الطائى ..فقتلا - رحمهما الله - بحومة بنى راسب ، عاجلوهما و لم يكونا تهيآ للخروج ، فرموهما من فوق البيوت ومن الأزقة".

ويتضح لنا من أقوال المؤرخين الإباضيين المذكورة أن الأهالى - وليس الجند - هم الذين تصدوا لقريب وزحاف وأصحابهما . ومن الطبيعى أن الأهالى لم يفعلوا ذلك إلا بعد أن تعرضوا للنكال من قبل هؤلاء الخوارج ، وهذا هو ما أكدته المصادر غير الإباضية.

---

(١) نفس المصدر ص٢٢٢ .

(٢) تاريخ الأمم ، جـ٥ ص٢٣٨ .

(٣) طبقات المشايخ بالمغرب ، جـ٢ ص٢٣٣ .

(٤) السير والجوابات ، جـ١ ص١١٩ .

(٥) السير ، جـ١ ص٥٩ - ٦٠ .

وهكذا نرى أن حركة قريب وزحاف لم تكن موجهة ضد حكومة بنى أمية فحسب ، وإنما أيضا ضد كل المخالفين للخوارج من أهل القبلة ، وهذا هو الاستعراض الذى تفاقم على أيدى الأزارقة ومن على شاكلتهم من فرق الخوارج فيما بعد .

٨- من الملاحظ أن آراء الإباضيين المحدثين بالنسبة للصحابة الكرام تختلف عن آراء أسلافهم ، فقد كتب على يحى معمر[١] فصلا بعنوان "آراء الإباضية فى الصحابة" بدأه بالإشارة إلى ما أسماه بالدعاية التى سلطها المغرضون للإباضية والإشاعات التى يطلقونها زاعمة أنهم يكرهون الصحابة أو بعض الصحابة ، وعرض نماذج من أقوال علماء الإباضية فى هذا الصدد ، ثم ختمه بتعليق ضمنه رأيه فى وجوب تبجيل الصحابة ، ووصف كل من يبغضهم باللؤم والعصيان .

وكانت تهمة بعض الصحابة موضوعا رئيسيا فى المراسلات التى تمت بين علماء الإباضية المحدثين بالمغرب وبعض مواطنيهم الذين يخالفونهم فى المذهب . ومنها رسالة لابن مهدى عيسى بن اسماعيل ، شيخ عزابة[٢] بنى مصعب يرد فيها على أبى على ابن الحسن البهلولى ، ومما جاء فيها :"فنبدأ بمسألة الصحابة رضوان الله عليهم ، وذلك قولك: بلغنا عنكم أنكم تبغضون بعض الصحابة ، فيا سبحان الله ! كيف نبغض الصحابة مع ورود النصوص فى فضائلهم ، والثناء عليهم كتابا وسنة ، يأبى الله ذلك والمسلمون ، بل هم عندنا فى الحالة التى ذكرهم الله عليها من العدالة والنزاهة والطهارة والثناء . قال عز وجل : ﴿**كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله**﴾[٣] الأية و ﴿**محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا**﴾[٤] الآية ﴿**ولقد رضى الله عن**

---

(١) الإباضية بين الفرق الإسلامية ، حـ٢ ص٣٩ - ٥٢ .

(٢) العزابة هى الهيئة الدينية التى تمثل الإباضية فى منطقة من المناطق

(٣) سورة آل عمران آية ١١٠ .

(٤) سورة الفتح آية ٢٩ .

المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة﴾[1] الآية ، إلى غير ذلك من الآيات . وهم بالحالة التي وصفهم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذ قال : "إن الله قد اختار لى أصحابا ، فجعل لى منهم أصهارا وأختانا ، فمن سبهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين". وقال أيضا : "لاتؤذونى فى أصحابى فلو أنفق أحدكم ملء الأرض ذهبا ما بلغ مدّ أحد هم ولا نصيفه " . وقوله صلى الله عليه وسلم : "عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين من بعدى " . وقال أيضا : "أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم" وغير ذلك من المديح والثناء عليهم ، اللهم زدنا حبهم واحشرنا فى زمرتهم ، يا أرحم الراحمين" .

ومنها رسالة لمحمد بن أبى القاسم المصعبى يرد بها على بعض من تناول الإباضية فى الجزائر بغير الحق . ومما جاء فيها :"واعتقادنا فى الصحابة رضى الله عنهم أنهم عدول وأنهم أولياء الله وحزبه ، ألا إن حزب الله هم المفلحون .. وأما ما وقع بينهم من الحرب فإن الله طهر منها أيدينا ، ونحن نطهر منها ألسنتنا ، لقوله صلى الله عليه وسلم:"إذا ذكر أصحابى فكفوا" .

ومنها رسالة لأبى إسحق ابراهيم أطفيش ردّ فيها على أحد من راسلوه بقوله:"أما ما زعمت من شتم أهل الاستقامة (الإباضية) لأبى الحسن على (بن أبى طالب) وأبنائه فمحض اختلاق .. أما الصحابة فلهم مزية عظيمة ، هى مزية الذبّ عن أفضل الخلق ، وإراقة دمائهم فى سبيل إعلاء كلمة الله تعالى ، فيختار الكف عن تلك الحوادث المشئومة.. ولا غبار على من صرح بخطأ المخطىء منهم بدون الشتم والثلب بعد التثبت من ذلك والتبين ، وإن أمسك - لعموم الأحاديث الواردة فيهم - وترك الأمرلله فهو محسن" .

كما يورد على يحى معمر[2] ما ذكره الدرجينى فى كتابه الطبقات عن الصحابة . ومما جاء فيه : "الطبقة الأولى هم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأفضليتهم

---

(١) سورة الفتح آية ١٨ .

(٢) الإباضية بين الفرق الإسلامية ، جـ٢ ص٤٠ - ٤١ .

أشهر ، وأسماؤهم ومزاياهم أظهر، وحسبهم ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يشقى من رآنى ... فإذا ثبت هذا ، فاعلم أن من الصحابة من لم يخالفنا فى تقدمهم مخالف ، فقد امتلأت بذكر فضائلهم الصحائف . ومنهم لم ينل حظا من الإنصاف عند أهل الخلاف ، وهم عندنا (الإباضية) فى جملة الأكابر الأسلاف".

كذلك أورد معمر[1] قولا لأحد علماء الإباضية اسمه أبو الربيع سليمان الجيلاتى جاء فيه : "وأما الإنكار على بعض الصحابة فكذب وفرية علينا". بالإضافة إلى أبيات من قصيدة نظمها أبو حفص عمرو بن عيسى التدمرى منها :

سوى أن ما بين الصحابة قد جرى	فإن التماس العذر فى ذاك أسلم
ولا تقف أمرا لست تعلم علمه	ولا تتهور فالتوقف أسلم
وقد صدرت منهم أمور لعلها	لها حكمة مجهولة ليس تفهم

ويمضى أبو الربيع فى توكيد قوله بالاستدلال بقصة إخوه يوسف عليه السلام ، فإن اتفاقهم على قتله ، وإلقائه فى الجب للتخلص منه ، وكذبهم على أبيهم ، وما تبع ذلك ليس من الأعمال الهينة فى الحكم الظاهر ، ولكن الله تبارك وتعالى مع ذلك لم يؤاخذ إخوة يوسف وغفر لهم ما ارتكبوه .

وكان سعيد الثعاريتى هو آخر من نقل عنه يحى معمر مقتطفات مما قاله عن الصحابة فى كتابه "المسلك المحمود" . ومما جاء فيه :"والعجب كل العجب مما نسبه الشيخ مصفى بن كامل الطرابلسى إلينا تجاهلا وظلما وتسلطا وشتما حتى أطال سنان لسانه ، وقال: كفروا عليا - بزوره وبهتانه ، مع أن اعتقادنا فى الصحابة رضى الله عنهم أنهم عدول أتقياء ، بررة أصفياء ، قد اختارهم الله من بين الأنام ، لصحبة نبيه عليه الصلاة والسلام .

وكيف يجوز لمن يؤمن بالحىّ الذى لا ينام ، أن يكفر صهر نبيه عليه السلام ، الذى لم يسجد قط للأصنام" ؟

---

(١) نفسه ، ص٤٢ .

وقد ختم معمر[1] هذا الفصل الذي كتبه عن رأي الإباضية في الصحابة بقوله "ولا شك أن أدنى أولئك الجمع منزلة هو أجل وأعظم وأشرف من أعلانا منزلة ، وأرفعنا مقاما ... وإذا لجّ بأحد العناد ، فلا أقل من أن يقتدى بصاحب رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم عبدا لله بن عمر حين سئل عن أميرى المؤمنين عثمان وعلى ، فتلا على السائل قوله تعالى : ﴿**تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ماكسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون**﴾ ، أو يستمع إلى كلمة أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز حين سئل عما شجر بين الصحابة ، فقال كلمته الرائعة : "تلك دماء طهر ا لله منها أيدينا فلا نلوث بها ألسنتنا" ... وبعد عدة أسطر يقول الكاتب المذكور :"فإنه لا ألأم ولا أشد كفرانا ومعصية من إنسان يتطرق إلى قلبه شيء من بغض من أحبه ا لله ورسوله" .

على أن ما أورده على يحى معمر عن رأى الإباضية فى الصحابة على النحو المذكور لا ينطبق إلا على المعاصرين منهم ، أما أسلافهم فيختلف موقفهم عن هؤلاء تماما، ودليلنا على ذلك ما يأتى :

(أ) – إن على بن أبى طالب – فى نظر فقهاء الإباضية – استحق الخلع من الإمامة لإصراره على التحكيم ، وتوبته ثم نكثه ، واستمراره على هذا النكث[2] . ولا يمكن لمرتكب الكبيرة كما يقول على يحى معمر[3] أن يدخل الجنة فى حالة إصراره عليها وعدم توبته . إذ لا خلاف عند الإباضية على أن كافر النعمة إذا مات دون أن يتوب عن الكبيرة يكون مخلدا فى النار ، لأن الكبيرة التى ارتكبها و لم يتب منها أو لم يقم عليه حدها تحبط كل الطاعات التى قام بها[4] . وبناء على ذلك فلابد أن يكون عليا – من وجهة نظر هؤلاء – من المخلدين فى النار .

---

(١) الإباضية بين الفرق الإسلامية ، جـ٢ ص٥٢ .

(٢) انظر الحارثى : العقود الفضية ، ص٥٠ .

(٣) نفسه ، ص١٤٠ .

(٤) جميل بن خميس السعدى : قاموس الشريعة : جـ٦ ص٣ .

هذا ويتهم القلهاتى[1] عليا بأنه حرم ما أحله الله من قتال الفئة الباغية . ولا شك أن هذا يعتبر فى نظر الإباضية كفر شرك وليس كفر نعمة . ويؤيد نظرة هذا الفقيه الإباضى بالنسبة لعلى بن أبى طالب عالم إباضى قديم ، هو أبو قحطان خالد ابن قحطان[2] ، حيث يقول "فانسلخ (الإمام على) من رحمة الله ومن الملك ، وبقى مخذولا حتى بعث الله عليه عبد الرحمن بن ملجم - رحمه الله - فقتله غضبا لله ثائرا بدم المسلمين (الخوارج)" .

وقد سبق القول بأن عمران بن حطان امتدح ابن ملجم واصفا قتله لعلىّ بأنه ما أريد به إلا وجه الله ، وأن هذا الشاعر ارتقى فترة من الزمن مكان الصدارة بين الإباضية فى أثناء ولاية الحجاج بن يوسف الثقفى (٧٥ - ٩٥ هـ) .

كما أورد الشماخى[3] روايات تؤكد أن الإمام على بن أبى طالب من أهل النار نسبها إلى السيدة عائشة والحسن بن على . ويذكر المؤرخ المذكور أنه نقل هذه الروايات عما أسماه بكتاب النهر ، إذ جاء فيه "حدثنى مسعود بن عبدالله بن شداد أنه قدم المدينة، فأرسلت إليه عائشة ، فقالت يا عبدالله : أقتل علىّ أصحابه ؟ ، فحدثها بالقصة كلها . فقالت : ظلمهم". ولما علمت منه بمقتل زيد بن حصين الطائى ، بكت وقالت : "والله لو اجتمعت الأمة على الرمح الذى طعن به زيد لكان حقا على الله أن يكبهم جميعا فى النار". ومما جاء فى الكتاب المشار إليه أيضا :" وتلقاه ابنه الحسن حين دخل الكوفة فقال: يا أبت أقتلت القوم ؟ قال : نعم . قال : لا يرى قاتلهم الجنة " .

ويقول صاحب كتاب بيان الشرع[4] ، وهو من الإباضية الذين عاشوا فى القرن الخامس الهجرى ،: "ويقال إنه (أى علىّ) دخل على ابنته أم كلثوم فهنأته بالظفر بهم (أهل النهروان) فقال على : أصبح أبوك من أهل النار إن لم يرحمه الله".

---

(١) الكشف والبيان جـ٢ ص٢٥٠ .

(٢) السير والجوابات لعلماء وأئمة عمان ، جـ١ ص١١٥ .

(٣) السير ، جـ١ ص٥٢ - ٥٣ .

(٤) انظر الحارثى : العقود الفضية ، ص ٨٠ .

ويشير على يحى معمر[1] إلى أن جميع المواقف والأحداث التى وقعت بين الصحابة فى عصر الراشدين كان القائمون عليها من الجانبين طلاب حق سواء أخطأوا فيه أم أصابوا ، وأن استمساك كل طرف بموقفه إنما يعنى استمساكا بما يدين ويتقرب به إلى الله تعالى وليس استمساك عصبية أو رغبة فى الدنيا . إلا أن الكاتب المذكور نقل فى كتابه نبذة عن الخوارج لأبى إسحق أطفيش يقول فيها :"إن أهل النهروان لما وقع اختيارهم على عبدالله بن وهب الراسبى ليكون إماما بعثوا إلى أصحابهم يومئذ ، ومنهم الإمام على ، أن يدخلوا فى البيعة لمن اختاروه إماما "فرأى على بن أبى طالب أن البيعة حصلت لأزدى لا لقرشى ، فحاربهم قبل أن يتقوى أمرهم فتخرج الإمامة إلى غير قرشى، وهذا هو السبب الوحيد لواقعة النهروان[2] .

ومن الملاحظ أن قول أطفيش المذكور يتعارض تماماً مع القول بأن الصراع الذى حدث بين الصحابة لم يكن استمساكا بعصبية أو رغبة فى الدنيا ، ومع ذلك نقله على يحى معمر على النحو المشار إليه فى كتابه دون أى اعتراض أو تعليق ، بل نجده هو نفسه حين يتحدث عن صلح الحسن بن على مع معاوية يقول:"وقرر (الحسن) فى داخل نفسه أن يوقف الصراع المرير بين الهاشمية والأموية ، وأن يحقن دماء المسلمين" .

كما أن على يحى معمراتهم صراحة طلحة والزبير ومعاوية وأتباعهم بأن حركتهم لم يكن لها أسباب ظاهرة معقولة ، أما أسبابها الحقيقية فهى النزاع على مناصب الدولة من خلافة وعمالة ، وذلك على عكس من ثاروا على عثمان ومن ثاروا على الإمام على بسبب إنكار التحكيم ، فإنهم استندوا إلى أسباب ظاهرة يتراءى للناظر أنها معقولة[3] .

بل إن القلهاتى[4] يتهم عليا بأن حرصه كان منصبا على الاحتفاظ بالملك سواء فى

---

(١) الإباضية بين الفرق الإسلامية ، جـ٢ ص١٦٩ .

(٢) نفسه ، ص٢٧٨ .

(٣) الإباضية فى موكب التاريخ ، الحلقة الأولى ، ص٢٨ .

(٤) الكشف والبيان ، جـ٢ ص٢٤٠ .

صراعه مع معاوية أو مع أهل النهروان . ويفهم ذلك من قول المؤرخ المذكور :"فلما بلـغ معاوية خروج أهـل النهـروان مـن معسـكر علـيّ ، كتـب إليـه أنـه بلغنـى أن طائفـة مـن أصحابك خالفوك وخرجوا من عسكرك ، وقد تعلـم أن الأمـر بيننـا لا يتـم إذا كـان لـه منازع ، فإن كان ذلك منهم من غير رأيك وأحببت أن أكفيكهم فعلت . فأراد على أن يولى ذلك منهم معاوية ، فأشار إليه أهل رأيه قـالو : إن صـار معاويـة يدخـل عليـك فـى بلادك ويقتل أصحابك قوى عليك ، ولكن عـاجل القـوم وبـادرهم قبـل اجتمـاعهم فـى الأمصار".

كما أن الشماخى[1] يتهم عليا بأنه كان يلجأ إلى الكذب والخداع لتحقيق مآربـه، فيشير إلى أنه بعد أن فرغ من معركة النهروان "قيـل لـه : قتلـت قومـا وأظهـرت الندامـة عليهم وطفقت تمدحهم وتزين أمرهـم ، لتخلعن و لتقتلن . فلما أصبـح قـال : ابتغـوا فـى القتلى رجلا ، فوجدوا نافعا مولى ترملة صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكـان صالحا مجتهـدا قطـع الفحـل يـده ، فقـال : هـذا هـو (يقصـد الرجـل الأسـود الموصـوف بعلامات فى حديث المروق منها قطع يده) . فقال له الحسن : هذا نافع مـولى ترملـة " ، فنهره على وقال له : اسكت . أى أن عليا كان يريد أن يدخل فـى روع النـاس أن أهـل النهروان هم المقصدون بحديث المروق السابق الإشارة إليـه ، فتـذرع بوجـود جثـة المـولى المشار إليه بين قتلى النهروان .

(ب) – وبالنسـبة لـذى النوريـن عثمـان بـن عفـان نجـد أن وزارة الـتراث القومـى والثقافة بسلطنة عمان نشرت مؤخرا بعض المؤلفات لعلماء وأئمة إباضيين ورد بها الكثـير من الطعن علـى هـذا الخليفـة المفـترى عليـه . ومـن الطبيعـى أن كـل مـا تنشـره الـوزارة المذكورة، أو أى مكتبة بسلطنة عمان ، يكون مرضيا عنه من قبل الإباضية ، وإلا مـا سمح بنشره .

ومن بين الكتب التى صورت الصحابى الجليل عثمـان فـى أبشـع صـورة ، كتـاب "الكشف والبيان" الذى كتب على غلافـه "تـأليف الشـيخ العـالم أبـى عبـدالله بـن سـعيد

---

(١) السير ، جـ١ ص٥٣ .

الأزدى القلهاتى" . ومما جاء فى الجزء الثانى من هذا الكتاب فى حق عثمان ما يلى :

* - أحدث أحداثا أنكرها المسلمون ... من تعطيل الحدود ... وتحريفه لكتاب الله[1] . وقد علقت محققة هذا الكتاب ، وهى الأستاذة الدكتورة سيدة إسماعيل كاشف، على تهمة تحريفه لكتاب الله فى الحاشية رقم ٦ بما يفيد تأكيدها وليس نفيها ، مستندة إلى ماجاء فى رسالة عبدالله بن إباض إلى الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان . علما بأن نص هذه الرسالة لم يرد إلا فى المصادر الإباضية ، أولئك الذين يتولون قتلة عثمان ويعتبرونهم من أسلافهم البررة .

* - "وبلغنا أن عبدالله بن مسعود رضى الله عنه ذكر حديثا قاله النبى صلى الله عليه وسلم لقوم فيهم عثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود ، وكانوا يتذاكرون أمر الدجال ، فقال لهم النبى صلى الله عليه وسلم : فيكم من هو أشد على أمتى من الدجال وأعظم فتنة . وكان عثمان هو المقصود بذلك كما فهم من كلام ابن مسعود"[2] .

*- "وخرجت عائشة رضى الله عنها بمصحف كان معها وهى تقول: أشهد بالله أن عثمان كفر بما فى هذا المصحف"[3] .

*- "عن داود بن الحصين : قال محمد بن مسلمة الأنصارى ، قال : يوم قتل عثمان ما رأيت يوما قط أقر للعيون ، ولا أشبه بيوم بدر من هذا اليوم[4] .

*- "فإن زعم أهل الشك (مخالفو الإباضية) أنهم يمنعهم من الشهادة عليهما (عثمان وعلى) بفعلهما ، سابقتهما ومنزلتهما وقربهما من رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنهما فى الجنة وأتباعهما فى النار ، قيل لهم : إن عليا وعثمان قادا الناس إلى

---

(١) نفسه ، ص٢٠٧ .

(٢) نفسه ، ص٢١١ - ٢١٢ .

(٣) نفسه ، ص٢١٤ .

(٤)نفسه ، ص٢١٧ .

طاعتهما ، فسمع الناس لهما وأطاعوهما ، وقتل من اتبعهما على مثل دينهما ومنهاجها ورأيهما . فكيف يكونا هما فى الجنة والأتباع فى النار ؟ لو كان هذا حكم البشر لكان جورا ! فكيف يفترون على ربهم والله أعدل من ذلك !! بل الأتباع مع القادة والقادة مع الأتباع ، ويحمل القادة من أوزارهم وأوزار الذين يضلونهم بغير علم ﴿**ألا ساء ما يزرون**﴾[1] ، فليتقى [2] الله أهل الشك ولا يقولون على الله ولا على كتابه ولا على المسلمين إلا حقا"[3] .

ومن الكتب التى نشرتها أيضا وزارة التراث القومى والثقافة فى سلطنة عمان ، كتاب "السير والجوابات لعلماء وأئمة عمان" الذى نشر فى سنة ١٩٨٦ ، وقامت بتحقيقه أيضا الدكتورة سيدة إسماعيل كاشف . ومما جاء فى الجزء الأول منه فى حق عثمان بن عفان وغيره من الصحابة الكرام ما يلى :

*- "فلما امتنع (عثمان) من التوبة ... وظهر كفره فى الدار والدعوة ، ولم يرتب أحداً من المسلمين فى قتاله ، فقاتلوه فظفرهم الله به فهزموا أصحابه ، فقتلوه خليعا من الإيمان خارجا منه بحكم القرآن ، لأن المسلمين إنما قتلوه بحكم كتاب الله[4] ، ولأن الله يقول : ﴿**فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون**﴾[5]

*- "واستقام الأمر لمعاوية وظهرت دعوة أهل البغى وطفئت دعوة أهل الحق (الخوارج) ، فلما خلص له الملك قبض الله روحه منافقا لعينا"[6] .

*- "وصحبه (أى معاوية) عمرو بن العاص اللعين"[7] .

---

(١) الأنعام آية ٣١ .

(٢) وردت فى الأصل هكذا "فليتقوا" .

(٣) نفسه ، ص ٢٢٧ - ٢٢٨ .

(٤) السير والجوابات ، حـ١ ص ١٠٣ .

(٥) التوبة آية ١٢ .

(٦) نفسه ، ص ١٦٦ .

(٧) نفسه ، ص١١٠ .

*- "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما سمعنا -والله أعلم- : "يبعث فى أمتى حكمان ضالان مضلان يضلان من اتبعهما" . وكان أبو موسى الأشعرى ممن يروون هذا الحديث ، فلم ينتفع بروايته للسابق فى علم الله . وكان أبو موسى أحد الحكمين، نعوذ بالله من الضلال بعد الهدى"(١) .

*- "وقد اعتزل من الحرب أناس منهم عبد الله بن عمر وسعد بن أبى وقاص ووقفوا لما وقع القتال ، فلم يكونوا مع على ولا عليه منذ قتل عثمان ، فمن المسلمين (الإباضية) من وقف عنهم (أى عن توليهم) ومنهم من تبرأ"(٢) .

وهكذا نرى أن الإباضية يتبرءون من مخالفيهم من الصحابة ، حتى الذين ارتأوا صلاح دينهم فى الابتعاد عن الفتنة فلم ينحازوا إلى أحد طرفيها ، لأن هؤلاء كان يتوجب عليهم - فى نظر الإباضية - أن يتبرءوا من الفئة الباغية(٣) .

كذلك نشرت وزارة التراث القومى والثقافة بسلطنة عمان فى سنة ١٩٧٩ كتابا بعنوان "إزالة الوعثاء عن أتباع أبى الشعثاء" من تأليف أحد مشايخ الإباضية المعاصرين ، وهو سالم بن حمود السيابى . وقد احتوى على نص لرسالة عبد الله بن إباض إلى الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان(٤) . ومما جاء فى هذه الرسالة :

"ومن عمل عثمان أنه يحكم بغير ما أنزل الله . وقد خالف سبيل رسول الله صلى الله عليه وسلم وسبيل صاحبيه ، وقال الله عز وجل : ﴿**ومن يشاقق الرسول من بعد ماتبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ماتولى ونصله جهنم وساءت مصيرا**﴾(٥). وقال ﴿**ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون**﴾(٦) . وقال :

---

(١) السير والجوابات ، ج١ ص١١٠،١١١ .

(٢) نفسه ، ص ١١٠ .

(٣) نفسه ، ص١٣٤ .

(٤) ص ٨٦-١٠١ .

(٥) النساء آية ١١٥ .

(٦) المائدة آية ٤٥ .

﴿ألا لعنة الله على الظالمين﴾[1] . وقال : ﴿ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا﴾[2] . وكل هذه الآيات تشهد على عثمان ، وإنما شهدنا عليه بما شهدت هذه الآيات ... فمن يتولى عثمان ومن معه فإنى أشهد الله وملائكته أنى برئ منهم ، أعداء لهم بأيدينا وألسنتناوقلوبنا ، نعيش على ذلك ونموت عليه إذا متنا ، ونبعث عليه إذا بعثنا ، ونحاسب بذلك عند الله"[3] .

وغنى عن البيان أن رأى عبد الله بن إباض المذكور فى عثمان بن عفان يمثل الرأى الحقيقى للإباضية بالنسبة لهذا الصحابى الجليل ، لأن ابن إباض هو إمام الإباضية ومؤسسها . وعلى الرغم من وضوح بغضه لعثمان على النحو المشار إليه إلا أن أحدا من الإباضية لاينكر عليه ذلك ، بل على العكس نجد كتبهم مليئة بالإشادة به . فعلى الرغم من أن على يحى معمر كتب فصلا عن رأى الإباضية فى الصحابة ملأه بأقوال لعلماء الإباضية المحدثين ، تفيد بأن الصحابة كلهم أتقياء بررة أصفياء اختارهم الله من بين الأنام لصحبة نبيه عليه السلام ، واعتبر بغضهم لؤما وكفرانا . إلا أن الكاتب المذكور تغاضى -فيما يبدو- عما أظهره ابن إباض من بغضه الشديد لعثمان بن عفان ، بدليل أنه لم ينكر عليه ذلك ، بل إنه يثنى عليه ويشيد به فى أكثر من موضع من كتابه[4] ، ويشاركه فى هذا الثناء كل الكتاب الإباضيين الذين تيسر لى الاطلاع على مؤلفاتهم ، ولم ينكر هؤلاء تأسيس ابن إباض لدعوتهم إلا لأن اسمه ارتبط بحركة الخوارج فى المصادر التاريخية ، ومع ذلك فهم يعتبرونه من أئمتهم ويشيدون به .

(ج) تورد المصادر الإباضية[5] جواب أهل النهروان على رسالة للإمام على بن أبى طالب إليهم . ومما جاء فيها : "بسم الله الرحمن الرحيم . من إمام المسلمين عبد الله ابن

---

(١) هود آية ١٨ .

(٢) النساء آية ٥٢ .

(٣) انظر : نفسه ، ص ٩٢ ، ٩٦ .

(٤) الإباضية بين الفرق الإسلامية ، حـ١ ص ٨٩ ،٩٦ .

(٥) انظر القلهاتى : الكشف والبيان ، ج٢ ص ٢٤١ ، والحارثى : العقود الفضية ، ص٤٩ .

وهب الراسبى وزيد بن حصين ، ومن معهم من المسلمين إلى على بن أبى طالب الخالع لنفسه : سلام على من اتبع الهدى وتجنب متالف الردى . أما بعد . بلغنا كتابك تذكر فيه أن الحكمين نبذا كتاب الله ، وحكما بغير ما أنزل الله ، وقد علمنا ، فالحمد لله أن أمرهما كان مخالفا للحق من أوله ، وأنت بتحكميك إياهما أعظم جرما منهما ... " .

ومن الثابت أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يكن يستخدم عبارة "سلام على من اتبع الهدى" إلا فى مكاتباته مع غير المسلمين . ولذلك نعتقد أن استخدام أهل النهروان هذه العبارة فى ردهم على الإمام على له دلالته الواضحة . كما أن الملاحظ أن هؤلاء اعتبروا عليا أعظم جرما من الحكمين ، وهذان يشار للواحد منهما فى بعض المصادر الإباضية بكلمة "اللعين" ، كما يوصفان بالضلالة على النحو الذى سبقت الإشارة إليه .

ويذكر الدكتور صالح بن أحمد الصوافى[1] أن أهل النهروان ، وعلى رأسهم عبد الله بن وهب الراسبى ، خطأوا عليا ومعاوية دون تكفيرهما . علما بأنه لم يشر إلى المصدر الذى اعتمد عليه فى هذا الصدد . كما نلاحظ أن الباحث المذكور نقل جواب أهل النهروان على الإمام على طبقاً لرواية الطبرى ، ولكنه أسقط منها مايفيد اتهامهم إياه بالكفر . يقول الدكتور الصوافى : "على أن رواية أخرى لمضمون الرسالة (ردّ أهل النهروان على الإمام على) أوردها الطبرى ، حيث يذكر أنهم كتبوا إليه : أما بعد ، فإنك لم تغضب لربك ، وإنما غضبت لنفسك ، (**فإن شهدت على نفسك**)[2] واستقبلت التوبةنظرنا فيما بيننا وبينك ، وإلا فقد نابذناك على سواء ، إن الله لايحب الخائنين" . والثابت أن الذى جاء فى الرواية المذكورة هو : "**فإن شهدت على نفسك بالكفر...**"[3] .

كما نقل الصوافى[4] رواية أخرى للطبرى تتعلق بالحديث الذى دار بين الإمام

---

(١) الإمام جابر بن زيد ، ص١٥٢ .

(٢) نفسه ، ص١٢١ .

(٣) تاريخ الأمم ، ج٥ ص٧٨ .

(٤) نفسه ، ص١٢١ .

وأهل النهروان قبيل القتال الذى وقع بينهما فى سنة ٣٨هـ . ومن الملاحظ أنه بدل أيضا بعض الكلمات التى تتعلق باتهامهم عليا بالكفر ، مثل عبارة "قالوا له : إنا حيث حكمنا الرجلين أخطأنا بذلك" . ونصها الوارد عند الطبرى(١) هو : "قالوا إنا حكمنا ، فلما حكمنا أثمنا ، وكنا بذلك كافرين" . ومثل عبارة "وأشهد على نفسى بالخطأ" . وصحتها: "وأشهد على نفسى بالكفر" .

وهكذا يتبين لنا أن بعض المؤلفات الإباضية ليست فوق مستوى الشبهات . ومما يؤيد ذلك أن على يحى معمر قال فى معرض نفيه لوجود فرقة إباضية اسمها "الحارثية" : إنه لايوجد عند الإباضية أى ذكر لمؤسس هذه الفرقة وهو "الحارث" . وقد لفت نظرنا أن اسم هذا الرجل ورد فى واقعة ذكرها الشماخى(٢) فى كتابه السير (الطبعة الحجرية الجزائرية) حيث يقول : "وجمع حاجب وأبو عبيدة الناس فقالا : إن حمزة وعطية والحارث أحدثوا علينا ، فمن آواهم فهو الخائن المتهم". ولكن اسم "الحارث" أسقط فى طبعة وزارة التراث القومى والثقافة بسلطنة عمان لكتاب السير سنة ١٩٨٧ ، حيث أن الوارد بصدد الواقعة المشار إليها هو : " .....إن حمزة وعطية أحدثا علينا أحداثا ، فمن آواهم وأنزلهم أو جالسهم فهو عندنا الخائن المتهم ، فتفرق الناس وطردامن المجلس"(٣) علما بأن رواية الدرجينى(٤) لنفس الواقعة تتفق مع ماجاء بصددها فى كتاب السير فى طبعته الحجرية بالجزائر ، من حيث تضمنها لاسم "الحارث" . يقول المؤرخ المذكور:"...إن حمزة وعطية والحارث أحدثوا علينا أحداثا ، فمن آواهم أو جالسهم فهو عندنا الخائن المتهم . قال : فتفرق الناس وطردوهم من المجالس و لم يقربهم أحد" .

(د) يشكك الإباضية فى أحاديث العشرة المبشرين بالجنة ، فى الوقت الذى يؤكدون أن النبى صلى اله عليه وسلم بشر بعض أسلافهم بالجنة ، مثل حرقوص بن زهير السعدى .

---

(١) تاريخ الأمم ، ج٥ ص٨٤ .

(٢) السير ، ج١ ص١٢٠ (الطبعة الحجرية بالجزائر) .

(٣) السير ، ج١ ص ٧٩ (طبعةوزارة التراث بسلطنة عمان) .

(٤) طبقات المشايخ بالمغرب ، ج٢ ص٢٤٤ .

فيقول الحارثى[1] : "وأفضل الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر وعمر ويقطع لهما بالجنة ، و لم يثبت مع علماء الإباضية أحاديث القطع بالجنة للعشرة المبشرين بالجنة ، وهى على كل حال أحادية" .

ويذكر الشماخى[2] أن السيدة عائشة لما علمت بمقتل حرقوص بن زهير السعدى فى معركة النهروان استرجعت وقالت : "أشهد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان فى منزلى فقال ياعائشة : أول رجل يدخل من هذا الباب من أهل الجنة . فدخل حرقوص ولحيته تقطر ماءً ، وقال ذلك فى اليوم الثانى ، فدخل ، وكذلك فى اليوم الثالث" .

على أنه يطيب لى فى الختام أن أسجل -بكل الارتياح والانشراح- مالوحظ من ثناء مفكرى الإباضية المحدثين على الصحابة الكرام بوجه عام ، وعلى ذى النورين عثمان والإمام علىّ بوجه خاص ، وآمل أن يزداد ذلك تأكيدا على مرّ الأيام . ذلك لأننى عشت فى سلطنة عمان بضع سنين ، ولازلت أعيش ، وقد لاحظت أن الإباضية فى هذا البلد الطيب متمسكون بأهداف الدين الإسلامى الحنيف ، ولايشوب إسلامهم -من وجهة نظرى- أية شائبة ، اللهم إلاّ السكوت عما يرونه فى كتب تراثهم من قدح فى بعض كبار الصحابة ، وخاصة عثمان وعلىّ اللذين يحكمون عليهما بالخلود فى النار على النحو الذى أوضحناه ، على الرغم من أنهما من بين العشرة الذين توفى رسول اله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض .

كما أنه وإن كان الإباضيون القدماء يحبذون الثورة على الإمام الظالم من وجهة نظرهم مهما كانت النتائج ، ويصفون مخالفيهم فى المذهب بالعمى والضلال إذا قالوا : "إنا لانقدر على إزالة الإمام الجائر الفاسق الظالم إلا بفتنة عظيمة وحروب تأتى على الأموال والأنفس ، وأن استبقاءه على ظلمه وغشمه أولى ، لأنا إذا خالفناه أو حاربناه كنا كمن يبنى قصرا ويهدم مصرا"[3] .

---

(١) العقود الفضية ، ص٩١ .

(٢) السير ، ج١ ص ٥٣ .

(٣) القلهاتى : الكشف والبيان ، ج٢ ص٢٩٩ .

– إلاّ أن بعض مفكرى الإباضية المحدثين[1] يقولون : إن الثورة على الحكم الظالم من أوكد الواجبات على الأمة المسلمة إذا لم تخش شرا أكبر ، وإن عزل الإمام الظالم أو قتله إذا أدى إلى الفتنة ارتكب أخف الضررين . وفى ضوء هذا الخط الفكرى المتميز للإباضية المحدثين من حيث تبجيل الصحابة وعدم محاولة الإطاحة بالإمام إذا ترتب على ذلك ضرر أكبر – يمكن القول بأن سفك دم ذى النورين عثمان كان غلطة كبيرة ، نشأ عنها فتنة كبرى أضرت بالمسلمين وقسمتهم شيعا وأحزابا .

---

(١) على يحى معمر : الإباضية بين الفرق الإسلامية ، ج١ ص١٨٨ ، وج٢ ص٢٩٦ .

الملاحق



كتاب

عبد الله بن أباض إلى الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان

بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله بن إباض إلى عبد الملك بن مروان . أما بعد سلام عليك . فإنى أحمد اليك الله الذى لاإله إلا هو . وأوصيك بتقوى الله فإن العاقبة للتقوى والمرد إلى الله . واعلم أنه انما يتقبل الله من المتقين . وقد جاءنى كتابك مع رسولك سنان بن عاصم ، وإنك كتبت إلى أن أكتب لك بكتاب ، فكتبته اليك . فمنه ماتعرف ومنه ماتنكر ، ولكن الذى تنكره ليس عند الله بمنكر . وأما ماذكرت من عثمان وما عرضت به من شأن الأمة ، فإن الله ليس ينكر عليه أحد شهادته فى كتابه الذى أنزل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم . أن من لم يحكم بما أنزل الله ﴿**فأولئك هم الظالمون**﴾[1] ، والفاسقون[2] ، والكافرون"[3] . ثم إنى لم أكن أذكر لك من شأن عثمان شيئا إلا والله تعلم أنه حق . وسأنزع لك من ذلك البينة من كتاب الله ، وسأخبرك خبر عثمان الذى طعنا عليه فيه ، وأبين شأنه وأمره . لقد كان عثمان كما ذكرت من قدمه فى الاسلام ، ولكن الله لم يجر العباد من الفتنة ، وذلك أن الله بعث محمدا صلى الله عليه وسلم، وأنزل عليه الكتاب وبين له فيه كل أمر، وفصل فيه كل حكم ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه . وجعله هدى ورحمة لقوم يؤمنون[4] . فأحل فيه حلالا وحرم فيه حراما وحكم أحكاما وفرض فرائض وحدودا . فقال : (تلك حدود الله فلا تقربوها)[5] .

---

(١) سورة المائدة ، آية ٤٥ .

(٢) نص الآية (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون) "سورة المائدة" آية ٤٧ .

(٣) نص الآية (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) "سورة المائدة" آية ٤٤ .

(٤) نص الآية (ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون) سورة الأعراف" آية ٥٢ .

(٥) سورة البقرة آية ١٨٧ .

وقال : ﴿**تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون**﴾[1] . ثم أمر نبيه باتباع كتابه وقال : ﴿**واتبع مايوحى اليك من ربك**﴾[2] . وقال﴿**فإذا قرأناه فاتبع قرآنه**﴾[3] فعمل محمد صلى الله عليه وسلم بأمر ربه ، ومعه عثمان ومن شاء الله من أصحابه لايرونه يتعدى حدا ، ولايبدل حكما ، ولايستحل حراما ولايحرم حلالا ، ولا يبدل فريضة . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ﴿**إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم**﴾[4] . فعمر صلى الله عليه وسلم ماشاء الله له أن يعمر تابعا لما جاء به من عند الله ، مبلغا لما ائتمنه الله عليه ، معلما للمؤمنين ، مبصرا لهم حتى توفاه الله صلى الله عليه وسلم .

ثم أورث الله عز وجل المسلمين الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو كتابه؛ الذى يهتدى من اهتدى باتباعه ، ولايضل من ضل إلابتركه . ثم قام من بعده أبو بكر رضى الله عنه على الناس ، فأخذ كتاب الله وعمل بسنة نبيه صلى الله عليه وسلم فلم يفارقه أحد من المسلمين ، ولم يعيبوا عليه فى حكم حكمه ولاقسم قسمه حتى فارق الدنيا ، وأهل الإسلام عنه راضون وله مجامعون . ثم قام من بعده عمر فكان قويا على الأمر ، شديدا على أهل النفاق ، يهتدى بمن كان قبله من المؤمنين ، ويعمل بكتاب الله . وابتلاه الله بفتوح من الدنيا بما لم يبتل به صاحبيه ، وفارق الدنيا والدين ظاهر ، وكلمة الإسلام جامعة ، وشهادة المؤمنين له بالوفاء قائمة .

والمؤمنون شهداء الله فى الأرض . قال الله عز وجل :﴿**وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا**﴾[5] . ثم استشار المسلمين فتركها فيهم ، فولوا عثمان . ففعل بماشاء الله بما يعرف الاسلام حتى بسطت له الدنيا وفتح له من خزائن الأرض . وأحدث أمورا لم يعمل بها صاحباه قبله ، وعهد

---

(١) سورة البقرة آية ٢٢٩ .

(٢) سورة الأحزاب آية ٢ .

(٣) سورة القيامة آية ١٨ .

(٤) سورة الأنعام آية ١٥ .

(٥) سورة البقرة آية ١٤٣ .

الناس يومئذ قريب منهما . فلما رأى المؤمنون ماأحدث أتوه وكلموه وذكروه بكتاب الله وسنة من كان قبله ، فشق عليه أن ذكروه بآيات الله وأخذ بالجبرية وضرب من شاء منهم وسجن ، ونفاهم فى أطراف الارض من أجل أن ذكروه بكتاب الله ، وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وآثار من كان قبله من المؤمنين . ومن أظلم ممن ذكر بأيات ربه فأعرض عنها ونسى ماقدمت يداه .﴿**ومن أظلم ممن ذكر بأيات ربه ثم أعرض عنها إنا من المجرمين منتقمون**﴾(١) . وأنا أبين لك ياعبد الملك بن مروان ما أنكر المسلمون على عثمان وفارقوه عليه ، عسى أن تكون غافلا فأذكرك ، أو جاهلا فأعرفك . فلا يحملنك هواء عثمان ياعبد الملك لأن تكذب بآيات الله وتعرض عنها فإنه لايغنى عنك من الله شيئا . فالله ياعبد الملك قبل التناوش من مكان بعيد وقبل أن تكون لزاما .

وإنه كان مما طعن عليه المسلون وفارقوه وفارقناه عليه . قال الله عز وجل : ﴿**ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى فى خرابها، أولئك ماكان لهم أن يدخلوها إلا خائفين ، لهم في الدنيا خزى ولهم فى الآخرة عذاب عظيم**﴾(٢) . وكان عثمان أول من منع مساجد الله أن يقص فيها كتاب الله .

ومما نقمنا عليه وفارقناه أن الله عز وجل قال : ﴿**ولاتطرد الذين يدعون ربهم بالغداوة والعشى يريدون وجهه، ما عليك من حسابهم من شئ وما من حسابك عليهم من شئ فتطردهم فتكون من الظالمين**﴾(٣) فكان خيار هذه الأمة قد طردهم ونفاهم . فكان من نفى من أهل المدينة أبا ذر الغفارى ، ومسلم الجهنى ، ونافع بن الحطام ونفى من أهل الكوفة كعب بن جندب وجندب بن زهير قاتل الساحر ، ونفى عمر بن زرارة ، ويزيد بن صوحان ، وأسود بن دويج ، ويزيد بن قيس الهمدانى ، وكردوس بن الحضرمى فى أناس كثيرين من أهل الكوفة . ونفى من أهل البصرة عامر بن عبد الله ، ومذعور العنبرى ومن لايستطاع عدّهم من المؤمنين .

---

(١) سورة السجدة آية ٢٢ .

(٢) سورة البقرة آية ١١٤ .

(٣) سورة الأنعام آية ٥٢ .

ومما نقمنا عليه أنه أمر أخاه[1] الوليد بن عقبة على الناس فكان يلعب بالسحر ويصلى بالناس سكران ، فاسق فى دين الله . وإنما أمره من أجل قرابته .

ومما نقمنا عليه جعل المال دولة بين الأغنياء ، وقد قال الله عز وجل :﴿**كى لايكون دولة بين الأغنياء منكم**﴾[2] فبدل فيه كلام الله واتبع هواه . ومما نقمنا عليه أنه منع مواضع القطر وحماها لنفسه ولأهلة، ومنع الرزق الذى أنزله الله لعباده متاعا لهم ولأنعامهم . وقد قال الله عز وجل : ﴿**قل أرأيتم ماأنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا قل ءآلله أذن لكم أم على الله تفترون**﴾[3] . ومما نقمنا عليه أنه أول من تعدى فى الصدقات . وقد قال الله : إنما الصدقات للفقراء والمساكين إلى ـــ قوله فريضة من الله والله عليم حكيم[4] . وقال ﴿**وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن تكون لهم الخيرة من أمرهم . ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا**﴾[5] والذى أحدث عثمان منعه فرائض كان فرضها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه . وأنقص أهل بدر من عطاياهم ألف ، وكنز الذهب والفضة ولم ينفقها فى سبيل الله. وقال الله عز وجل : ﴿**والذين يكنزون الذهب والفضة ولاينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم . يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بهاجباههم جنوبهم وظهورهم**﴾ا الآية[6] ومما نقمنا عليه أنه كان يضم كل ضالة إلى إبله ولايردها

---

(١) أخاه لأمه .

(٢) سورة الحشر آية ٧ .

(٣) سورة ونس آية ٥٩ .

(٤) نص الآية (انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم ، سورة التوبة آية ٦ .

(٥) سورة الأحزاب ، آية ٣٦ .

(٦) سورة التوبة آية ٣٤ ،٣٥ (ياأيها الذين أمنوا إن كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله. والذين يكنزون الذهب والفضة ولاينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ، يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ماكنزتم لأنفسكم فذوقوا ماكنتم تكنزون) .

ولايعرفها ، وكان يأخذها من الابل والغنم إذا وجدها عند أحد وان كانوا قد أسلموا عليها. وكان لهم في حكم الله ماأسلموا عليه . وقد قال الله عز وجل ﴿**ولاتبخسوا الناس أشياءهم ولاتعثوا في الأرض مفسدين**﴾[1] . وقال ﴿**ولاتأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم**﴾[2] ومما نقمنا عليه أنه أخذ خمس الله لنفسه ، وأعطى منه أقاربه ، وكان ذلك تبديلا لحكم الله ، وفرض الله الخمس ﴿**لله ولرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل**﴾ إلى قوله تعالى ﴿**والله على كل شئ قدير**﴾[3]. ومما نقمنا عليه منع أهل البحرين وأهل عمان أن يبيعوا شيئا من طعامهم حتى يباع طعام الإمارة . وذلك تحريم لما أحل الله . ﴿**وأحل الله البيع وحرم الربا**﴾[4] . وكان من عمل عثمان أنه يحكم بغير ما أنزل الله . وقد خالف سبيل رسول الله صلى الله عليه وسلم وسبيل صاحبيه . وقد قال الله : ﴿**ومن يشاقق الرسول من بعد ماتبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ماتولى ونصله جهنم وساءت مصيرا**﴾[5]. وقال : ﴿**ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون**﴾[6] وقال : ﴿**ألا لعنة الله على الظالمين**﴾[7] وقال : ﴿**ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا**﴾[8] وقال :

---

(١) سورة الأعراف آية ٨٥ .

(٢) نص الآية (ولاتأكلوا أموالكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم ولاتقتلوا أنفسكم ، إن الله كان بكم رحيماً) النساء آية ٢٩ .

(٣) نص الآية (واعلموا أن ماغنمتم من شئ فإن لله خمسة ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله وماآنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان . والله على كل شئ قدير) سورة الأنفال آية ٤١ .

(٤) سورة البقرة آية ٢٧٥ .

(٥) سورة النساء آية ١١٥ .

(٦) سورة المائدة آية ٤٧ .

(٧) سورة هود آية ١٨ .

(٨) سورة النساء آية ٥٢ .

﴿ولاتركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار﴾[1] وقال ﴿وكذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لايؤمنون﴾[2] .

وكل هذه الآيات تشهد على عثمان ، وإنما شهدنا عليه بما شهدت عليه هذه الآيات . والله يشهد بما أنزل (أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيدا)[3]. فلما رأى المسلمون الذى أتى به عثمان من معصية الله ، والمؤمنون شهداء الله فى أرضه، ناظرون فى أعمال الناس ، وقال الله عز وجل : ﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون﴾[4] . وترك خصومة الخصمين فى الحق والباطل . ووقع ما وعد الله من الفتن . وقد قال الله عز وجل :﴿أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لايفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين﴾[5] .

وعلم المسلمون أن طاعة عثمان على ذلك طاعة إبليس ، فساروا إلى عثمان من أطراف الأرض ، واجتمع اليه فى ملأ من المهاجرين والأنصار، وعامة أزواج النبى صلى الله عليه وسلم ، فأتوه فذكروه بالله ، وأخبروه بالذى أتى من معاصى الله ، فزعم أنه يعرف الذى يقولون وأنه يتوب إلى الله عز وجل منه ويراجع الحق . فقبلوا منه الذى أتاهم به من الاعتراف بالذنب والتوبة إلى الله عز وجل ومراجعة الحق . وكان حقا على أهل الإسلام إذا التقوا بالحق أن يقبلوه، ويجامعوه ما استقام على الحق . فلما تفرقوا عنه نكث الذى عاهدهم عليه، وعاد إلى أعظم من الذى تاب منه ، فكتب إلى عماله فى أدبارهم أن تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف . فلما ظهر المؤمنون على كتابه ونكثه

---

(١) سورة هود آية ١١٣ .

(٢) سورة يونس آية ٣٣ .

(٣) نص الآية (لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيدا) سورة النساء ١٦٦ .

(٤) سورة التوبة وص ١٠٥ .

(٥) العنكبوت آية ٢،٣ .

العهود رجعوا إليه وقتلوه بحكم الله . وقد قال الله عز وجـل : **﴿وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا فى دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لاأيمان لهم لعلهم ينتهون﴾**(١) . وقد عمل بكتاب الله وجامع المسلمين زمانا ثم ارتد على عقبيه . وقد قال الله عز وجـل: **﴿إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سول لهم وأملى لهم﴾**(٢) .

فهذا وأمثاله من خبر عثمان هو الذى فارقه عليه المؤمنون . وفارقناه عليـه وطعنوا عليه فيه ، وطعنا نحن اليوم فيه . وذكرت كونه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلته معه ، فقد كان على بن أبى طالب أقرب قرابة إلى رسول الله وأعظم خلة، وأقـدم هجـرة وأسبق إسلاما ، وأنت تشهد له بذلك وأنا بعد ذلك . فكيف كانت قرابتـه وخلتـه؟ هـل كانت نجاة إذا ترك الحق أم هلاكا ؟ واعلم ان علامة كفر هذه الأمة اذا تركوا الحكم بمـا أنزل الله وحكموا بغير ما انزل الله (فمن أصدق من الله حكما لقوم يوقنون)(٣) . وقال : **﴿فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون﴾**(٤) .

فلا يغرنك يا عبد الملك بن مروان من نفسك ، ولا تسند دينك إلى الرجال فإنهم يستدرجون من حيث لا يعلمون . فإن أملك الأعمال خواتمها . وكتـاب الله جديـد أبـدا لا ينطق إلا بالحق . أجارنا الله باتباعه أن نبغى أو نضل ، فاعتصم بحبل الله يا عبـد الملـك واعتصم بالله يهديك إلى صراط مستقيم . قال الله عز وجل : **﴿ومـن يعتصـم بـالله فقـد هدى إلى صراط مستقيم﴾**(٥) . وكتاب الله هـو حبـل الله المتـين الـذى أمـر المؤمنـين أن يعتصموا به فقال : **﴿واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا﴾**(٦) . فأنشـدك الله أن تتدبـر

---

(١) سورة التوبة آية ١٢ .

(٢) سورة محمد ٢٥ .

(٣) نص الآية ﴿أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون﴾ سورة المائدة آية ٥

(٤) سورة الجاثية ، آية ٦ .

(٥) سورة آل عمران آية ١٠١ .

(٦) سورة آل عمران آية ١٠٣ .

معانى القرآن وتكون مهتديا به مخاصما به . قال الله: عز وجل : ﴿**أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها**﴾[1] .

وأما قولك فى معاوية إن الله قام معه، وعجل نصره ، وبلج حجته ، وأظهره على عدوه بالطلب لدم عثمان ، فإن كنت تعتبر الدين من قبل الدولة والغلبة فى الدنيا ، فإنا لا نعتبره من قبل ذلك ، فقد ظهر المسلمون على الكافرين لينظر كيف يعملون ، وظهر المشركون على المؤمنين ليبلى المؤمنين ويملى للكافرين . وقال : ﴿**وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين ، وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين**﴾[2]

وانظر ما أصاب المؤمنين من المشركين يوم أحد ، وانظر كيف ظهر قتلة عثمان ابن عفان عليه وعلى شيعتة يوم الدار ، وظهر عليّ على أهل البصرة وهم شيعة عثمان ، وظهر المختار على زيد وأصحابه وهم شيعتهم، وظهر مصعب على المختار ، وظهر أهل الشام على أهل المدينة ، وظهر الزبير على أهل الشام بمكة . فلا تعتبر الدين من قبل الدولة ، فقد يظهر الناس بعضهم على بعض . وقد أعطى الله فرعون ملكا وظهر فى الأرض . وأعطى الذى حاج إبراهيم فى ربه ملكا . ثم إن معاوية اشترى الإمارة من الحسن بن على ، و لم يف له بما اشترطه عليه وعاهد الله العظيم ليوفين له . وقد قال الله عز وجل ﴿**ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها**﴾ الآية[3] . فلا تسأل عن معاوية وعن صناعته غيرى لأنى قد أدركته ورأيت عمله وسيرته ، ولا أعلم من الناس أحدا أترك للقسمة التى قسمها الله، ولا لحكم حكمه الله ، ولا أسفك لدم حرمه الله منه . فلو لم يصب من البلايا إلا دم ابن سمية لكان فيه ما يكفره . ثم استخلف ابنه يزيد فاسقا لعينا كافرا شاربا للخمر فيكفيه من الشر . فلا يخفى عمل معاوية ويزيد على كل عاقل .

---

(١) سورة محمد آية ٢٤ .

(٢) سورة آل عمران آية ١٤٠ ، ١٤١ .

(٣) نص الآية هو ﴿وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ، إن الله يعلم ما تفعلون﴾ سورة النحل ٩١ .

فاتق الله يا عبد الملك ولا تخادع نفسك فى معاوية ، فقد أدركنا أهل بيتكم يطعنون فى معاوية ويزيد ويعيبون عليهما كثيرا مما يصنعون . فمن يتولى عثمان ومن معه فإنى أشهد الله وملائكته أنى منهم برىء ، أعداء لهم بأيدينا وألسنتنا وقلوبنا ، نعيش على ذلك ونموت عليه إذا متنا ، ونبعث عليه إذا بعثنا ، ونحاسب بذلك عند الله .

وكتبت الى تعذرنى الغلو فى الدين . أعوذ بالله من الغلو!! . وسأبين لك ما الغلو فى الدين إذا جهلته . والغلو فى الدين أن يقال على الله غير الحق ، ويعمل بغير كتاب الله الذى بين ، وسنة نبيه التى سن . وقال الله : ﴿**يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق**﴾[1] .

وقال :﴿**يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم غير الحق**﴾[2] . كما غلا عثمان والأئمة بعده . وأنت بعد على سبيلهم وطاعتهم تجامعهم على معصية الله وتتبعهم ، وقد اتبعوا أهواءهم واتبعتهم أنت عليها . وقال الله عز وجل .﴿**ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل**﴾[3] فهؤلاء أهل الغلو فى الدين فليس من غضب لله حين عصى، ورضى بحكم الله ، ودعا إلى كتاب الله وإلى سنة نبيه وسنة المؤمنين بعده بغال فى الدين!! .

وكتبت إلى تعرض بالخوارج وتزعم أنهم يغلون فى دين الله ويتبعون غير سبيل المؤمنين ، ويفارقون أهل الاسلام . وأنا أبين لك سبيلهم . هم أصحاب عثمان الذين أنكروا عليه ما أحدث من بدعة ، وفارقوه حين ترك حكم الله ، وهم أصحاب الزبير وطلحة حين نكثا ، وأصحاب معاوية حين بغى ، وأصحاب على حين بدل حكم الله وحكم عبدالله بن قيس وعمرو بن العاص . فهم فارقوا وهؤلاء كلهم ، وأبوا أن يفرقوا بحكم البشر دون حكم الله ، فهم لمن بعدهم أشد عداوة وأشد مفارقة . كانوا يتولون فى

---

(١) سورة النساء آية ١٧١ .

(٢) سورة المائدة آية ٧٧ .

(٣) سورة المائدة آية ٧٧ ونصها :﴿قل يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل﴾.

دينهم وسنة نبى الله صلى الله عليه وسلم ، وأبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، ويدعون إلى سبيلهم ويرضون على ذلك . كانوا يخرجون وإليه يدعون ، وعليه يفارقون . وقد علم من عرفهم وعرف حالهم أنهم كانوا أحسن عملا وأشد قتالا فى سبيل الله .

هذا خبر الخوارج، شهد الله والملائكة أنا لمن عاداهم أعداؤنا ، ولمن والاهم أولياؤنا بألسنتنا وأيدينا وقلوبنا ، نعيش على ذلك ما عشنا ، ونموت عليه إذا متنا ، ونبعث عليه عند ربنا . إنا برآء إلى الله من نافع بن الآزرق وصنيعه وأتباعه .لقد كان حين خرج على الإسلام فيما ظهر لنا ، ولكنه أحدث وارتد وكفر بعد إسلامه فنبرأ إلى الله منهم .

وأنت كتبت إلى أن أكتب إليك بجواب كتابك ، وأجتهد لك فى النصيحة،وذكرتنى بالله وأفضل ما ذكرتنى به أن قلت : **﴿إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس فى الكتاب﴾**(١) . الآية . **﴿وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه﴾**(٢) فقد بينت لك وأخبرتك خبر الأئمة . وكان حقا على أن أنصح لك ، فإن الله لم يتخذنى عبدا لأكفر به، ولا أن أخادع الناس بشيء ليس فى نفسى، وأخالف إلى ما أنهى عنه . أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم لتحل الحلال وتحرم الحرام ، ولا تظلموا الناس شيئا ، وأن يكون كتاب الله حكما بينى وبينكم فيما اختلفنا فيه ، وأن نتولى من تولى الله ، وأن نبرأ مما تبرأ الله منه ، وأن نطيع من أمر الله بطاعته ، ونعصى من أمر الله بمعصيته فى كتابه ، فهذا الذى أدركنا عليه نبينا صلى الله عليه وسلم . وأن هذه الأمة لم تسفك دما إلا حين ترك كتاب الله وسنة نبيه. وقد قال الله عز وجل **﴿وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله ذلكم الله ربى عليه توكلت وإليه أنيب﴾**(٣) . والقرآن هو السبيل الواضح الذى هدى الله به من كان قبلنا ، محمدا وأصحابه الخليفتين الصالحين ، ولا يضل من اتبعه ولا

---

(١) سورة البقرة ١٥٩ ونص الآية هو ﴿إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس فى الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون﴾ .

(٢) سورة آل عمران ، آية ١٨٧ .

(٣) سورة الشورى آية ١٠ .

يهتدى من تركه وقال . ﴿**وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله**﴾[1] . فاحذر أن تتفرق بك السبل وتتبع هواك ، فإن الناس إنما يتبعون فى الدنيا والآخرة إمامين : إمام هدى وإمام ضلالة ، فإمام الهدى الذى يتبع كلام الله ويقسم بقسمة الله ، ويحكم بحكم الله وهو الذى قال عز وجل فيه :﴿**وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا**﴾[2] وهؤلاء هم الأئمة الذين أمر الله بطاعتهم ونهى عن معصيتهم .

وأما أئمة الضلالة فهم الذين يحكمون بغير ما أنزل الله ، ويقسمون بغير قسمة الله ويتبعون أهواءهم بغير سنة من الله فهؤلاء الذين قال الله عز وجل فيهم﴿**وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون**﴾[3] . وفيهم قال :﴿**فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهادا كبيرا**﴾[4] وقال :﴿**ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه**﴾[5] . وهذا كتابنا ينطق عليكم بالحق . فماذا بعد الحق إلا الضلال ؟. فلا تضربن عنك الذكر صفحا ، ولا تشكن فى كتاب الله .

وقد كتبت إلى بمرجوع كتابك ، فأنشدك الله لما قرأته وأنت مشغول حتى تتفرغ له وتتدبر معانيه وتنظر فيه بعين البصيرة . واكتب إلىّ جواب كتابى هذا إن استطعت، وانزع إلى الشواهد من كتاب الله والبينة منه فاصدق بذلك قولك . ولا تعرض لى بالدنيا فإنه لا رغبة لى فيها، وليست من حاجتى ، ولكن لتكن نصيحتك لى فى الدين ولما بعد الموت ، فإن ذلك أفضل النصيحة . والله قدير أن يجمع بيننا وبينك على الطاعة ، فإنه لا خير فيمن لم يكن على طاعة الله، وبالله التوفيق، وفيه الرضا والسلام عليك .

(البرادى : الجواهر المنتقاة ، ص ١٥٦ - ١٦٧) .

---

(١) سورة الأنعام آية ١٥٣ .

(٢) سورة الأنبياء آية ٧٣ .

(٣) سورة القصص آية ٤١ .

(٤) سورة الفرقان آية ٥٢ ونصها ﴿فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهادا كبيرا﴾

(٥) سورة الكهف آية ٢٨ .



(٢)

من رسائل الإمام جابر بن زيد*

الرسالة رقم ١٣ ...... إلى نعمان بن سلمة :

" أما بعد . فقد جاءني كتابك ، تشكو الذى أنت فيه من الذى ابتلاك الله به ، مما تخاف أن يكون الله قد سلك به دينك ودنياك ، وأن الغم منك أن تقيم بمنزلة فيها هلاك دنياك وآخرتك ، فإذا جاءك كتابى فبع دنياك واشتر بها دينك ، فهلاك دنياك ليست بخطر لدينك ، فوالله لو كنت بمنزلة ترجو دنياك أن تذهب دينك ، ما رضيت لك أن تهلك دينك ، ولا عذر لك بذلك ، بل إنك تخاف على دينك ودنياك . واعلم أن ثقة المؤمنين فى دينهم الله إذا اعتصموا بالله وعرف منهم الثقة والتوكل نجاهم من مكاره الأمور ، وحق على الله أن ينجى المؤمنين إذا هم اختاروه على ما سواه . واعلم أنه ليس من العباد خليفة يلتمس مرضاة الناس فى سخط الله ، إلا سلط عليهم من يطلب مرضاته فى سخطه حتى يضربه ، ويسلط عليه .

---

* نشرت وزارة التراث القومى والثقافة بسلطنة عمان فى سنة ١٩٨٤ م كتابا بعنوان : "من جوابات الإمام جابر بن زيد" . وهو غير الرسائل المشار إليها ، لأنه عبارة عن آراء للإمام جابر فى الأحكام والطهارة والفرائض ، قام الشيخ سعيد بن خلف الخروصى بترتيبها وتبويبها . ويفهم ذلك مما يقوله الخروصى فى المقدمة (ص٣) : "فقد ظفرت بآثار الإمام جابر بن زيد أبى الشعثاء... وهى روايات أبى صفرة عبد الملك بن صفرة عبد الملك بن صفرة ، عن المتيم ، عن الربيع بن حبيب ، عن ضمام بن السائب ، عن جابر بن زيد . وروايات حبيب بن أبى حبيب صاحب الأنماط ، عن عمرو بن هرم ، عن جابر بن زيد . فروايات أبى صفرة فى رسالة مفردة ، وروايات حبيب فى رسالة مفردة . وكانت الرسالتان غير مرتبتين ، يجد لقارئ مسألة فى الأحكام، ثم يرى بعدها مسألة فى الوضوء ، يليها مسألة فى الفرائض وهكذا .. فرأيت ترتيبها مهماً ، فاستعنت بالله عليه ، فضممت كل مسألة فى بابها ، وجمعتها مع أترابها ، فهكه أيها القارئ الكريم مبوباً ، ترى كل باب مع مناسبه مرتبا ، وقد أدمجت الرسالتين فجعلتهما كرسالة واحدة .

كتبت إلىّ أن أدلك على المخرج من الذى أنت فيه ، وتأمرنى أن أبين لك العدل فى الذى أنت فيه . ولعمرى لو أخذت من ذلك بأمر أهل العدل لوسعك ذلك ، فإن كان فى ذلك فى حاجتك ، فاجمع أهل أرضك ، ثم ادع كل إنسان منهم فاسأله ما يطيق ، فإنه ليس منهم إنسان إلا كان سيحمل من ذلك أمرا يكون لك فيه كفاية ، فإن الدهاقين يأخذون أضعاف ما كانوا متحملين لك ، لا يصل من ذلك إلى بيت المال إلا القليل ، يمسكونه لأنفسهم ، ويأخذون الشرط دونهم ، وأمورا كثيرة تغشاهم ولا يصل إلى بيت المال منه كثير . فانظر كل إنسان منهم تحمل لك أمرا فقل : ليس عليك دهقان دونى ولا شرطى ، إن تشأ أن أكتب لك صكا بذلك وتدفع إلىّ شيئا من ذلك كتبت لك به صكا ، فإن الرجل لعله يؤخذ منه ثلاثمائة فلا يصل إلى بيت مالكم منه مائة درهم ، تذهب دونكم ، ومتى توضع عن صاحب الثلاثمائة مائة ، وتؤخذ منه مئتا درهم يبقى له ما يعيش به . وتصيب حاجتك . فهذا أمر إن أخذت به أهل أرضك تكون لهم فيه راحة، وأرجو أن تستخرج منهم أمرا يكون أضعاف ما لو حرصت فيه على خراب أموالهم لما تعد ذلك . فأما أمر المسلمين إذا ضربوا الجزية فإنه كان قسمة على الرؤوس ، درهمين وحزاين من كل رأس ثم يتقبل الدهاقين فيقسم ذلك على قدر أهل الأرض وطاقتهم ، فيكون الرجل ينوبه من ذلك مئتان والثلاث ، ودون ذلك وفوق ذلك ، ولا يؤخذ من أهل المسكنة شيء ، وإن جبر على أحد منهم ، فرفع ذلك إلى الإمام عدل عليه . فكان ذلك أمر المسلمين . فجاءت بعد ذلك أمراء جعلوا يقبلون الأرضين قبالات يتقبلها دهاقينها ويتنادون فى الزيادات حتى ينهى بهم الأمر إلى ما رأيت . فانظر أى أمرك أخذت به فعليك بتقوى الله ، ولا يكون من رأيك أن ترى أن الله جاعل هضمك للناس مخرجا . وأما الذى كتبت تسألنى عن الأرطاب والحبوب والثمار هل كان المسلمون يقسمون عليها خراجا ؟ فلا لعمرى ما كان على أموال أهل العهد بعد الفريضة شيء وإن كثروا .

وأما الذى ذكرت من أموال المسلمين فى أرضك ، كتبت تستأمرنى فى أن تستعين بصدقتها فى الجزية ، فإن ذلك ليس لك ، وإنما كانت صدقة أموال المسلمين إلى من بعث الصدقة ولا تجعل جزية . والله مع ذلك لقد عرفت أن الشيطان سيزين لك من أمرك ما أخاف أن يوبقك ، إلا أن يعصمك الله . فنسأل الله أن يعصمنا وإياك من الزلل،

والفتن ، وأن يعافينا وإياك من شر كل ذى شر . ونسأل أن يدفع عنا وعنك من أراد بنا سوءا من شياطين الإنس والجن ، ونـدرأ الله فـى نحورهـم ، ونسـأله أن يـأخذ بأسمـاعهم وأبصارهم وجوارحهم ويكفيناهم بما شاء ، حتـى يعرفنـا عاقبتـه فـى شـكر برضائـه عنـا والسلام عليك ".

(منقولة عن نسخة مكتوبة على الآلة الكاتبة ومودعة بالمكتبة الإسلامية بمسقط برقم ٩١٩٤ عام)



(٣)

من رسائل الإمام جابر بن زيد

الرسالة رقم ١٦ .... لعبد الملك بن المهلب

"بسم الله الرحمن الرحيم .. لعبد الملك بن المهلب ، من جابر بن زيد .

سلام عليك فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، وأوصيك بتقوى الله ، فإن حسن الرعاية والتشبه بأخلاق المؤمنين والاقتداء بهداهم ، واتباع أثرهم أفضل لإقدامهم، فإن الأول قد أبرأ الآخر . فاعلم يا أبا عثمان – الله من نفسك التحرى لمسرته ، والاتباع لرضوانه ، والتعظيم لدينه ، فإن أفضل المؤمنين عند الله شرفا ومنزلة ووجها ، أفضلهم تعظيما له ولكتابه ، ولدينه ولحرمته ، ويؤتى الله المؤمنين لكل ذى فضل فضله ، فابتغ بما أتاك الله من أمر الدنيا من الفضل فيها على كثير من الناس – نصيبا فى الآخرة ترجو به الفضل فى الدرجات والثواب ، فإن الشرف فى الدنيا يبلغ الله به شرف أعمال الآخرة وما ارتضى الله ، فالأشراف سادات مسودون ، ومن يدعى الشرف فى الدنيا بغير شرف فى الدين ، وقصد فى الدين وفضل فى عبادة الله ، يصيره الله بذلك ذليلا بمنزلة اللوم والصغار، ويكون ما يدعى عليه من ذلك عاراً . فكن من الله على حذر شديد ، ولا تكن مستهانا مستضعفا عليك أمرك . فنسأل الله رب العرش الكريم العظيم أن يهب لنا ولكم من اليقين ما نتصغر فيه كل شىء من أمرنا حتى لا يعرف منا كبراً يمقتنا الله عليه ، ونستحق عذابه ونسأل الله الكبير المتعال ، أن يرزقنا له تواضعاً يملأ به أجوافنا خشية له .

أما بعد .

فإنا سالمين (هكذا) صالحون نكثر الحمد له ، ونضمر حسن الثناء عليه فيما أبلانا وأنعم علينا فيكم وفى سائر الأمور ، فكان الذى امتن الله به من النعم فى عافيته إياكم ودفاعه لنا عنكم أمرا لا نبلغ من شكره إلا التقصير ، فأتم الله علينا وعليكم نعمته ، وزادكم وإيانا مزيداً من كرامته ، وأقر عيوننا ببقائكم وعافيتكم والدفاع عنكم حتى يريكم وإيانا فى أمركم وأمرنا ما تقر به أعيننا ويكبت به عدونا .

أتانى كتابك فى الذى تسألنى عنه من الذى تزعـم أن صدوركـم لا تثلـج إلى فتيا غيرى . فلعمرى ما أنا إلا متعلم متبع آثار قد وطئت قبلى ، وما عندى من ذلك ثقـة ولا دلالة إلا رواية عسى أن نختلف فيها . فأما الذى ذكرت من الطلاق بعد الخلـع ، وتزعـم أن ذلك نزل ببعض من تشفقون عليه . فإن الفقهاء يقولون لا طلاق لمن خلع . وكذلـك ينبغى أنه إذا أعطى المال فقبله فقد اختلع من أمرها ، فليـس لـه فيهـا أمر ، وهـى أملـك بأمرها فليس بعد قبول المال له فيها مراجعة إلا أن تطيب نفسها ، ولـو كـان طـلاق بعـد ذلك لا يمضى للمرأة أمرا إلا بذلك لكان له أن يرتجع فيها إن شـاء ، ولكـن انقطـع أمـره منها بعد قبول المال ، وإنما طلاقه بعد ذلك بمنزلة من طلق ما لا يملك . وأما الذى ذكرت من العدة فى طلاق البكر قبل أن تطمث ، فيدركها الحيض فى بعض فرض عدتها الشـهر أو اثنين أو عدة المرأة ، إن كان أترابها قد يئست من الحيض ثم حاضت بعد فرض عدتها وأخرى تطول بها حيضتها فى عدتها ، وأخرى يطول بها تعود عـن حيضتهـا وهـى مـن أجل الحيض . وكتبت أن أبين لك ما بلغنى فى ذلك وأراه ، فإنى أخبرك أنه كان يقول : إنما جعل الله الحيض علما للحبل ، فكـان عـدة الحيـض علمـا للحبـل يستبرأ بـه الحبـل ، وجعل عدة الشهور (لمن تيأسن) من المحيض مخافـة الشبـهات . فأمـا مـا كـان يقـول فـى الجارية ويدركها الحيض فى بعض عدتها فكان يقول : تستأنف عدة الحيض أعجب إلىّ ، لأنه قد تحمل الجارية ولم يعلم لها حيـض ، وقـد تحمـل المرأة وهـى تحيـض فـى حملهـا ، وماصفا له من الأمر أحب إليه .

وبلغنا عن ما يروى عن على بن أبى طالب أو غـيره لا شـبهة فيـه ، والثقـة أحـب إلىّ، وأما تطول بها حيضتها من عادة جرت عليها فالحيض كما قال الله ، وإن كـان مـن حدث داء أو مرض قطع ذلك عنها ، فإن استبرأ الحبل لا شك فيه ، فالله أولى بالعذر ولا بأس .

وأما ماذكرت من المرأة تحيض بعد اليأس ، فإن أهل الحيض يختلـف أمرهـن ، ربمـا عرض للمرأة انقطاع الحيض من غير كبر إلا مايعرض من الـداء ، وربمـا رأت المـرأة الـدم من غير محيض ، فإن عرف أنها ممن لا ينبغى أن تحيض ، وكان ذلك من غير عـادة تجـرى عليها فى مسـتأنف الأمـور فعـدة الشـهور (ولا بـأس بتزويجهـا) (١) ، وإن كـان حيضـا ورأت ورأى الناس أنها ممن لا تيأس من المحيض فعّدة الحيض فإن الله جعل لذلـك مقـادير

ذكرت (٢) الذى تسالتنى (هكذا) من أمر الحيض أن تزوج على شيء من هذه الحالات تسأل كيف يصنع فيما عرف أنه خولف فيه الحق والسنة ، فإنه ليس من امرأة نكحت فى عّدة إلا فرق بينهم ، فإن أتى عليهم زمان لم يكره أن تعود مناكحة خولف فيه الحق والسنة على شيء من الحالات إلا ما لم يجامع أهله فقد يكون لهم مراجعة الحق . وأما ما ذكرت من تحل الرجل ولده أو أهل قرابة زوجته ، لك من مالى يا فلان كذا وكذا ، فما شيء لغير الولد من شيء ، وإن لم يبين به فهو ضامن له ، وما علم من شيء شيء من ولد فلان لفلان وفلانة لفلانة من مال كذا وكذا فإن ذلك يمضى له . وإن كان الولد من حجر والده وما كان يحل لولد لم يبن له لم يعلم ما هو فهو فى الميراث ، والتنزيه أن يعلم الولد ما أبان له والده من ماله فأعلمه إياه وإن قال الناس غير ذلك .

وأما ما ذكرت (من الزكاة) وفيم فرضت ؟ فلا نعلمها فرضت إلا فى الذهب والفضة والأنعام والحرث وفى الأنفس الصاع . وأما ما ذكرت من الجوهر واللؤلؤ فلا نعلم فيه زكاة وإن كثر ثمنه ، إلا ما أريد به التجارة وما تفعلوا من خير يعلمه الله .

وأما ما ذكرت من الزكاة فى حلىّ نسائكم ، وتزعم أن غلبنكم نساؤكم على زكاة حليّهن فاجبروهن على ذلك خير لكم . وإن كرهن من قبل التضييع لذلك فليس عليكم إلا الأمر بالمعروف . وأما قولك : يمسك الرجل امرأة لا تزكى مالها ؟ فإن ذلك إنما يحرم من قبل الكفر بالزكاة والتكذيب . زعمت أنما كتبت تسألنى عن ذلك تقول سمعته عن فقهاء قبلك ، وأنهم لم يضعوا الأمر موضعه ، وأساءوا الرواية .

اكتب إلىّ بما كانت لك حاجة فى سر وثقة ، فإنك قد علمت الذى نحن فيه ، وما نتخوف من الذى يطلب العلل علينا ، فلا تعرض لذلك لأمر تهلكنا به أصلحك الله .

نسأل الله القريب المجيب أن يريكم وإيانا فى أموركم وأمورنا ما تقر به أعيننا ، ومن نرجو أن يكون الله قسم به الدفاع عنا . والسلام عليك ورحمة الله" .

(منقولة عن رسائل الإمام جابر بن زيد المنسوخة على الآلة الكاتبة والمودعة بالمكتبة الإسلامية بمسقط تحت رقم ١٩١٢عام)



المصادر والمراجع

أولا – المصادر والمراجع العامة

ابن الأثير (٦٣٠هـ / ١٢٣٨م) على بن أحمد بن أبى الكرم :

١- الكامل فى التاريخ (تحقيق محمد أبو الفضل – بيروت ١٩٦٥) .

٢- أسد الغابة فى معرفة الصحابة (نشر جمعية المعارف المصرية ١٢٨٠ هـ) .

أحمد إبراهيم الشريف : (دكتور)

٣- مكة والمدينة فى الجاهلية وعهد الرسول (دار الفكر العربى – القاهرة ١٩٦٥)

الإسفرايينى (ت ٤٧١هـ) أبو المظفر شاهور بن طاهر:

٤- التبصير فى الدين وتمييز الفرق الناجية (تحقيق محمد زاهد الكوثرى ١٣٧٥هـ)

الأشعرى (٣٢٤ هـ) أبو الحسن على بن اسماعيل :

٥- مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين (استانبول ١٩٣٠م)

الأصبهانى (٣٥٦هـ / ٩٦٧م) أبو الفرج على بن الحسن بن محمد :

٦- كتاب الأغانى (القاهرة ١٢٨٥م)

ابن أعثم الكوفى (٣١٤ هـ / ٩٢٦ م) أبو محمد أحمد :

٧- كتاب الفتوح (حيدر أباد ١٣٩٥هـ / ٨٦٩م)

البخارى (ت ٢٥٦هـ / ٨٦٩م) أبو عبدالله محمد بن اسماعيل :

٨- صحيح البخارى (مصر ١٣١٥هـ)

البغدادى (٤٢٩ هـ) عبد القاهر بن طاهر :

٩- الفرق بين الفرق (بيروت ١٩٣٧م)

البلاذرى (٢٧٩هـ / ٨٩٢م) : أبو الحسن أحمد بن يحى بن جابر :

١٠- أنساب الأشراف - الجزء الأول (تحقيق محمد حميد الله - دار المعارف ١٩٥٩م)

ابن تيمية (٧٢٨هـ) أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام :

١١- مجموع فتاوى ابن تيمية (طبعة القاهرة)

جودت عبد الكريم يوسف (دكتور) :

١٢- العلاقات الخارجية للدولة الرستمية (الجزائر ١٩٨٤)

ابن الجوزى (٥٦٧هـ) عبد الرحمن بن أبى الحسن بن محمد :

١٣- تلبيس إبليس (طبعة أنصار السنة - القاهرة)

الحاكم (٤٠٥هـ) أبو عبدالله بن عبدالله بن محمد بن حمدوية :

١٤- المستدرك (طبعة الهند)

ابن حجر العسقلانى (٨٥٢هـ) أحمد بن على :

١٥- تهذيب التهذيب (حيدر أباد ١٣٢٥هـ)

١٦- فتح البارى بشرح صحيح البخارى (المطبعة السلفية بالقاهرة)

ابن أبى الحديد (٦٥٥هـ / ١٢٧٥م) عبد الحميد هبة الله :

١٧- شرح نهج البلاغة (تحقيق محمد أبو الفضل - بيروت١٩٦٤)

ابن حزم (ت ٤٦٥هـ /١٠٦٤م) أبو محمد على بن أحمد:

١٨- الفصل فى الملل والأهواء والنحل (القاهرة ١٣١٧)

ابن حنبل (ت٢٤١هـ) أحمد بن محمد بن حنبل :

١٩- مسند الإمام أحمد (طبعة الحلبى بالقاهرة)

ابن حوقل (ت٣٦٧هـ /٩٧٧م) أبو القاسم محمد بن حوقل :

٢٠- كتاب المسالك والممالك (ليدن -١٨٧٢م)

الخضرى (الشيخ محمد) :

٢١- تاريخ الأمم الإسلامية (الجزء الأول - القاهرة ١٩٧٠)

الخطيب البغدادى (٤٦٣هـ) أبو بكر أحمد :

٢٢- تاريخ بغداد (مصر ١٩٣١)

ابن خلدون (٨٠٨هـ / ١٤٠٥م) عبد الرحمن بن محمد :

٢٣- العبر وديوان المبتدأ والخبر (بولاق ١٢٨٤هـ)

خليفة بن خياط (٢٤٠هـ) أبو عمرو :

٢٤-تاريخ خليفة بن خياط (تحقيق أكرم ضياء العمرى - النجف ١٩٦٧)

الخوارزمى : أبو عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف الكاتب :

٢٥- كتاب مفاتيح العلوم (القاهرة ١٩٣٠)

الذهبى (٧٨٤هـ / ١٣٤٧م) الحافظ شمس الدين أبو عبدالله محمد :

٢٦- تاريخ الإسلام (تحقيق حسام الدين القدسى)

الرازى (ت ٣٢٢هـ) أحمد بن حمدان :

٢٧- الزبدة فى الكلمات الإسلامية (القاهرة ١٩٧٠)

الرازى (٣٢٧هـ) أبو محمد بن عبد الرحمن بن أبى حاتم :

٢٨- الجرح والتعديل (حيدر أباد ١٣٥٧هـ / ١٩٣٨م)

الرازى (٦٠٦هـ) فخر الدين :

٢٩- اعتقادات فرق المسلمين والمشركين (القاهرة ١٩٣٨)

رجب محمد عبد الحليم (دكتور):

٣٠- الإباضية فى مصر والمغرب وعلاقتهم بإباضية عمان والبصرة (مكتبة العلوم بمسقط ١٩٩٠م).

الزركلى : خير الدين :

٣١- الأعلام (القاهرة ١٩٥٤ - ١٩٥٩)

ابن سعد (ت ٢٣٠هـ /٨٤٥م) أبو عبدالله محمد بن سعد بن منيع الزهرى :

٣٢- الطبقات الكبرى (دار صادر - بيروت ١٣٧٧هـ / ١٩٥٨م)

سهير القلماوى (دكتورة) :

٣٣- أدب الخوارج (مصر ١٩٤٥)

سيدة إسماعيل كاشف (دكتورة) :

٣٤- عمان فى فجر الإسلام (مسقط - وزارة التراث - الطبعة الثانية ١٩٨٩)

سعيد عبد الفتاح عاشور وزميله (دكتوران):

٣٥- عمان والحضارة الإسلامية (الطبعة الرابعة - جامعة السلطان قابوس)

الشاطبى (ت٧٦٠هـ / ١٢٦٧م) أبو اسحق إبراهيم الغرناطى :

٣٦- الاعتصام (مصر ١٣٣١هـ / ١٩١٣م)

الشهرستانى (٥٤٨هـ) أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبى بكر :

٣٧- الملل والنحل (تحقيق عبد اللطيف محمد العبد - مكتبة الانجلو المصرية سنة ١٩٧٧م)

صابر طعيمة (دكتور) :

٣٨- الإباضية عقيدة ومذهبا (دار الجبل - بيروت ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م)

صفى الدين البغدادى (٧٣٩هـ / ١٣٣٩م) عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادى :

٣٩- مراصد الاطلاع على الأمكنة والبقاع (تحقيق على محمد البجاوى - القاهرة - ١٩٤٥م)

الطبرى (٣١٠هـ / ٩٢٢م) أبو جعفر محمد بن جرير :

٤٠- تاريخ الرسل والملوك (طبعة دار المعارف بالقاهرة)

٤١-جامع البيان فى تفسير القرآن

عامر النجار (دكتور):

٤٢- الخوارج عقيدة وفكرا وفلسفة (دار المعارف ط٢ ١٩٨٨)

ابن عبد ربه (٣٢٨هـ) أحمد بن محمد :

٤٣- العقد الفريد (تحقيق محمد سعيد العريان - القاهرة ١٩٥٣م)

ابن العربى (محى الدين أبو بكر) :

٤٤- العواصم من القواصم (تحقيق محب الدين الخطيب ١٣٧٥هـ)

عمار طالبى : (دكتور) :

٤٥- آراء الخوارج الكلامية (الجزائر ١٣٩٨ - ١٩٧٨م)

عوض محمد خليفات (دكتور) :

٤٦- نشأة الحركة الإباضية (عَمَّان ١٩٧٨)

الغزالى (ت٥٠٥هـ /١١١١م) أبو حامد محمد بن محمد بن أحمد:

٤٧- إحياء علوم الدين (طبعة دار الكتب العربية الكبرى - مصطفى الحلبى وشركاه)

فاروق عمر فوزى (دكتور) :

٤٨- التاريخ الإسلامى وفكر القرن العشرين (مؤسسة المطبوعات العربية - بيروت ١٩٨٠)

الفيروز أبادى : (محى الدين محمد بن يعقوب) :

٤٩- القاموس المحيط (بيروت - بدون تاريخ)

ابن قتيبة (ت٢٧٦هـ / ٨٨٩م) أبو محمد عبد الله بن مسلم :

٥٠- كتاب المعارف (القاهرة ١٩٦٠م)

٥١- الإمامة والسياسة (منسوب لابن قتيبة - تحقيق طه الزينى)

القزوينى (زكريا بن محمد):

٥٢- آثار البلاد وأخبار العباد (بيروت ١٣٨٠ /١٩٦٠)

ابن كثير (ت ٧٧٤هـ / ١٣٧٢م) عماد الدين أبو الفدا إسماعيل :

٥٣- البداية والنهاية (القاهرة ١٩٣٢)

المبرد (ت٢٨٥هـ / ٨٩٨م) أبو العباس محمد بن زيد :

٥٤- الكامل فى اللغة والأدب (دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع)

محمد إبراهيم عبد الباقى:

٥٥- الدين والعلم الحديث

محمد أسعد أطلس (دكتور) :

٥٦- الخلفاء الراشدون (دار الأندلس - بيروت بدون تاريخ)

محمد أبو زهرة (الشيخ):

٥٧- تاريخ المذاهب الإسلامية (دار الفكر العربى بالقاهرة)

محمد جمال الدين سرور (دكتور) :

٥٨- الحياة السياسية فى الدولة العربية الإسلامية فى القرنين الأول والثانى بعد الهجـرة (دار الفكر العربى بالقاهرة)

محمد عبد الحى شعبان (دكتور) :

٥٩- الثورة العباسية (ترجمة عبد المجيد القيسى - دار زهران بالقاهرة)

محمد الشحات قرقش (دكتور) :

٦٠- عمان والحركة الإباضية (مكتبة مسقط ١٩٩٠)

محمود إسماعيل عبد الرازق (دكتور) :

٦١- الخوارج فى بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجرى (ط٢ مكتبـة الحريـة الحديثة - القاهرة سنة ١٩٨٦)

محمود شاكر :

٦٢- التاريخ الإسلامى "الدولة الأموية" (الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ - المكتب الإسلامى ببيروت)

المسعودى (٣٤٦هـ / ٩٥٧م) أبو الحسن على بن الحسين :

٦٣- مروج الذهب ومعادن الجوهر (دار الكتب العلمية - بيروت ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م)

مسلم (ت٢٦١هـ) الإمام مسلم بن الحجاج القشيرى النيسابورى :

٦٤- صحيح مسلم بشرح النووى (المطبعة المصرية ومكتبتها)

مصطفى حلمى (دكتور) :

٦٥- نظام الخلافة فى الدولة الإسلامية (دار الدعوة - الإسكندرية بدون تاريخ)

مصطفى الشكعة (دكتور) :

٦٦- إسلام بلا مذاهب

المقدسى (مطهر بن طاهر):

٦٧- البدء والتاريخ (تحقيق هوارت - باريس ١٨٩٩ - ١٩١٩)

المقريزى (٨٤٥هـ / ١٤٤١م) تقى الدين أحمد بن على :

٦٨- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (بولاق ١٢٧٠هـ)

الملطى (٣٧٧هـ) أبو الحسين محمد بن أحمد بن عبد الرحمن :

٦٩- التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع (بيروت - ١٣٨٨هـ)

ابن منظور (ت٧١١هـ) أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم:

٧٠- لسان العرب (بيروت ١٩٦٨)

مهدى طالب هاشم :

٧١- الحركة الإباضية فى المشرق (الطبعة الأولى ١٤٠١هـ / ١٩٨١م - بغداد)

الناشىء الأكبر (ت٢٩٣هـ) عبدالله بن محمد :

٧٢- مسائل الإمامة (تحقيق يوسف فان أس - بيروت ١٩٧١م)

ابن النديم (ت٣٨٣هـ / ٩٩٣م) محمد بن اسحق:

٧٣- كتاب الفهرست (القاهرة - ١٣٤٨هـ)

أبو نعيم (ت٤٠٢هـ) أحمد بن عبدالله :

٧٤- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (مكتبة الخانجى ١٣٥٢هـ)

الواقدى (٢٠٧هـ) محمد بن عمر:

٧٥- كتاب المغازى (تحقيق فون كريمر - كلكتا ١٨٥٦)

ولكنسن :

٧٦- بنو الجلندى فى عمان (مسقط ، وزارة التراث ١٩٨٢)

ياقوت الحموى (٦٢٦هـ / ١٢٣٠م) شهاب الدين أبو عبدالله :

٧٧- معجم الأدباء (دار الفكر - الطبعة الثالثة ١٩٨٠م)

٧٨- معجم البلدان (دار إحياء التراث العربى - بيروت ١٣٩٩ / ١٩٧٩م)

يوسف العش (دكتور) :

٧٩- الدولة الأموية (دار الفكر - دمشق بدون تاريخ)

أبو يوسف (١٩٢هـ / ٨٠٧م) يعقوب بن إبراهيم :

٨٠- كتاب الخراج (القاهرة ١٣٠٢هـ)

٨١- دائرة المعارف الإسلامية (تعريب أحمد الشنتناوى وآخرين)

ثانياً – المصادر الإباضية

اطفيش (محمد بن يوسف):

١- رسالة "إن لم تعرف الإباضية يا عقبى يا جزائرى" (نشرها قاسم بن سعيد الشماخى ومصطفى اسماعيل الفارضى بإشارة الإمام فيصل بن تركى سلطان مسقط)

أحمد مهنى مصلح وآخرون :

٢- "هذه مبادئنا – ردّ على كتاب (الإباضية عقيدة ومذهبا للدكتور صابر طعيمة) – مسقط ١٤٠٧هـ)

الأزكوى (عاش فى القرن ١٢هـ / ١٨م) سرحان بن سعيد :

٣- كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة (مخطوط بمكتبة معالى السيد محمد بن أحمد ابن سعود البوسعيدى برقم ٥٧١)

٤- تاريخ عمان المقتبس من كتاب كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة (تحقيق عبد المجيد القيسى – أبو ظبى ١٩٧٦)

البارونى النفوسى (عبدا لله) :

٥- الأزهار الرياضية (تونس – بلا تاريخ)

البسيوى (أبو الحسن على بن محمد):

٦- مختصر البسيوى (نشر وزارة التراث القومى بسلطنة عمان ١٩٨٤)

البرادى (٦٩٧هـ) أبو القاسم بن إبراهيم :

٧- الجواهر المنتقاه (طبعة حجرية - القاهرة ١٨٨٤م)

جميل بن خميس السعدى:

٨- قاموس الشريعة (تحقيق عبد الحفيظ شلبى - وزارة التراث القومى بسلطنة عمان ١٩٨٢م)

الدرجينى : (٦٧٠هـ) أبو العباس أحمد بن سعيد:

٩- طبقات المشايخ بالمغرب (الجزء الثانى - حققه وقام بطبعه إبراهيم طلآى - الجزائر ١٩٧٤م)

الرقيشى (توفى فى القرن العاشر الهجرى) أحمد بن عبدالله :

١٠- مصباح الظلام (مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٢٠٥٤٩ب)

أبو زكريا (ت ٤٧١هـ) أبو زكريا يحى بن أبى بكر :

١١- كتاب سير الأئمة وأخبارهم المعروف بتاريخ أبى زكريا (ط٢ تحقيق اسماعيل العربى ١٩٨٢م)

الحارثى (سالم بن حمد):

١٢- العقود الفضية فى أصول الإباضية (وزارة التراث القومى بسلطنة عمان ١٩٨٣م)

سالم بن حمود بن شامس السيابى :

١٣- عمان عبر التاريخ (مسقط - وزارة التراث القومى ١٩٨٢م)

١٤- طلقات المعهد الرياضى فى حلقات المذهب الإباضى (مسقط - وزارة التراث القومى ١٩٨٠م)

١٥- إزالة الوعثاء عن أتباع أبى الشعثاء (تحقيق سيدة اسماعيل كاشف ١٩٧٩م)

١٦- أصدق المناهج فى تمييز الإباضية عن الخوارج(تحقيق سيدة اسماعيل كاشف ١٩٧٩م)

١٧- الحقيقة والمجاز فى تاريخ الإباضية باليمن والحجاز (وزارة التراث بسلطنة عمان ١٩٨٠)

سليمان محمد السالمى وأخيه :

١٨- عمان تاريخ يتكلم (دمشق ١٩٦٣)

الشماخى (ت ٩٢٨هـ / ١٥٢٢م) أحمد بن سعيد بن عبد الواحد:

١٩- كتاب السير (مسقط - وزارة التراث ١٩٨٧م)

صالح بن أحمد الصوافى (دكتور) :

٢٠- الإمام جابر بن زيد واثره فى الدعوة (مسقط - وزارة التراث ١٩٨٣)

على يحى معمر:

٢١- الإباضية فى موكب التاريخ (مكتبة وهبة بالقاهرة ١٩٦٤)

٢٢- الإباضية بين الفرق الإسلامية (مسقط - وزارة التراث القومى ١٩٧٩)

العوتبى (عاش فى القرن الخامس الهجرى) سلمة بن مسلم :

٢٣- الأنساب (مسقط - وزارة التراث القومى ١٩٨٤)

أبو عبيدة مسلم بن أبى كريمة (توفى قرب منتصف القرن الثانى الهجرى :

٢٤- رسالة فى الزكاة (مسقط - وزارة التراث القومى - سلسلة تراثنا عدد ٣٤)

القلهاتى (ق ٤هـ / ١٠م) أبو عبدالله محمد بن سعيد الأزدى :

٢٥- الكشف والبيان (تحقيق سيدة اسماعيل كاشف - وزارة التراث بسلطنة عمان ١٩٨٠)

الكندى (٥٠٨هـ) محمد بن إبراهيم الكندى :

٢٦- كتاب بيان الشرع (مسقط - وزارة التراث القومى)

محمد على دبوز :

٢٧- تاريخ المغرب الكبير (القاهرة ١٩٦٣)

محمد صالح ناصر (دكتور) :

٢٨- مكانة الإباضية فى الحضارة الإسلامية ـ الحلقة الثانية (ط أولى ١٩٩٢م)

نور الدين السالمى (عبدالله بن حميد):

٢٩- تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان (الكويت ١٩٧٤)

يحى محمد بكوش (دكتور):

٣٠- فقه الإمام جابر بن زيد (دار الغرب الإسلامى - بيروت ١٩٨٦)

أبو يعقوب يوسف الورجلانى :

٣١- الدليل والبرهان

٣٢- مجموعة السير والجوابات لعلماء وأئمة عمان (مسقط - وزارة التراث ١٩٨٦ - تحقيق سيدة اسماعيل كاشف)

٣٣- مجموعة رسائل الإمام جابر بن زيد (نسخة مكتوبة على الآلة الكاتبة مودعة بالمكتبة الإسلامية بمسقط)

٣٤- من جوابات الإمام جابر بن زيد (ترتيب سعيد بن خلف الخروصى - مسقط ١٩٨٤)

الفهرس